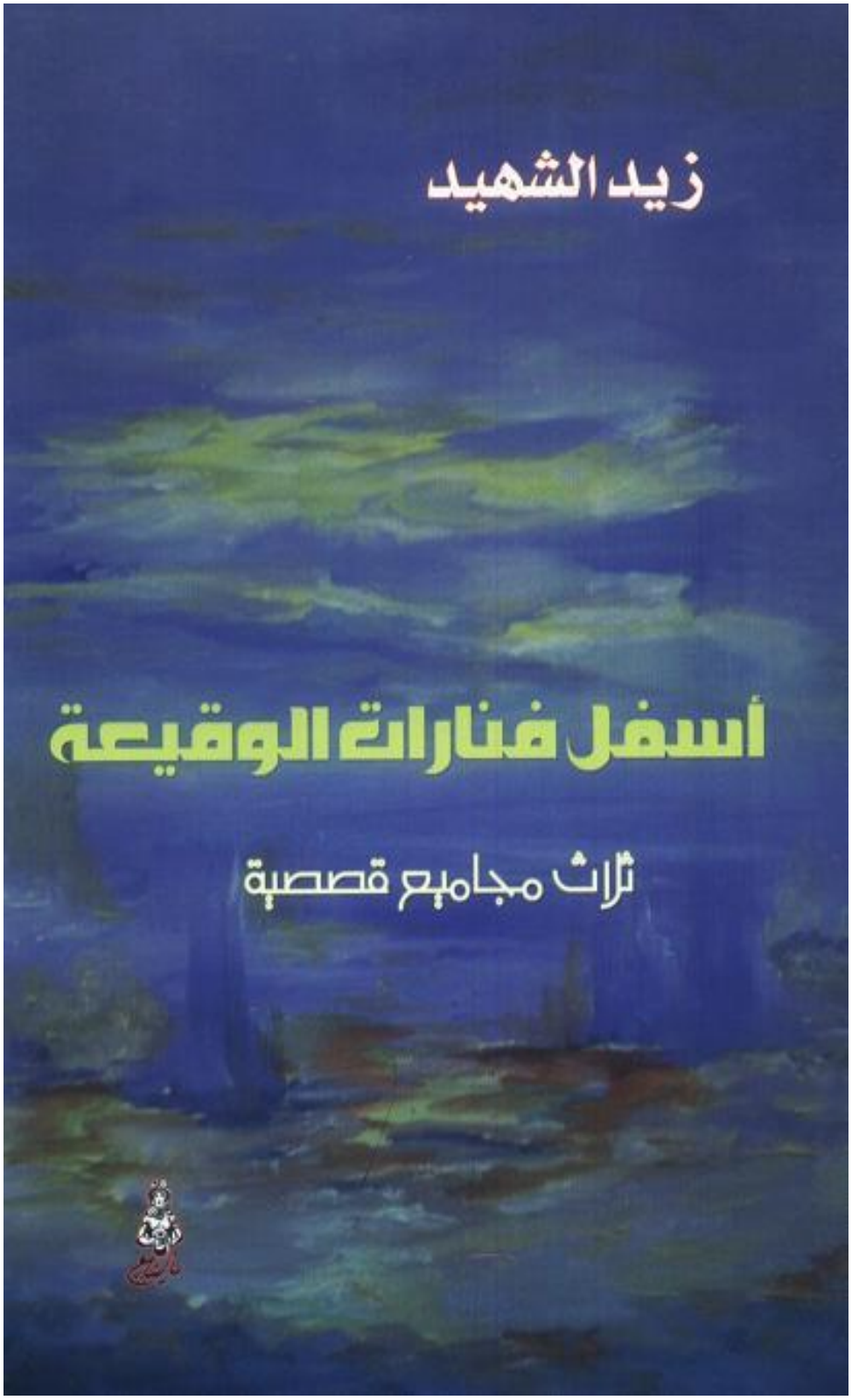
زيد الشهيد
أسفل فنارات الوقيعة
ثلاث مجاميع قصصية

جميع الحقوق محفوظة

الكتاب : أسفل فنارات الوقيعة

تأليف : زيد الشهيد

الطبعة الاولى :2009

تصميم الغلاف : جيهان خير

رند
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق / جوال : 00963 944628570

Email: akramaleshi@gmail.com

زيد الشهيد

أسفل فنارات الوقيعة

ثلاث مجاميع قصصية

زيـد الشـهيد

فضـاءات التيــه

قصـص قصيرة

صدرت طبعتها الأولى عن (دار ألواح) في اسبانيا عام 2003

المحتويات

1- شهادة
2- فضاءات التيه
3- سيدوري
4- تراجيدي
5- الجرثومة
6- بعد التحية
7- حالمون وعاقبة

شهادة

أسفل فنارات الوقيعة

المُشيَّد كاضطراب الغياهب نجيعٌ يغلي.. ثقوبٌ تأخذُ شساعات التلافيف.. غرابةُ الأديم بضياع المديات.. يسيحُ فجر الروح مُطارداً برغبة انهيال البروق... رفيفُ الدمِ مُتعكِّزاً ينوء، ورغبةُ العصارة مُقادةً لفكُ رموز زواياها على استطالاعات صفائح الذهن.. تمور الدواخل عند تخوم مغاليقِ الحواس، جائشة في ملاحقةِ ذؤابات طرح الرأي/ فكرة تجاهد عارضةً تجسيد: الاحتراق / الذوبان/التفتُّت / الانصهار... زوال العُتمة كفيلٌ بذراعِ التوهج... على أثافي التصحرّ أقلّي أو أغلي، أقلّب أو أخوض.. جهيدةّ تغدو مهمة عدّ الخطى المندثرة!! جهيدّ لهاث التطلّعِ لترسيم آثارِ الغيب... تُلاحقني – الفكرةُ بورتريت من زحام بأتباعها، بألوانها، بحداءاتها، بعويلها؛ وحتى بضحكاتها...

أنا جمرةٌ تجيشُ بالثلجِ... الصقيعُ دثاري؛ وريشةُ الكتابة: قناديلُ / أرصفةُ / غمامات/ دخان وقنابل وذكريات حروب متلاحقة / تعثُّرُ يليه تعثّر، وتوجسات متبوعة بتهجّسات.. ضجيجٌ متناسلُ لمحطاتٍ عقيمةٍ أو مرائب قِفر... عبثاً يتهاوى وهجُ الدمِ وترجيعاتُ القرنفلِ تُمحى بكثيف العَماء المُعاش أبداً.. صهيلُ الدُنى يؤولُ إلى أيقونات الخفوت. وصهيلنا ولادةُ أنينٍ واستمرار ندب، وخيار فجيعةٍ... فجيعةٍ.. فجيعةٍ. نحن مصانعُ مصغّرة لإنتاج الفجائع – هلمّي أيتها الرموس – بضاعتنا لا يمسسها التقليد، ومصانعنا تجدد نفسها بنفيها، أو نفيها بنفسها.. أقيء إفرازات اللغةِ وأعبُّ – استبدالاً – هواء الفايروسات الجنونية... خلودّ الذاكرةِ مفسدةُ الكلماتِ وخواؤها، مستعمرات هذيانية تتأقلم وتتواشجُ.. تتداخلُ وتشتبك، وليس لي من زفير اللحظة المنشطرةِ غير هشيم الحروف.

تتلاعبُ بنا انشطارات اللحظةِ تمنحنا مصائر رماد الشمس/ استغفالاً تزرعُ بذار الريبة فلا نتلمّس سوى نسيجَ الألمِ؛ و(كايزونيا) تلتهمُ صرخات (كاليغولا)، الزوج المطعون بالعدم : " إن أكثر شيء يؤلمني في هذا الوجود هو أن لا شيء يدوم ؛ لا شيءْ يا كايزونيا"... ألوذ بالطفولةِ العشبيةِ أطرق أبوابَ كهوفها الموصدة .. يحدث أن تهرب مغموسةً بمسوحِ الأسى: كيف لها أن تغتال أنس الشغفِ ؟.. أستدعيها رجاءً.. أُهدهدُها على صدى ترنيمات البحثِ بين أزقّة حواري الروح.. أسقيها دهاقاً إكسير التذوق والرحيل.. مراراً ما أفاجأ بالذكرى تنزوي خجلاً. تحثّها فتاةُ اللغة على تضئيل نسبة الاستحياء كي تخلقها بريشة الحنين ميساً وخفقاً.. همساً ووشوشة.. لوعةً وفقداً.. ترنيماً ووهجاً، وألواناً ساخنة .

تلزمني استفاقات ديدنيةُ تؤثث لها شوامخَ وانطلاقات شاخصة من منابتِ قعر البركان الذي سيُعلن هتافهُ مع توازيات قعرِ الحواس وتقاطعاتها؛ ثم احتشاداتها عند بؤرة جمرة المودّةِ الأولى المتناسلة. مفردات قد تتوهج استمراراً، وقد توش على مطبّة طريق السطر المائي.. حين أغرز حاسةً وأبحثُ بأظافرّ الفضول عن اليقين ينبري الشك !!.. ينبري، فتعجزُ الريشةُ – تتفكك مفاصل أصابعها مستعيضة عن العدو بالصرصرة : صررررر، أو الجزجزة : جززززز. وأكتشف آنْ رفع الرأس عن الورقةِ أنَّ فضاءات الذهن إنما امتلأت بضبابِ الخطوِ يستدعي انجلاؤه تراجعاً وانكفاءً؛ وسيجارةً (مع أني بعيد عن غواية الدخانِ) وقدحَ شايٍ. أو نهوضاً بدافع سحب الأنفاس لا طرد الزفير،، هل يكفي؟!

أُشففّ الجدران كي أرى أهمية السقف.. أعتزلُ التأويلات لئلاّ أنهار افتراضات لإشكاليات لا تأسيس لها، لا مرايا، لا تخوم، لا ضفاف، لا تحليق سوى : كيف ولماذا، وماذا.. أين ومتى؛؛ وحيرة تخلق لها عَدماً.. مطمورةٌ فيوض الرغبة بانكسارات الآتي، برماد التقويم المشطوب، بفضاء اللوحة التي تدوّر أفكارنا بدوّامة الينابيع التائهة.. أغور غوصاً أو أطفو علواً لبلوغ يَمّ النشوة التي تلد رغاوي بطول أمتار من الدقائق تكفي لغرق مأمول، مُعَد له بإتقان حيث لا نزوة تسلب نُسُمَ القناعةِ أو مالاً يعكّر سطوع اليقين... تلومني التي تهتفُ بي "حبيبي!" على بعثرة الزمن – الضائع – الذي سماه "بروست" مفقوداً. (هي) تفهمه عوماً وثَمَلاً.. كفّاً بكف وعدواً. (أنا) أفهمه انشوطة كلمّا ارتكبت إثمِ تقديم الخطو مارس معي سادّية خنق الأنفاس...

فداحةُ الفضاء تشظّيني وتلملمني؛ كذلك البروق تحتدم فأجعلها بالمفردة تطاوع طاعتي وطوعي، لأنّي ماءٌ ضامئ ليس لي غيرها ما يهبني شعور الارتواء والامتلاء... ولَجتْ عثرتي وهيامي/ شروري وانبعاثاتي/ أطيافي الهاربة ومشكاتي.. ولَجت ضوئي وتهجسي، وفرقتي، وفقدَ أحبتي، وسفري، ومجوني.. غربتي واغترابي/ جنوني وأعطافَ لوعتي، وصفائي وهبائي.. رياحين صحرائي وذهبي غير المصفى.. اختلاجاتي.. حربي ضدُّ استيهامات بمثابة مجهول،، أنا اضطرابٌ غلياني محشور بين المفردة والفكرة، معصورّ بالتفكّر المتوالي/ المتتالي... أحثّ المفردةَ لإنتاجِ لوحة/ حلم... لوحة/ حلم.. لوحة/ حلم، حتى أثير هياج الجدران فأتركها تستفيق على يقظةِ الانعتاق.. أسكبُها ناراً أو شهداً.. حرقةً واكتواءاً.. أسكبها جدائلَ رضاً وغدائرَ وسحاباتٍ، وبراءةَ صبيةٍ وكركرة عنادل ... أسكبها تاؤهاتٍ وانكسارات ؛ خمراً وأقماراً عاشقة.. أسكبها واضلُ أسكب واسكب، وأسكب، وإذْ أرى إلى ما وراء الانتهاء ألفيها تمارس غواية الذوبان/ الانتحار شغفاً وابتهاجاً،، وأسمع: لماذا كلّما أهرقنا الدمعَ هاجمنا الارتياح؟ وكلّما أفقنا من رقدة التوجّس مارسنا شغفَ الارتداد؟! أهي اللذّة المسماة جنوناً أم " المازوشية " التي نرتئيها ترياقاً لقوافل الجراح المنتظرة خلفَ جادّة سيرنا؟!

ريشةُ الكتابةِ ترفضُ حديثَ الرماد تتعثر إنْ أُقتيدت متّشحةً بالمراءات لمحاورة لافتات لم تترع معها يوماً ما من مائدة الشمس... قد تحبس نَفَساً وتُداري!! قد ترتدي حبَر الغرابة!! قد تُمارس فقدَ الذاكرة وتنطق تحت تهديد العسف!! قد يراها الرائي تؤدي دوراً يظنّه متقناً لكنها يقيناً – ريشة لا ترقص طرباً كما تشتهي، ولا تستطيب نَفْساً إلاّ بين رفيف جذوتها المتّقدة واعطاف يومها المنسفح.

ريشةُ الكتابة تعتاشُ معي، حبُرها دمي وصحائفُها أعوامي... تجتاز باتزانٍ برازخَ الاقيانوس وعَماء التابوات.. تُنهي ريَبَ الهزيعِ المُحتشد بالغَمامِ والفخاخ والعتمَ والمجهول.. تتجاوز أشداقَ المسوخِ وزبدها المُعلّقم... تختتمُ سِفرَ الإصغاء لأفواه السعالى الفاحّة شبقاً تحتَ صدور غيلان تضاجعُها أسفلَ فنارات

الوقيعة... تغدو اللغةُ زحاماً حشدياً من كرّياتٍ بيضٍ تتدرّع بغية تقليل نضوبِ شقاء الكتابة المُمتع/ الأليم لحماية حيوية النص ويفاعتهِ.

تؤول مسافةُ الانسلاخ إلى الانتهاء فيكتملُ خلقُ الموضوع، يرميني ضجيجاً من ركامٍ.. يذوبُ الثلجُ فأتلمّس أناملَ الصقيع تقبضُ من حَماء الشمسِ قبضةً لحياكة عزيمة وحَبكِ استعداد لرحلة استحالة قادمةٍ... ذوبان رائقُ،، إثمّ مستديم، مشيدٌ كاضطراب الغياهب... نجيعٌ يغلي، وثقوب تأخذ شساعات التلافيف .

كانون الثاني/ يناير 1997

ينور / اليمن

فضاءات التيه

تعالت الفورةُ الرمليةُ آخذة مُتسعاً من الفضاء الفسيح .. وبفوضاها حجبت الكتفَ الأيمن للتلِّ الماثل مُجهزةً على صفاءِ الأمد القريب.. كانت حركةُ العربتين الكبيرتين المحمَّلتين بعِدَدٍ غير واضحة هما مَبعث الفوضى الغبارية بينما بدت العرباتُ (اللاندروفر) الثلاث أقلَّ تأثيراً ... سمعت الفتاةُ المتَّكِئة على كوعِها الأيمن لحظة منحِ عين الفضول مُهمّة متابعة جزئيات المشهد صوتاً قادماً من ورائها . لعلّه صوتُ الأم . كأنه سؤال يخصها :- ما هذا ؟. لكنَّ الجوابَ جاءَ صيحةً نائية : لا ندري سرَّ هذا التلِّ الغامض ، الغريب .. تمتمت : هاهُم يعودون، (من وراءِ وبر الخيمة _ يوماً ما . سمعتهم يتحدثون .. بعثةٌ استكشافية تكلّم أباها والجالسين ... قالوا عن مهّمةِ مسحِ التلّ .. سمعَتهم يفوهون: سومر كانَ لهم وجودٌ هنا.. مَنْ أُولئك السومر؟! .. ضجَّ السؤال ليلتها يضربُ على طبلةِ دفِّ أفكارها ، فيأتيها إيقاعُ الحلم البعيد .)...

على سطحِ السفوح المتعرِّجة للتلِّ اعتادت رؤية أجزاء هياكلَ مطمورة : أعناقُ جِرارٍ يحنِّطُها الترابُ المتكلِّس / أشكالٌ حوضية مقلوبة / عِددٌ حجرية اتَّخذت هيئات حافات فؤوس ، أو نهايات رماح أو رؤوس أيائل / تكويناتٌ استهوتها كثيراً .. مرّةً تناولت إحداها فأسقطتها في يمِّ مفاجأةٍ إطلاقاً لم تحسبها عندما دارت بها على طينٍ مُسطَّح كوِّنته تقاطراتُ الماء المستخرج من البئر ، مُظهرةً رسوماتٍ ضحكت لتجلّيها : خرافٌ تقضم ، وأبقارٌ تخب ، صحونٌ من فخار ، سلالٌ تمتلىء بأكوامِ رزٍّ لميع .. صار لها ذاك اليوم موضوعاً للإخبار به لولا أنها كُبِحت بالخوفِ والتطيّر من هكذا أشياءٍ قيلَ أنها تُخفي لعنةً ستبيدُ ليس مُقتنيها فقط بل وتسوّي الأرض بما حوت من تجمّعاتٍ يؤمها البشر سكناً وعيشاً ، جاعلةً منهم نثاراً أبديّاً تبتلعُه رمالُ هذه البيداء التي سبق وابتلعت أقواماً صاروا من قصص الغابرين .

نهضت لا لتتَّجه صوبَ مَضرب الأهل ، أو لتجمّع الناقات المتبعثرة بل لتتّخذ حركةَ التطلّع تفصيلاً .. اختارت مكاناً مُطلاً استبانت رخاوته فانبطحت .. لم تُعر السخونةَ المختزنةَ في الذرّات الصفراء بالاً .. صار همُّها تتبُّع فعِل الرجال ونواياهم .. والرجالُ سريعاً أكملوا نصبَ خيمات ثلاث وسيعة شكلّت ثلاثة أضلاع تحيط فسحةً تقدَّمتها مواقعُ العربات الصغيرة .. كان الجميعُ وعَددهم كما استنتجَ فضولُها تسعة يرتدون الفانيلات الخفيفة وأنصاف السراويل تعلو ركبَهم .. سمعِتْ بعضَهم يتحدث بلغةِ أهل المدن فيما آخرون يرطنون بلثغات مُبهمة.. استدار أحدُهم . بلمحةٍ لوّحتْ يداه العاريتان باتجاهها فطأطأت الرأس خشيةً وتهيباً .. لكنَّ الصوت الذي أفعم قلبَها بالطمأنينة جاء من جانبها الأيمن البعيد فأدركت أنَّ أباها الذي سبَقَ وأستقبلهم قبل شهور هو الذي فعل ذلك ، (يومها عرفت أنّ أرضاً يخيّمون فوقها الآن ، وترعى إبلهم على إمتّداداتها كانت ربوعاً خضراً تحيط مدينةً لها إرثٌ وتقاليدٌ وتاريخ . سَمِعتْ من وراء وبرِ الخيمةِ ما أدهشها .. كثراً كانَ الناس ، يحيون على أمانٍ بمثابةِ حياةٍ أبدية . يجدون في الماءِ سعادةً ، وفي صفاء السماءِ طموحاً لاقتناء هناءةِ بالٍ مُرتجاة . تغدقُ عليهم قوىً خفيةً / خارقةً رِضاً فيعيشون نهلاً على هِبات من ينابيعَ روحية بلا انتهاء . تساءلت بذهول : أكانوا كما نحن ؟! أيكونون هُم الذين سمعنا الكثير عنهم عبر قصص الليالي المتأخرة ؟!.. ماذا يرتدون ، وما يأكلون ؟! وكيف آلت خاتمتُهم إلى هكذا اندثار؟!... الأفواهُ الناطقة وراء وبرِ الخيمة

تشفّعت لها كإجابات لأسئلةٍ أغدقها أبوها وأبناء عمومتها على الضيوف الجالسين تلك الليلة قبل أن تأخذهم أحاديثٌ أُخر لمواضيعَ شتى ... تدفَّقت المُخيلةُ ضجيجةً بالاحتدام ، عازمةً على خلقِ الصورةِ الأقرب إلى التصديق) .. حَميماً كان الاستقبال . بدأ بالمصافحة وانتهى بانهيال العبارات المعتادة في ملاقاة ودٍّ بعد شوق . لفتَ انتباهَها شابٌ ينقل كلاماً إلى مَن وقفَ يتطلعُ بإنصاتٍ وعدم فهمٍ : رجلٌ تتشرب عيناه المتفرستان _ العينان زرقاوان حادتان . ووجهُه الأحمر المحتقـن بما يقوله الشـابُّ ترجمةً ؛ وما يقدمه أبوها من لمحاتٍ وحركاتٍ كتعبير عن تحيّةٍ مفعمةٍ بالاحتفاء.

باذخاً كان العشاء.. تلته فناجينُ القهوة المتنقّلة بين الأنامل ؛ صاحبته الأحاديث المتواصلة تقصُّ تفاصيلَ التحركِ قبل الحضور، تحكي تفصيلات القافلة بشخوصها ومحتوياتها ؛ المشاريع المنوي الشروع بها ؛ إحضار الخرائط المرسومة حيث إنجاز تسليطها خصوصاً المتطلبات والدراسات أُعدّت وأُكملت ولم يتبقّ غير العمل الميداني استعانةً بعرباتٍ حوضيّةٍ وأجهزةِ حَفرٍ قد تستدعى جهداً جهيدا ً..

متواليةً تهافتت الأسئلةُ ، مَشوبةً بكمٍّ من الاستفهامات عن سبب الاهتمام الوفير بتلٍّ مُهمَلٍ وفحوى مقتنيات لا تُرضي و لا تُغني برأي الأبِ والأخوةِ والمعارف الحاضرين تلك الجلسة الليلية الحافلة بالود... وإذْ راح الحديث يتواصل والكلام يَطول تفجَّرَ ولـهُ الفتاة وتأجَّجت مَملكةُ خيالِها .. تعرَّتْ أصابعُ الوصفِ ناثرةً سحابات رغوية شرعت تتنامى أعلى سهوب الشغف. تهمسُ لها الأمّ بضرورةِ عدم الالتصاق بوبرِ الخيمة ، وغلق السمع إزاء أحاديث تخصُ الرجال ولا تعنيها .. لكنْ لا جدوى ، فالخيالُ جامحٌ والروحُ طليق والمدى !.. المدى يرحل باتجاهِ اغتراف دُنى الغرابةِ والسحر .. سمِعتْ ! وسمعت !.. وسمعت !!.. خَلقَتْ ! وخَلقَتْ.. وحلَّقَتْ .. وصار عليها أن تعيش التحقّقات ابتداءاً من تلك الليلة التي بدت هادئةً ظاهرياً، لكنّها مشوبةً بتهجّساتٍ وخواطرَ مُبعثرة لديها ... ومن مكانِ التطلّع خارجاً أبصرت مصابيحَ صاخبةً بالضوء تتوهج ، يبثّها موقعُ إقامة القادمين .. دواخل الخيمات تنضح أقمشتُها الكتّانية ظلالَ الرجالِ المتحركين أو المتخذين أوضاع متفاوتة ، بينما التلّ ينامُ على امتدادِ همودٍ أزلي، يتّجه صوبه بتنامٍ شحيح ما تدفعه المصابيح فلا تبين منه غير آثارِ خُطى خيطية باهتة تضيـع عند حوافّ هبوطهِ المُلامس لاستواء الأرض .

نهضت على نداءِ الوسادة ورغبةِ فراغ البساط .. دخلت خيمتَها وتمدّدت .. الشقّ الطـولي بمدخل الخيمة قدّمَ فورةَ نجومٍ تتعرّى بائحةً بما لديها من جذوات وهيجة حالةَ القمر وانطفائه ... تاهت سادرةً في التتبّع ، تحاور أكثرها تألقاً واحتراقا عندما وصلتها أصواتٌ خالتها تكسّرَ جِرار الصمت .. للوهلةِ الأولى كذّبت أذنيها .. نهضت لتوكِل لعينيها مهمّة قطع الشك فإذا ببؤرٍ ضوئيةٍ لها هيئة مشاعل زاحفة تتحرك باتجاه الخيمة ، خارجةً من أبواب حجرية كانت حُجب التلّ تخفي امتثالَها .. تناهت لها قريبةً . دنت أكثر!!.. أكثر دَنتْ.. تسللّت من الفراش ؛ وأمامَ مدخلِ الخيمة رأتهم قادمين . القاماتُ ناهضة تكسوها سمرةٌ أزلية أضفت عليها سماحةُ الشموس بهاءاً من ألوانِها المُستحبَّة . الملابسُ لا تمُت لأيامنا . أردية تلفُّ الجسدَ ، تعرّي الجانب الأيمن فتُظهِر الأكتاف مفتولة . ومن أسفل ترتفعُ حافاتٌ قطنية مُخرَّمة أدنى الركبتين . الشعورُ طويلة هادلة تحفُّ الأكتاف ، يتساوى قّدامها الرجالُ والنساء مع الصغار.. تسّمرت تحت سطوةِ الدَّهَش وسؤال تنامت حيثياتُه ومتعلقاتُ فحواه : أتراهم السومر؟! . أيكون الرجالُ خلفَ وبرِ الخيمةِ ُمحقّين بحديثِهم عن التلِّ وقاطنيهِ ؟!.. أأكون أنا واهمة ؟!...

الأسئلة قرّبت هياكلَهم ودفعتهم لاستنطاق قوامِها المُرتعش/ المُرتبك... سمعتهم يفوهون :

ـ هيّا...

ـ آ... كيف ؟!....

عامتْ وسطَ حيرةٍ رغويةٍ متوالدة .. أخذها طوفانُ سحناتِهم السمر وابتساماتهِم الشبيهة بفيوض مائية شفيفة .. تلقّفتها أذرعُ أرواحهمٍ المُشرعة.. راودها شوقٌ غامض لمصاحبتهم.. عادت صبيةً ... صبيةً جداً .. فتيات بعمرها أحطنَها.. وكما لو كانت تحت تأثيرِ نداءٍ سحري أعطتها رغبة قيادتها خطت . بقليلٍ من الخطى آثرت الالتفات ساعيةً لإطلاق نداءات الحنين: أبي ! أمي ! صويحباتي ! أيتها الناقات !! يا مضاربَ الأهـل !! . بيدَ أنَّ الأعماقَ كانت منشغلةً بمراسيمِ الاحتفاء ؛ وسيلِ الابتسامات الناضحة من الوجوهِ المغمورة بالبشِر.

حين اقتربت كانَ جلُّ مصابيحَ خيامِ البعثة قد انطفأت ولم تَبن إلاّ فَرادى . تحاورت مع مَن يقربنها من فتياتٍ عن وجود هؤلاء الذين سيعبثون بإرثِهم فلم يزُدنَ عن تواصل الابتسام. وكنَّ أدركنَ عتبةَ بابٍ حجرية موارَبة... شاهدت من يتقدّمنها يلُجنَ بيسرٍ ويختفين . فلا صوت ، ولا حركة سوى سماعها شيئاً يصطك كأنّه انغلاقٌ حجري حدث خلفَها حالما ولجت (وسمعَ مَن كان داخل الخيمة الكتّانية يطالع ألبوماً لصورِ أناسٍ عاشوا قروناً بعيدة خَلت – ذلك هو الرجل ذو الوجه الأحمر المحتقن، والعينين الزرقاوين – اصطكاكَ حجرٍ بحجر فنهض مهتاجاً .. هرع يتحرّى خارج تواجدِهم فلم يُبصر سوى حوارات الصمت تدور وسطَ سكونٍ عائم . عادَ لجلسته يلفّه ارتباكٌ وشكّ أقرب إلى يقين السمع . غير أنَّ صورَ الجرار والأباريق الفخارية، وخطوطَ الرسم المتمثّلة أشكالاً لرؤوس حيوانات ودروب تحيطها جدران تقرّبها للمتاهات كان يطالع تجسيمها قبل قليل زرعت لديه شعوراً محتمِلاً بأنَّ ما سمع جاءَ من بابِ تأثير التعمّق والمتابعة المتواصلة... قلّب ورقةً فأستطلعَ وجهاً . كان أنثوياً سومرياً.. أطال النظر فيه / لفت انتباهَه نفاذُ عينيها الوسيعتين، وتقاسيمُ وجهِها الحادة . تابع القلادةَ الفيروزية السارحة على صدرها ، واستقطبته التفرُّعات الذهبية المنبثقة من غطاءِ الرأس والمنتهية بزهراتٍ مشعّةٍ كأنها زهرات عبّاد الشمس) .. راحت الفتاةُ تعيش حالةَ ذهولٍ وفضول متعطِّش لحياةٍ تجلّت غريبة لديها.. وجدت نفسها تقف بمواجهةِ رواقٍ مشعٍّ تنسكبُ الأضواءُ وتسيلُ من مشاعلَ علّقت بانتظام على جانبي الجدار فيما ظهرت نهايةُ الرواق أكثر إيماضاً .. تناظرات زجاجية / مرايا تعكّس بؤراً نورانية لاهثة / تشظيّات شذرية مترجرجة... سمِعت من يهمس بإذنِها يدعوها للتقرّب ، فالماثل إنّما أُقيمَ لأجلها...

ولأنَّها كذلك كان عليها إضفاء دهشةٍ كاسحةٍ وَشَدهٍ كالرذاذ الندي ينهمر فوق محفّات الروح يمنحها رِضاءاً لما ترى وتقبُّلاً .. خطت / اكتشفت _ ولأولِّ مرة . أنَّ قدميها عاريتان ، وأنّها تسيرُ حافيةً ، وأنَّ الأرضَ التي تطبع سحرَ القدمين مصنوعةً من رخامٍ فحمي / مائي (هل سمعت عن هذا قبلاً من وراء وبر الخيمة ؟!) لا تدري وهي تحت سطوة التطلّع كيف وصلت لمنتهى الرواق ؛ ولا كيف توقّفت لترى جمعاً من نسوةٍ وفتياتٍ في حِللٍّ من ألقٍ ومراسيمَ من استقبالٍ عذب .. تأخذها واحدة / تسير بها قليلاً لتوقِفها إزاء فتاة بعمرها . بتقاسيمها / بقوامِها / برهافتها ؛ فتندلع ناطقةً وقد تخلّت عن تكبيل لسانها : أنتِ أنا ..!!

ابتسمت الفتاةُ المقابلة _ وسطَ انحناءٍ ظاهر أبدته الفتيات المحيطات . مدَّت كفّاً تحيّيها . غير أنَّ الجسد الماثل سرعان ما جذبها .. وبلحظةٍ تداخلت الاثنتان / صارتا واحدةً .. تحرَّكت صوب عُلّية مرمرية صُنعت بهيئة صومعة جلوس .. بتربِّعها واتخاذها الموقع المُرام انحنى الجميع ورحنَ يطأطئنَ الرؤوس ، تصاحبهن

أنغام كورالية تدلقُها أفواههن ... أدركت الفتاة المتوارية بجسد الفتاة أنهّا الإلهة(إنانا).. عرفت ذلك من الترانيم التي ردَّدت الاسمَ تكراراً .

وعلى إيقاعِ حُلمٍ مبتور لا تدري مبررات زوالهِ عادت إنانا / الفتاة مسحوبةً لتغرق بسكونِ البرّية وأنفاس الذين يرقدون جوارها.

بكرِّ الجميعُ على حركةٍ نشطةٍ تدور أعلى التلِّ .. مساطر وإشارات/ أعمدة وقبعّات/ فؤوس ومعاول تطعن تكلّسات الرمال وتطيح بهامةِ التلّ الشامخ منذ قرون / ارتقاء ظهر التل بعربات خفيفة فارغة ثم هبوط وئيد بأحواض ممتلئة ... الناقات تركنَ المكانَ المعهود واخترّن آخرَ يسرحنَ فيه.. الفتاةُ بفضولٍ وقلقٍ تتطلَّع فيما بقايا متناثرة لحلمِ الليلة الفائتة يترسب في قاعِ الذاكرة .. أسئلةٌ مبهمة تقود لاحتمالاتٍ أكثر إبهاماً :-

أين الباب التي دخلت منها بالأمس ؟!.. ولماذا ماتت الحركة الآن ؟... أينهم الآتون ؟.. أتراهم يتوجّسون خِيفة من صدى المعاول المنهالة عليهم اللحظة ، أم أنهم يتحينون الفرصة لإبادة هؤلاء السادرين بطعنِ كيان من وجدوا سلامَهم في ثرى الأرض نأياً عن جحود البشر؟!...

استمر العملُ حثيثاً ... وكان على الجميع أنْ يؤوبوا قبل انطفاء الشمس نيلاً لراحةٍ وتخطيطاً لفعل سيؤدونه اليوم اللاحق... كانت الفتاة إذْ تتّخذ مكانَها المعهود كلَّ يوم ترى الشمسَ تدرك قمّةَ التل فتبدو القمّة كحلمةٍ تنتظر فماً برتقالياً عَطِشاً ليرضعها قبل بدء لحظات النعاس والنوم . لكنَّ الشمس حين قدِمت هذه المرّة افتقدت انبثاقَ حلمتِها. بدا النهدُ مهشماً، ومخدَّشاً بأظافرَ أقدامٍ لم تأبه لحيويتهِ وأزليته.. سرت . تمزق قلبَ الفتاة . كآبةٌ كتلك التي تسري بأعماقِ مَنْ فقدَ عزيزاً عليه ... خالت الشمسَ تبكي حُزناً ؛ والسماءَ تمتلئ بلون الرصاص ، وما حولَ التل وشاح اسود هطلَ يعمِّق لونه تعبيراً عن كمدٍ أو تجسيداً لفجيعة (ولاحظت الأمُّ حزنَ ابنتِها فانهالت بأسئلةٍ لم تُنتج أجوبةً . لهذا تركت للصمت والزمن مهمةَ الاستنتاج) .. وفي خيمتهِ جلسَ الرجل ذو العينين الحادتين مُحاطاً بالمترجم الشاب وثانٍ يحمل ذات الصفات، له كما يظهر معرفةً بتضاريس المنطقة ، يرطن لغةً غريبة يفهمها الاثنان ، تضمُهم منضدةٌ فُرشت بخارطةٍ كشفت تفاصيلها بروقُ ضوءٍ ساقط من هامة الخيمة ... راحت الأصابع تمر، توَشر ثم تستقر على مربعات متداخلة تشكّل عمقَ الخارطة : " هنا.. في هذه الزقورة تكمن خاتمة بحثِنا . ردَّ الثاني . هنا وجود الآلهة ومقتنياتها ."

اتّقدت العينان الزرقاوان / توهجتا .. تسمّرتا في عمق البعد الهندسي المربع... سريعاً ! من البؤرة / من النقطة المحورية انبثق قوامُ فتاة الصورة تنتصب فوق الخارطة. وسريعاً أومأ مُنهياً اللقاء ليتملّى فيضَ الملامح... يتمّلاها جيداً ويغرق..

وقد غرق ..!! لحظة انطلقت به ساعات التحديق إلى تخوم الكرى .. رأى نفسه مُقاداً بدرب حفّته أشجارُ نخيلٍ متكاثِف وشجيرات منتشرة تجيشُ تحت ظلِّ خثرةٍ رطيبة... السماءُ توصِل دفقاتٍ متهافتةً من إشعاعاتِ ذهبٍ تُغدِقها شمسٌ فتية . لم يكن غير الصمت مستفَز بضجيجِ عصافير جمعتها فرواتُ أشجارِ سِدر متناثرة تنافُسُ شُجيراتٍ أُخر تهادت وسط قيلولة دافئة عندما فوجئ الرجلُ بقوامٍ يانع لفتاةٍ سرقت لونَ البرونز وزرعته على جسدِها الذي بانَ منه الكتف الأيسر العاري والساقان الخليعتان ، ومساحة ظاهرة تلتمع من لوحِ ظهرِها ... كانت خرجت من تشابكاتٍ خضر متزاحمة لا توحي . إطلاقاً . بسهولة افتضاضِها ...

لم تلتفت الفتاةُ جهةَ الرائي، بل سلكت درباً مغايراً .. وكان عليه أنْ يلاحقها مأسوراً بالفضول .. ما دار بخلده أنها ستتَّجه نحو الزقورةِ التي ما أن انحرفت الفتاة يميناً حتى بانت بهيكلها المنتصب الشامخ

وسلالمها المرتقية صعوداً باتجاه حضور الآلهة... هَمَّ مسرعاً / مستحوَّذاً بضرورةِ إكمال مشاهدة القوام ، والتعرّف على تفاصيل الوجه (إنه يعوم وسط حيرة مهيمنة.. ما حسب نفسه طائفاً على موجة حلم طويل.) سعى ، وبانحرافِه الحثيث يميناً وُوجهَ بالفتاة متوقّفةً . كأنّها تنتظره . حين بانَ رمقتهُ بعينين حادتين تعيبان عليه عبثه وترميانه بنظراتٍ أوقفته مُكبَّلاً بسؤالٍ دفين : لم يكن الوجهُ غريباً . لمَن يكون ؟!...

استدارت بحركةٍ نزقةٍ.. صارت قدماها تقودانها نحو مسارِ الولوج من أحدى بوّابات الزقورة..... أفاقَ على تمتمةٍ تدربك بين شفتيه ، والكتابُ المفتوح يعرضُ صورةً مجسمة لفتاةٍ سومرية كالبرقِ أعلمته بهويتِها ...هرشَ فروةَ رأسهِ بأنامل كفّه اليمنى بينما اتجهت أنامل الكفّ الأخرى تتلمَّس وتجوس ملامح الصورة ابتداءاً من الشعر الهاطلِ على الجبهة ، نزولاً إلى العينين فالأنف ، ثم الفم . وكان الاستقرار من نصيب العنق . أمّا حبيبات القلادة المنسرحة على الصدر فقد اصطدم بها الضوءُ مولِّداً انفجارات سهمية مرتدة تهاجم عينيه.

أغلقَ الكتاب ... عاد ليطفئ النور لا ليذهب وجهة الفراش ، بل تحّرك خارج الخيمة يتابع مثولَ التلِّ النائم. (أتراه رحلَ يتخيّل موقع رقود الفتاة ، أمْ أنَّ سؤالاً جديداً انبثق يعلن وجودَه بحثاً عن تفسير لمِا رأى ؟). لم يرَ الفتاة التي انهمكت تطالع زحوف الليل من مَسافةٍ ليست ببعيدة ، منشغلةً تحاكي النجوم الراعفة، مُرسيةً عينيها على التلِّ والعتمة التي تضرجّه بانتظار شيء ما سيحدث .

حين همَّت بالنهوض والعودة لخيمتها فاجأتها وبلمحةٍ حركةُ انفتاح البابِ الحجري الداخلة إليه بالأمس... لم تنتظر من يأتي ليدعوها ، بل اندفعت وبكلِّ شغفِ القلب راكضةً ... شيءٌ ما يؤجج بداخلِها رغبةَ الولوج ، مُنظمّةً لذاك العالم الأليف... ما رأت أحداً يقف عند الباب / الضوء ليس بالتوهج الذي واجهها في زيارتها الأولى / شيءٌ ما كالوجوم يشيع في فضاءات الرواق . ثمةَ حركةٌ تنضح قلقاً يسّير هياكلَ الفتيات المتوزعات فناء الأمس...

اقتربت من قرينتِها المُظهرة جزعاً ... أعلمتها بعودةِ الأعداء من (كيش) ليضربوا بجيوشِهم الغازية على جدران مملكتها(أوروك) طامعين بما بنت أيدي الجدود ، وما حرصت أفئدة الأحفاد لإبقاء الحياة آمنةً / حيّية / مستقرة... هتفت الفتاة توافقاً ولوعةً : آ، يا قرينتي .. نعم .. هُم!.. هم!.. لقد شاهدتهم . الأعداء!! يعدّون الهِمم.. نعم لقد بدأوا.. آ .شاهدتهم آ.آ

احمرت عينا القرينةِ لسماعِ الكلام .. تضرّجَ وجهُها بالشحوب .. أناملها النحيلةِ عَرت ارتعاشاً بينما الشفتان غزاهما يباس آلَ إلى ابيضاض . تأسَّت الفتاة عليها . أخذتها من يدِها . قادتها إلى كرسي العرش مُسبغةً عليها طمأنينةً متكلِّفة ؛؛ غير أنّ عواءَ ذئابٍ اقتحمَ سماءَ الفناء أرعبَ الفتاة القرينة وأعادَ الحالمة إلى تقرفصها تطالع التلَّ المنتَهكَ مأسورةً بارتجاف آسر وقلبٍ معتصر. ولم تنتبه لابتداءات ريحٍ أعطت إيذاناً بخريفٍ قادم.

ظلَّ اهتمامُها محصوراً بحال القرينة .. تركت خلفها المضاربَ مرتديةً مِعطف العتمة ، مُستدِلَّةً بالنور الشحيح المتبقي وحيداً في الخيمةِ الكتّانية بعدما أطفأ الجميع أنوارهم وراحوا يلجّونَ عوالمَ نفضِ التعب واغتراف قوة جديدة لأجسادِهم المنهكة بنهارات العمل المتواصل استعداداً لنهارٍ قادم.. صار تكّسر الأعواد اليابسة المُداسة بقدميها صوتاً مدوّياً ، واستحال حفيفُ ثوبِها المار على التعرّجات مشاعلَ عثرةٍ قد تَشي باكتشافِها. ذلك ما حتّم عليها التحرك ببطء.

وكان الاقتراب من خلف تشكيلةِ الخيمات .. دنت من الظلِّ الساقط على نسيج الخيمة .. ظلّ من ينحني طويلاً ليتفحَّص شيئاً مثيراً للفضول.(كان عادَ يواصل غرز نظراته المتفحصة / المستوفزة على مسامات الصورة كأنه يستعيد خلقها . كأنَّ كلماتٍ من شغفٍ وشدهٍ واندهاش يجمعها خلف حصون ذاكرته يبغي تفريطَها فوق الهيكل الرهيف وقد امتلأ بِشراً ودماءً فائرةً فبدت كما لو كانت تقف أمامه ينقصها النطق.).. وتحركت هي بخطواتٍ حذرةٍ مجتازةً بعض حبالٍ تسند الخيمةَ ، رافعةً قدميها عن أوتادٍ تدك صدر الأرض.. بحذرٍ يتطلبه الأمرُ صارت بمحاذاة باب الخيمة المستطيل وبلمحةٍ لا تفقه كيف فلتت منها وقفت بكامل قامتها، منتصبةً في فضاءِ الشكل الهندسي المغمور بالضوء.. تلكَ اللحظة هي التي دفعت الرجلَ الغاطس في هُلام متعةِ التحديق / في يناعة الصورة إلى رفع رأسه لتسقُطَ عيناه على المخلوقة الماثلة... قرأها بذهول . وبذهول أيضاً هبطت عيناه تتابعان فتاة الصورة . فلتت من سيطرة عقلهِ مُهمّة ما يفعل . فقط طفق يتمتم : هيَ!..هيَ!...

نهض مستثاراً فسقط الكرسي من خلفهِ واصطدم رأسه بالمصباح المتدلي.. ترجرج الضوءُ فتهاوت الأشياء.. .. وإذْ هَمَّ تحركاً تبدّى المستطيلُ خالياً.

خرج يعدو بعينين يغشوهما ضبابٌ ثقيل.. وكالمجنون اندفع يقتحم غزارةَ الظلمة منكفئاً على مسوحِ التيه بينما عادت هي مُقتَحمةً بالبغضِ والارتعاش.. تشاهدها الأمّ فتضّمها مبسملةً بسورٍ تطردُ شرورَ وساوسٍ تحاصر ابنتها هذه الأيام وتجرّها للوحدةِ والانعزال.. أخذتها الأمّ . أخذتها إلى حيث الوسادة ، تضم الرأس الملاحَقَ بجملةِ تطيُّرات علهّا تنام...

ونامت...

نامت مسحوبةً بحّمى لها أجنحةُ هذيانٍ أو مناقير ؛ تمتمات وارتجاف طيرٍ مبللّ . حمىّ بعثرتها على جزرٍ لهيبة من جمرٍ، والهواء من فحيح...

طرقاتٌ كضرباتِ المعاول تنقرُ جدارَ الرأس ، ولم تتوقَّف إلاّ على صفيرِ ريحٍ تزيده اهتزازات حبال الخيام المتجاورة حدّة .. دفقاتُ رمال تقتحم بعض منافذ خيمتها .

جاءت نتيجةُ الاستفسار تُعلن انتصاف النهار.. الريح تذهبُ وتعود . نفثات تطلقها رئة الصحراء . عجزت الفتاة عن إعلان سؤال يخص نشاط العاملين هناك غير أنهّا سمعت أنَّ العملَ توقف ، وأنهم سيعودون حالماً يهدأ موار البريّة.

استمر العمل لأيامٍ تتوالى . ومعها توالى نحولُ الفتاة وعيِّها عن النهوض أو التحدث بينما استمر صفيرُ الريح متقطِّعاً يغذيها بحفنةِ أمل يُفسّر لها فكرةَ إعاقة مَن يواصلون الحفر . لكنّ الأمل ما انفك جسراً ضعيفاً .. واستمرت الأيامُ تدوسُ بأقدامِ ساعاتِها ، تصاحبها نجاحاتٌ يحققّها فريقُ الانتهاك فتزدادُ هي عِلّةً ، والمرض تفاقماً حتى آل إلى قرارٍ جاء بإلحاح مَكين من الأمّ على حيرةِ الأب الذي أقتنع بتركِ المكان والرحيل لمكانٍ آخر أكثر ضماناً للسلامة تفادياً للأسوأ.

وكان إن تحرك المرتحلون وسط رفضٍ هذياني يُعلنه فمُ الفتاة ويداها خشية جهلها بما سيحدث فيما استشرت شهيةُ الرجلِ ذي العينين الزرقاوين وهو ينهل كل يومٍ بما يكتشف وما يحوز متجاهِلاً كثافة ريح شرعت تتفاقم متواصلةً بانقطاعات يسيرة. ولم يتبقَّ له غيرُ الوصول بعد حفرٍ يسير لجدار الزقورة الخارجي ،

ثم إدراك مدخل درب الحيازة المُثلى وإكمال مشروع سيتم تحقيقُه بإنجازٍ خارق !! سيضع أصابعَه على مداخل الزقورة ولوجاً لتاج القلب .

بين خطوة وأخرى / بين صعودِ عربةٍ وهبوطها ترتفع كفُّه ملوحةً للعاملين : قلبُه يطير بأجنحةِ البهجة راسماً لغَدِهِ رموزاً مُستلّة من آفاقِ الغنى والتيه خيلاءَ ، غير آبهٍ بمن تتوجه لهم معاولُه وفؤوسه والأيدي العابثة ، غير عابئ ببواكير عاصفة ستعلن جنونَها قادمةً بكيان غيمةٍ غبارية كبرّت حجمها المسافاتُ القريبة وأظهرتها نذيرَ توفّز ورعب وفزع أرهقتْ أذهان العاملين وكأّبت لديهم أحاسيسَ تهجست أشياءً غير اعتيادية ستحدث جعلتهم يتبادلون النظرات الخائفة / المتوجِّسة ثم اتخاذ قرار الهبوط وسط دهشة الرجل وذهولهِ لفعلهم . بدا استفهامهُ إشارات أولاً ثم أصوات مبتورة ... أخيراً تعالت صرخاتُه تطالبُهم البقاء والعمل بذات الهّمةِ والاندفاع . لكنّ الجميعَ وبحوارات متقطّعة أظهروا خشيةً وتطّيراً . ضحك (هو) لسماعِ الرد مُطلقاً قهقهاتِ سُخرية مزَّقتها ألسنةُ الريح التي هجمت بعنفٍ غير محسوب .

ابتعد الرجالُ عنه ...

تركوه وحيداً يكوّر قبضةً بوجه العصف القادم تحديّاً غير مدركٍ لتمزّقِ خيامِه وراءه وطيرانها بما تحوي . طارت الأسرّة والمناضد والمصابيح وحقائب الثياب وحاويات الخرائط والأوراق السرّية وحقائب تفاصيل الحلم والمقتنيات المنهوبة المهتوكة ... العربات انقلبت وتدحرجت . ولم ير إلاّ نفسه يمايله العنفُ الرملي ... صار يحاول التشبث إكمالاً لتحقيق الأمنية الكبرى عندما هاجمته وبكلّ اقتدار موجةٌ رملية عاتية رفعته عالياً . تبعثرَ في الهواء المتقاذِف . ما لبث أنْ هوى تتلقفه حفرةٌ وسيعةٌ جوار سورِ الأُمنية / الحلم تنهالُ عليه الرمالٌ انهماراً ..

وتطمرهٌ بلحظات .

لا يمكن تحديدُ زمنِ توقّف الغضب سوى أنَّ الفتاةَ القرينة أفاقت على مملكتِها تعود خضراء ألِقةً ؛ والربيع يؤمها بشمس دفيئة / كركرات تولّدها طيورٌ شتى تحفل بها نواصي شجرٍ يانع .. تنظر أسفلَ قدميها فترى عند نعليها حاكمَ (كيش) ثخينَ الذلّ / كسير العينين وقد عفّرت وجههَ طحالبُ وأشناتٌ صفراء .... وكما لو تذكَّرت شيئاً رفعت رأسها تطلق سؤالَ الاستفسار عن حالِ الفتاةِ خارج المملكة ..

كانت الفتاةُ تنهض بنشاطٍ واندفاعٍ أذهلا الأم وغمرا قلبَ الأب بالدَهَش .. تساءل مَنْ كانَ يعيش معها: كيف هجمت عليها العافية ؟! وكيف ماتَ المرض ؟!

لا أحد يصيغ الجواب إلاّها ...

فاهت لهم :

. إنْ كنتم تبغون لي الهناءةَ الدائمة عودوا بي لمكانِنا القديم ، هناك !! .. هناك....

شتاء 1998

زلّة / ليبيا

تفجَّرت الحربُ فأنقطع سيلُ السيّاح المارّين عبرَ دروبِ قريتنا، ولم يتبقَّ منهم غير قَسمات انسحبت إلى دهاليز الذاكرةِ، وظلّت كلمّا استرجعناها عادت الوجوهُ المحمرَّةُ ، الملفوحةُ بلهيبِ القيظِ/ القاماتُ الطويلةُ المنحنيةُ جرّاء حمل ظهورها حقائبَ كثيرة/ الكاميرات المُعلَّقة بالأعناق ، المتدلّية على الصدور/ السراويل القصار تعلو الركب/ الأحذية المُتربة الشبيهة بأحذية الجنود/ السير باتجاه

سيــــدوري

خـارِج المتن

تفجَّرت الحربُ فأنقطع سيلُ السيّاح المارّين عبرَ دروبِ قريتنا، ولم يتبقَّ منهم غير قَسمات انسحبت إلى دهاليز الذاكرةِ، وظلّت كلمّا استرجعناها عادت الوجوهُ المحمرَّةُ ، الملفوحةُ بلهيبِ القيظِ/ القاماتُ الطويلةُ المنحنيةُ جرّاء حمل ظهورها حقائبَ كثيرة/ الكاميرات المُعلَّقة بالأعناق ، المتدلّية على الصدور/ السراويل القصار تعلو الركب/ الأحذية المُتربة الشبيهة بأحذية الجنود/ السير باتجاه

التلال السابحة في غمار أمواج السراب المتلألئة هناك حيثُ الساعات تتراتب وهم غائرون بأنفاقِ لحظاتِها المُهيمنة على تراكمات أقوامٍ تناسلوا بمرورِ الأزمنةِ في بَريّةٍ ، كل ما يحيطُها رمالٌ حارقةٌ، وذرّاتٌ مالحة، وهجيرٌ دائمٍ .

في أولِ غارةٍ حضاريّةٍ؛ يوم دوَّنَ التاريخُ بدء حربٍ غير متكافئةٍ اهتزّت قريتُنا وسطَ جنونِ الظلامِ وكادت بيوتنا الطينيّة أنْ تستحيلَ مقابرَ وركاماً مؤكَداً ستصبح بتقادم الأعوام تلالاً تنافس التلالَ الماثلةَ في المدى القريب.. صاحَ أبي وسط ذهولِهِ ومحاولة امتلاك توازنِهِ: لابدّ أن المُغيرين أخطأوا، إذ لا وجود لقطعاتٍ عسكرية هنا ، ولا جسور قريبة، ولا حتى مصانعَ !!!

الصباح التالي أسقطنا دهشين أمامَ ثلاث حُفرٍ وسيعة ، وسط خلاءٍ يجاور التلال .. ضحكنا أولَّ الأمرِ وسخرنا من غباءِ الطيّارين الذين حسبوا التلالَ هدفاً استراتيجياً.. لكنَّ الملامحَ الغريبةَ التي دفنّاها في انعطافات الذهن عادت تتمثل على أديم الذاكرة .. حدثَ ذلك غب مرور شهر من وقفِ إطلاق النار بعدما سقطت بيد ابن عمّي صحيفةٌ محلية لا يدري كيف لفت انتباهَه قاصٌّ اسمه (زيد الشهيد) كتب قصةً بعنوان غريب هو [سيدوري].. حين شرع يتابع سطورَها الأولى ألفاها تخص المكان الذي ضربته الطائرات أول الحرب.. هتفَ بنا: تعالوا سأقرأ لكم ما يحل لُغزَ الحفرِ الثلاث... أسرعنا / التففنا حوله فيما راح يقرأ ، مُشترطاً أن لا نقاطعهُ :

القصـة

فاضت دروبُ " نيبور " المتَّكئةُ على الفرات بسطوعٍ شمسي لاهب ، جرى سيحُهُ منسرباً خلال الكوى الصغيرة للغرفِ مُعكّراً إغفاءات المستلقين على أبسطةِ الخوص والقش وليفِ النخل الجاف ، جاعلاً إيّاهم يفحّون الزفرات الحرّى يأخذُها الهواء صُعّداً [حيثُ السماءُ تُعرّي زرقتها الشذريّة مانعةً دنوّ السحاب/ كاشفةً تجليّات تخومٍ تصاعديّةٍ تموت عند مديات لا تطالها الأبصار.]...

سيدوري.. الناهد ، بقامتِها الفتيّةُ الناهضة، وسحنتِها القهويّة / بالشَّعرِ الفاحمِ الهاطلِ على مَحفّات الكتفين مُغتَّمة، تثقلُ قلبَها جنادلُ القلق، كاتمةً أدنى فسحةٍ للارتياح تخالُ جدرانَ غرفتِها تضيقُ وتنحسر حتى لتكاد تُطبقُ ساحقةً وجودها المُرتَبِك حارقةً الروح بِرمَضِ الهواءِ الباحث عن منفَذٍ للانفلات [هاهو العامُ انجلى، وانهالت فوقهُ بضعةُ أيامٍ والغائب المُنتظَر لمَّا يزل طيفاً.. الأسئلةُ لا تفتأ تنقرُ صدغيها، متواليةً دونما انقطاع ، مستحيلةً زاداً يومياً : " أتراه صارَ طُعماً لأسدٍ جائع شره انقضَّ عليه بغفلةٍ ؟!... أتراه صار صيداً لذئابٍ غادرةٍ قضت أياماً تترصّده حتى أوقعت به ؟!... هل ظلّ الطريقَ فابتلعتهُ مغارات الاهوار، أمْ انقضَّت عليه شِباكُ محاربي (كيش)، أعداؤنا الأبديين ؟!.. إنّ رأسي يوشك على الانفجار، والروح يتبعثر.. لقد أرَّقتني الأفكارُ الرماديةُ التي تبثها الأرواح الشرّيرةُ حولي،،، رُحماك ، يا رب !]...

وتذكّرت ساعةَ حيان اسقاء الإله فخشيت المعصيةَ هبَّت تاركةً الغرفة .

رأت أمَّها الضريرةَ مُقرفصةً عند سريرِها تُطوِّحُ بها إغفاءةٌ متواترة.. تحركت نحو جَرَّةِ الماء/ رطَّبت وجهَها ثم حفّزت المشطَ الخشبيّ لُيحسِنَ إسدالِ الشعرِ/ خرجتْ.

خُطى المارّة تقطع أذرعَ الطريق . رجالٌ أنصافُ عراة ، حُفاة والقِلَّة ينتعلون خيشاً يشدُّ الأقدام آتون من الشمال يتبعهم عبيدٌ تنوء كواهلُهم بأحمالٍ ثقيلة، يلتقون أقراناً لهم أظهرتهم الدروب العديدة – لا أحد منهم يختم سِفرَ اللظى واللهيب المعتم داخلها – لا أحد فيهم المُنتظَر... يتحادثون قليلاً ويرفع أحدهم كفّاً مشيراً إلى امتداد الدرب... والامتدادُ يفضي لوسطِ المدينة حيث المعبدُ المقصود..[المعبدُ يَجيشُ بجموعِ المُتعبّدين .. قَداسةُ المكان تفرض هيمنتَها وسطوعَها فتبتهلُ النفوس. تدخل سيدوري من بابٍ جانبي يخصُّ العاملين : كهنةٌ وحرّاس ، وسقاةُ حانة الآلهة / جباةُ الضرائب / مستلمو العطايا/ خاتنو الصبيان . في خانتها المحجوبة بستارٍ قطني تستبدلُ سيدوري مَشدَّ صدرِها المنسوج من خيوطِ الكتّان بمشدٍّ جلدي تُطعِّمُه أحجارٌ عقيقية صقيلة ، ثم تمارس خلعَ الثوب المتهدِّل من أسفل نقرةِ البطن نزولاً إلى وسطِ الفخذين ترتدي آخر جلديّاً شبيهاً بمشدِّ الصدر.. إذْ تُتِم إكمالَ هندامها بانتعالِها حذاءً خفيفاً تُشبكه خيوطٌ تلتفُّ حولَ الساقين تتحرك إلى إناءِ الماء تتأمل وجهَها وأجزاءَ جسدِها العليا المعكوسة بمرآة السائل تسورُها القناعةُ بمرضاة الإله آنْ يلمحها.. تلجُّ جناحَ إعداد النبيذ لتُعدَّ القدح الخاص/ تملأ الجرّة من الدّن النفيس المعمول خصيصاً من عَسلِ التمر وخلاصةِ الأعناب العذبة الممزوجة برحائقَ الزهور المزروعة حَذاء شواطئ لا تَقربها أنفاسُ ولوامسُ الأشباحِ الهائمة... المتعبدون كثرُ قدِموا لعرض الهبات والنذور وتقديم الوجبات تيمناً بحظوة رضا (أنليل) فيما (أنانا) ستمنحهم أوفرَ النتاج وأغزرَ العطاء ، مُدوَّنةً لهم ميثاقَ الإغداق .. الشُّرفةُ تهبُها إبصارَ احتشادِ المكان رُغمَ السعة. لا فسحة للداخلين المتأخرين. تراتيلٌ مُضخّمة تتخللُّها دعاءاتُ تبجيلٍ يعقبهُ بكاءٌ وأنين، ثم همس خفيض تشوبه ذِلّةٌ وخنوعٌ مشفوع برجاءِ تحقيق آمال مُرتجاة.. همسٌ يقطرُ شكراً لجزيل النِّعم وتحقيق المرادات، بينما همسٌ آخَر لأرواحٍ ضنينة تستجدي غفراناً أو رحمةً أو شفاء... وهنالك / ما يحيط المدينة بروقٌ تتداخل وتتقاطع، سابحة بفيضٍ مترامٍ يزاحمُ الأفقَ ويقترب : هو لهاثُ الأرض ؛ لهاثُ أهليهم . يقولون : " ذلك لهاث أهلينا " الذين توسَّدوا أكتافَ الرمال طائعين أو مُجبرين أملاً بالعودة لحيواتٍ جديدةٍ تُبقيهم الأسيادَ دوماً؛ وتعِدهم بالمزيدِ من العبيد والغلال والنساء والخصب... تنسحبُ لداخلِها تتسمّع همسَ القلب : " أينك يا قاتل خمبابا، يا مُذلَّ الأعداء؟ ".. يتقدم رجلٌ تسبقه مهابةُ الأسياد وأمام دكّةِ العطايا ينتزعُ كيساً من رقبتِهِ... يُرخي الخيطَ المشدود؛ وبأناملَ واثقةٍ يستخرجُ أحجاراً تنوَّعت أحجامُها والألوان: بيضوية حليبية تتماهى في جوفِها وتختلط خيوطٌ دُخانية غائمة/ دائرية لها صفاءُ الماء تنزلقُ من بينِ الأناملِ/ أسطوانيةٌ مُحززّة أو محفورة بخطوطٍ ورسومات هندسية متداخلة... يرفع الكفَّ المملوءةَ ويُفرغها على سطحِ الرخام الفحمي اللون جنبَ قلائدَ، وأقراطٍ، وخواتمَ ، وأختامٍ رصفها من سبقوه.. [في جناحِ ثانٍ للمعبد يعرض آتون ما جلبوه محمولاً من غِلال ونتاج عام محسوب : عسل، ورز، وقمح، وذرة، وكتّان، وقطن ، وتمر ؛ يعدّها كهنةٌ سيقت إليهم مهمَّة الاستلام... تفتحُ البابَ الجانبي، وتدلف.. الجرَّةُ والقدح يعلوان طبقاً ترفعه يداها الثابتتان، توسِّطه على المصطبةِ المُخصصة / تتراجع أداءً لانحناءةِ التبجيل ثم بدءاً لملء الكأس ورفعها.. بالأناملِ الريشيةِ الملمس

يؤخَذُ الكأسُ ؛ وبارتخاءِ الملامح يُفهمُ الانتشاء.. يطالعها الصامتون فتنهلُ نفوسهُم ارتياحاً.. شعور بالغبطة، يفسّرونه شروع تحقق الأماني... احنوا الرؤوس آن الارتشاف/ رفعوها مع انتهاءِ آخر جرعةٍ وحركةِ القدح ، نزولاً فوقَ الطَّبق تحمله سيدوري منسحبةً بجلال الخشوع الذي دخلت به.]. .

ما أن تتوارى عن عيون المتعبدين حتى يدخل الكاهنُ الأول بوجهٍ يعرضُ صرامةً خليقَة بالمكان، حاملاً الإناء النذري وقد حوى جمراً لا يبين . يضعه إزاء مصطبة الإله. ومن حاويةٍ فُخارية ترتكز قريباً يستخرج كتلاً من بخورٍ صخري مُختلطاً بأعشابٍ جافّة تتلقّفها فوّهةُ الإناء الذي تلمحه الجموعُ تتفجر في عمقه فرقعاتٌ تشبه تكسّر أغصان متيبّسة.. قليلاً وينبثق خيطٌ دخاني ما يلبث أن يتكثّف مُشيعاً فورةً ضبابية صاعدة... تعمُّ الأرجاءُ روائح قدّاسية تجعل المتطلعين يطأطئون القامات خشوعاً... آنذاك تمتدُّ كفُّ الكاهن خلل الضباب تجمع ما تكدّس فوقَ المصطبة المتوارية ليحتويها صندوقٌ صاجي طَعّمت ظاهرَهُ أصدافٌ بحريةٌ ناصعة وأحجار فيروزية دكناء .

باستفاقةِ الجميع من غِمار التبّتل يُداهَمون بدهشةِ زوال الهِبات تحت سطوةِ سرعةٍ خاطفة.. لا يساورهم الشكُّ بقدر ما يعزون ذلك لقدرةِ الإله على فعلِ الخوارق فتنطلقُ التراتيلُ، والدعاءاتُ تتعالى.

تتركهم سيدوري لمراسيمهم مُنسلّةً، مخلّفة المعبد بما حوى... في الحلقِ غصّةٌ وفي القلبِ وجع. ومن جديد تروحُ تتفرَّسُ في الوجوهِ المارّة: "هل أتى؟"...

تدخلُ الدارَ فلا تجد أمَّها . تدرك أنها اتَّخذت السلّمَ نزولاً إلى الفرات ؛ هناك تناجيه كعادتِها / باثّةً أسرارَ الروح : " أيها النهرُ الراحل صوبَ الجنوب خذ معكَ أنفاسي وقطعةً من كبدي .. خذ بقايا ذاكرتي/ أهلي قُل لهم : منذ صغري وما زلتُ أبكي فراقَهم .. إلى هناك ! خذ معك تمائمَ شوقي وحفنةً من أحلامي لتعانقَ أطيافَهم.. دعها تطوفُ بين بيوتاتِ ومساربَ قريتِنا المائية... دعها تغفو عند أشياءٍ أثيرةٍ تركتها يومذاك وأنا مُساقة من قِبل أبي نذراً لأنليل.. دعها تغفو عند ظلالِ مَحلَّتنا المُعرِّشة على الضفة الشمالية، جوار البيت. آ.. أما زال بيتُنا هناك ؟.. أما زالت هي ؟.. وحضنُ زورقِ القصب.. أما زال سريرُ القش الذي تنيمني أمّي عليه ورائحتها الأمومية تطوف حولي... أما زال ؟ أما زالت الدُّمى الطينية التي أصنعها وأتبارى مع قريناتي سليمةً أم تهشَّمت ؟. أين القريناتُ الآن ؟. آ.. قُل للجميع إنني عميت. صارت لي ابنةٌ اسمها سيدروي وهبتَها إكراماً لأبي ساقيةً للإله. قل لهم !"..

ستعودُ مبحوحةَ الصوت / مُنسحقةً تُرهقها رواسي الذكرى. تعفّ عن تناول الطعام. عشاؤها سيغدو صمتاً مُدافاً بالذهول.

أواخر ذلك النهار هدأت " نيبور " واستكانت لأطياف الأنسامِ البليلة التي زارتها بعد جفاءٍ ليس بالقصير، لكنَّ ضباءاتِ الظنون ظلَّت تتضافر على متاهات أحاسيس سيدوري.. ملامحُ الغائب تعود إيماضاتٍ مُقلقة .

صوتٌ ما يستدعيها من الخارج .. تنهض ؛ ومسرعةً تخطو.

على رغبةِ احتساء بضعة كؤوس تدخل حاملةً جرّة المشتهى مَلأى بما يتوافق وذوق الإله الذي دعاها وسط حيرتها عن الجدوى ... هو لم يعتد الاحتساءَ في هذا الوقت .. تترعَ الكأس، ومن دونِ توقّعٍ تلمحه يتفرَّس ماسحاً قوامَها مليّاً قبل أن يفوه :

– ما بكِ أيتها الفتاة ؟ . منذ أيام وأنتِ ريمٌ ذهيل ، تخطين أو تجلسين أو تتحدثين .. حتى وأنتِ تعدّين الكأسَ وترفعينه.

كلماتٌ كالصاعقةِ اخترقت الأوصال. ما فقِهت كيف تراجعت وانحنت راكعةً لتواصل الاستماع :

– خلفَ عينيكِ أسى دفين . وما أرسلتُ عليك إلاّ لتبوحي.. هيّا، أني أصغي.

– أنتَ باغتّني أيها الإله.. أنني مرتبكة..آ..

– تمالكي وجودك ...

[حين رفعت رأسَها كانت ألسنةُ النارِ اللاهثة من شُعلتين تتكئان على جانبي الحائطين المتقابلين لقاعة القُدّاس تتساقط على الوجهِ اللامع / متقاسمةً الجسد الفتي . عينا الإله تتأملانها كما لو كانتا تريانها لأول مرة.. كان مشدُّ الصدرِ قد هبط ليعرّي نصفي النهدين، مُفصِحاً نفورهما يجسدهما الشقُّ الوسطي المحفور عمقاً.. تحتهما بدا البطن ضامراً ؛ والخصران معصورين فشلا في إمساكِ الثوب الذي ارتخى هابطاً حتى أدنى البطن . تحته التمعَ الفخذان مُفشيان امتلاءً جلياً.. ماذا تفعل وقد قذفتها المفاجأةُ مُحمَّلةً بالأسرارِ سوى إبداء الخشوع المُفترَض؟..]

أنها تخشى غضبَه.. تخشاه إن أباحت..

رفعت عينيها تطالع القسمات إذا ما كانت تعرض غضباً أم انبساطاً .

– بوحي تفصيلاً، يا سيدوري .

تمهَّلت قليلاً قبل أن تقول :

– إنكم أعلم أيها الإله.. لا تُخفى عليكم الأسرار . عفوكم هو غايتي . مأربي رضاكم .

حدّقت في الوجهِ فوجدت العينين الماثلتين تُجزلان عليها الشجاعةَ للحديث. طفقَ القلبُ على بساطِ الرضا يبوح عارضاً السرَّ الذي ما فتئ يمور لاعجاً عند مرفأ الانتظار.

[ذلك اليوم؛ بدفئهِ المتنامي؛ منذ ما يفوق العام عائدةً كنتُ ، تقودني قدماي صوبَ البيت بعدما تبرَّكتُ بتقديم كأس القيلولة لكم. العرقُ سيولاً تسيل عبر رقبتي ؛ وما حولي أحسّه لاهباً. لم تكن أمّي هناك، قلت هي إذاً عند النهر. وكعادتي كنت استحمّ قبل التمتّع بغفوةٍ يسيرة.. الدلو فارغٌ تناولته وخرجت منحرفةً شمالاً حيث الممر الهابط للنهر.. نزلتُ/ كانت أمي.. أخبرتها بعودتي / أخبرتني بمجيئها بعد قليل . ملأتُ وصعدت. خلعتُ ملابسي أهمي الماءَ على رأسي طاردةً لظى اللهب المُحتشد بين كثافة الشعر، مُلَطّفةً جسدي، طافية فوق لذاذات برودة الماء عندما طرُق الباب : " انتظري ريثما أرتدي ملابسي، يا أمّي. ".. لم تتوقف الطرقات.. استمر تواصلها ؛ زاد عنفها.. لم أسمع لأمّي نبرة. سريعاً لفعّتُ الجسدَ وتحركت؛ واربتُ الباب ونظرت! فإذا بي أمام قامةٍ مهولة : صدر عريض وكتفان جانبيا تعرضان ضخامة مُلفتة.. آ.. العينان تتقدان خلال رموش مقوسة وحاجبان كثيفان، فيما اللحية لبدة أسدٍ تداخل معها الشاربان.. أنفاسُه اللاهثة لفحت وجهي، بدا كأنه قادمٌ جرياً من مسافات قصيّة.. أفزعتني هيئته الغامضة مثلما أخافتني قبضته التي تشد على سيفٍ بارق وثقيل . شُبّه لي بفارس قدِمَ مشحوذاً بعزيمة انتقام مُبيتة. قلبي المصطخب على شاطئ الخوف دفعني لغلق الباب والاتكاء خشية الانتقام...

– سيدوري !!.. افتحي يا سيدوري .

بهتُّ لسماع اسمي يتفجّر من فمهِ.

_ من أنتَ ؟ !.. ماذا تريد ؟!.. تبعثرت الكلمات في الهواء وجِلةً، دهِشة.

– أنا مَن مزّق الوحوش وأردى أسود الغابة. أنا قاتل خمبابا الراضع مع الضباع .

" عفُوك أنليل.. أيها الإله.. خادمتُك تستنهض هُمَتك لإنقاذها. " هكذا انطلقت تمتمتي.

– لا أفتح حتى أعرف من تكون: !!.. قل !!

– افتحي ... أنا جلجامش!!

هتفتُ كما لو أنني لُدِغت.. جلجامش ملك " اوروك " ورجلها !! سريعاً فتحتُ الباب،، أدخلته، هيأت له متطلبات الراحة...

أكل واسترخى.. تمدّد ونام . وإذْ استفاق طفقتُ أساله :

– مقدمُكم غريب !. كيف تركتم " أوروك " وهي أحوجُ إليكم ؟!.. كيف تركتَها والأعداءُ عيونٌ تنتظر الانقضاضَ عليها ، والظفر بها ؟!

تنهيدةٌ بطولِ لسانِ ريحٍ سموم تدفَّقت من صدره .. سمعتُه يكلِّمني باهتمام :

– إذا كان أولئك مشغولين بحَبكِ الغزوات والغارات ولا تهمُّهم غير الغنائم والنفوذ فأنا لا يشغلني يا ساقيةَ أنليل سوى البحث عن ومواجهة ذلك الغول المُسمّى موتاً.. آه .. كيف تُفنى الجسوم وتجف ؟ يصمتُ اللسانُ ويتوقف النُّطق؟! يعجزُ الصدر عن اغترافِ هواءٍ يملأ الأرجاء.. ترتخي الأذرعُ وتسيبُ القدمان ، لا حِراك في الجسد، لا نبض !! لا دفق للدماء .. آه ، ما زال جثمان: انكيدو " مُسجّى، ما أتعسني حين انسلَّت آخرُ أنفاسِه مُبارحةً هيكله المتسامي. كنتُ عاجزاً عن فعلِ شيء يبقيه رفيقاً لي وصنواً.. صرختُ بعُظمِ هولي : توقَّف أيها الموت ؛ توقّف !! لقد سمحتُ لك أن تسلُبَ أخوتي وصحابَ صباي من قدّامي .. أما أن تتمادى فتأتي على البقية من أحبائي فلا !! هذا ما لا أدعك تفعله".. رفعتُ قبضتي بوجهِه تحدياً ؛ لكنَّه آ.. اخترقَني كالضوء؛ كالدخان ؛ كالهواء... وإذ التفتُّ كان أنكيدو مُغمضَ العينين ، مُنبسط الراح . جسدٌ يُعلن استسلامه. لهذا قرّرت أن أقهره. سأهيم بحثاً عن خلودِ أبناء أوروك ...]

– لا بدَّ أنّكِ أبديتِ الرأفةَ وأطلعتِه على سرّ عبورِ بحر الموت واجتياز الاقيانوس للقاءِ "اوتونابشتم ".

– هذا ما فعلت ، يا إله الهواء .

صمتَ قليلاً ، ثم :

– مشكلتكم أيها البشريون أنّ لكم أعداءً من جنسِكم يتربَّصون ، هُم بعضُ وسائل الفناء.. وإذا كان جاجامش سعى لهدفٍ نبيل فقد أحسنَ ما أدّى. بيدّ أنّ مآله الخيبة. ما يبغيه عظيماً / مهولاً لا استطاعةَ له على حيازته. فالخلودُ قُيّضَ ليكون حصراً على الآلهة، وأنّ ثلثي جلجامش الإلهي لا يشفع له إدراكاً لمسعاه لأنَّ الفناءَ سيبقى مُنتهىً سرمديّاً، والموت تابعهُ الذي لا يرفض له أمراً .

تلاطمت أجنحةُ الصمت للحظات سادَ أثناءها سكونٌ جثيم .. تهجّست الفتاة مسحةَ امتعاض جسّدتهُ نظرات الإله إزاءها :

_ آنذاك ، (وبنظرةٍ غائمة)... لا خلاص لكم أيها الفانون إلا بأعمالٍ تُخلّد أسماءكم .. أما أرواحُكم فسترتفع إلى قراراتٍ تسكنها لحينٍ مؤجّل قد يقصُر وقد يطول ؛ وها أنا ألمحهُ عائداً من حيث وصل... ألمحهُ كما لو كان قادماً من برزخ الفناء نحيلاً/ عجوزاً / مُنسحقاً لا يقوى على حملِ سيفه

. الرحلةُ أربكته وأنهكته، والهدفُ الذي بلغهُ كان مُضنياً.. الغابات التي اجتازها سود؛ والصحارى ملتهبة. الأمواه التي خاضها مُخيفة؛ والليالي التي قضاها كانت تكتسحها زوابعُ وأعاصير وبروق وأشباح، تؤمها أرواح شريرة بغيضة لولاه لمسخته غراباً ناعباً أو فأراً قميئاً، أو خنزيراً هائجاً..

والآن كي تملؤه القناعة بما أسمعهُ أوتونابشتم من نصائح وأقوال علينا إجلاء قتامةِ الفصول ونومئ للربيع بالحضور لتعُمّ الخضرةَ ربوع أوروك التي تركها حزينةً، وجلةً، جرداء ؛؛ ولتبقى هذه المدينة موئلاً للإشراق والخصب، ولتستمر بجبروتها الذي لا يضاهيه قرين حتى ينكفئ " أجا " ملك " كيش " الطامع بها حسيراً خائباً فيتقوّض عزمُهُ في بسط يدِهِ على جنباتها ونواصيها.

دون تمنعٍّ، بل باندفاع هتَفت :

– نعم يا إله الهواء. دعها مدينةً أبديّة ، خالدة ..

توقّف يتفحصها تمعُناً.. توهجّت عيناه واتقدتا تتابعان خارطةَ الجسد المنتفض انتظاراً.. لحظت بواكيرَ سيولِ شبقٍ تتدفّقُ على وجنتيه اللتين غزتهما حمرةٌ أظهرتهما ثرى جمرتين مؤتلقتين، وشفتين اختلجتا، ويدين أبدى ساعداهما متواليات عروق نافرة وتشابكات عضلات مفتولة تضجُّ دماً.. وفي الخارج صارت تتسمّع مقدمَ ريحٍ صافرة . داهمتها موجةُ ارتجافٍ اهتزَّ لها النهدان فبرزا كرمانتين مختضّتين وممتلئتين.. تقلّص البطن فعرّى الضمورَ المثير لفضول الإله.. أدركت أنها ابتداءات أعاصير الاقيانوس قادمةً.. احتقنت عينا أنليل والتهبتا تبرُكناً فيما وجدت سيدوري أنّ عليها إشباعَ فضول ورغبات واحتدام هذا الماثل قبالتها، لذا أدّت وصلةَ الاحترام انحناءً وخطت صوبَ غرفةِ الجِّماع التي لم تُفتَح منذ عام .

أمام الباب المعمول من خشبِ الزان المحفور بزخرُف الكأس المندلق خصباً ورواءً توقَّفت . مدّت كفّاً تمسك أكرة الباب المعمولة بهيئةِ رأسِ طيرٍ جارح ودفعت.. خلفها ترجّلَ الإله رافلاً بالجبروت ، محفوفاً بأقواس الأبّهة والكبرياء.. عبقت آن الدخول أشذاءُ مباخرَ ممتلئة وأعشابَ مثيرة، وروائحَ نبيذٍ مُعتّق، وأنفاس شرهة توقظ كوامنَ الروح وتحفّزها ؛ ترتفع مُنغّمةً خطوها البطيء فيما همسات متناثرة في محيط يتسع أو يضيق... شريطان من نورٍ ضئيل يندلقان من كوّتين صغيرتين ومدورتين على قدحين يتوسطان منضدة وسيعة عُمِلت من جرّيد النخل وقد مُلئتا بنبيذ مشعٌ . سطحاهما مرآتان ، رأت سيدوري في واحدةٍ وجهَها يُبرز العينين الحوراوين، والخدّين التفاحتين، وحين رست نظراتُها على القدح الثاني أبصرت أنليل يقترب/ يطلّ فوقهما... رفعت القدح الأول، ووجدت الثاني يُرفع قبلها.. وإذْ استدارت أحتكَّ القدحان فأحدث تماسهما ارتعاشاً لذيذاً اخترق أوصالَها مُعلناً لحظةَ بدءِ المراسيم ..

بومضةٍ صار الكأسان يلامسان الشفاه ، وبذات الومضةِ التي تمطّت حدثَ الارتشاف والتفريغ والعودة تحتَ بقعتي الضوء .

لا تدري سيدوري ما حلّ بها سوى أنها شعرت بزوال شيءٍ ربما هو خوف مترسبّ أو قلق متخفٍّ.. سمعت السرير العريض المنتصب بأفرشته الناعمة ووسائده الريشية الطريّة يدعوها. اقتربت ثم استدارت تواجه الإله الذي تمثلت قامتُهُ هيّابةً، غارزاً العينين في الطلعة المتبدّي عليها الضوءُ الشحيح والظل مُجَسِّماً قواماً يُترجمُ فعلَ الاحتراق... طفقت تحت بروق النظرات ورعد الملامح، واشتعال هشيم سهوب دواخل الإله تخلع كلّ ما يُقيّد الأعضاء ويعيقها.. أسقطت مشدّ

الصدر فقفزَ الجبلان يفجَّران بركانيهما مُعلنين حربَ الطبيعة على غرائز النفوس المأسورة بالظمأ . تلاه مشدُّ البطن فارتعدَ إله النار أنليل صارخاً صرخةَ العنف والهياج ، طاغيةً على صفيرِ الريح وعواءِ الأعاصير التي تفاقمت خارجاً، مُستحيلةً إعصاراً مجنوناً : ذلك جعل سيدوري تعوم وسطَ غمارِ نشوةٍ جارفة تُعادل عنفَ الصرخة وتشظّيها ؛ احتسبتها بواكيرَ الظفرِ بحب الإله ورضاه... خلعت النعلين واستدارت لتعرض بوئيد الحركة خارطةَ الجسد . رأى ظهرَها كلوحٍ لامعٍ جهدت الآلهةُ أزمنةً طويلة كي تعرضه بهذا الخلق الفائر. أسفله لمحَ الردفين الممتلئين: تفّاحةُ جمعت عصائرَ الرواء فقدَّمت مفاتن امتلائها خيلاءً.. التفتت ، وبنظرةٍ أنثوية مفعمة بالغواية أرخت عنانَ لهيب الأصقاع المعتلجة فصرخَ صرخةً ثانيةً فاقت بجبروتها وحرارتها الصرخة الأولى؛ إذّاك اعتلت السريرَ رافعةً صدرها إثباتاً لهيمنةِ القمّتين آن التمدد على ظهرِها مُفرجةً الساقين.. ولمرةٍ ثالثة جاءت الصرخةُ أشدَّ دويّاً اصطفق لها الباب وانغلق كاتماً صدى الأعاصير، مُخترقاً بصيحات وتأوهات، ودعواتِ جنونٍ للركض عدواً فوق بحيرة الجمر بينما العاصفةُ تتفاقم، والإعصارُ يمحقُ كلّ فراغات الصمت فلم يُبقِ للبرودِ والتخاذلِ ذرّةً يمكنها احتلال حيّزاً جزئياً.. وبومضةٍ أقرب إلى خطيف البرق تفتتّ الاحتدام ، وهدأ روحُ العاصفة.. وبومضةٍ أقرب إلى انتحار اللحظة عمَّ الصمت، توافقاً مع صمتٍ شاعَ حول مربَّع الغرفة المغلقة، مُنتهَكاً بانكماشات أنفاسٍ بطيئة هي بقايا فحيحِ الجسدين العاريين/ المتهالكين على السرير الغاطس؛ وعتمة راسية يخترقها باحتراسٍ شريطان ضوئيان يسفحان شعاعيهما على قدحين أُفرغا توّاً.. وطرقت أذن سيدوري طرقات واهنِة.

- أنه جلجامش يطرق بابَكِ عائداً..

تفوّه الإله أنليل

- انهضي إليه.. كوني رؤومةً معه. أغدقي عليه حنوَكِ وارعيه باهتمام . عامليه كصغيرٍ يحتاج لأمَّ حنون . ستجدينه خاوي الروح، واهنَ الأوصال مُدركاً سرّ رحلتهِ.. ستبصرينه في قادم الأيام يرفع لأوروك سوراً خالدةً لتبتدئ هذه المدينة حياةً جديدة ، نضرةً ، بهيّة بمعابدها . إنّه يحمل كتاباً وهبهُ إيّاه أتونابشتم .. اقرأيه(*) وبأيامٍ آتية ستفرحين وأنتِ تشاهدين أوروك بأبراجها/ بتمورها/ بأزهارها/ بفاكهتها/ بشواطئها ومراسيها. ستندحر أشباحُ " كيش " ومريدوها.. سيُكتبُ لهم الفناء بينما سيبقى لأوروك اسمُها الذي لا تمحوه تعاقبات الأزمان وتهافتات القرون .. سيبقى .. سيبقى ..

يا سيدوري .

حزيران 1996

بلسن – ليبيا

==========

(*) "عليك أن تفرح ليلك ونهارك.

اجعل من كل يوم عيد.

اخطر بثياب زاهيّةٍ نظيفةٍ.

اغسل رأسك وتحمّم بالمياه.
دللّ صغيركَ الذي يمسك بيدك،
واسعد زوجك بين أحضانك.
هذا هو نصيب البشر."

النص مأخوذ من ملحمة جلجامش، ترجمة فراس/ص 135/دار الكلمة للنشر، ط2،1983.

تراجيـدي (*)

(1)

على نحوٍ مباغتٍ انقطعَ هديلٌ الحمام ، وكركراتُ العصافيرِ توقَّفت .. وحدها شمسُ الضحى استمرّت تنثرّ ثرثراتها العَسجدّية فوقَ تفاصيلِ الغابةِ دكينة الشجر .. والبركةُ المحتفية بدفيقِ مائها كانت على موعدٍ مع القادمين : وعولٌ وأيائل / فيلةٌ وزرافات / أبقارٌ وحميرٌ وحشية تفتضُّ شرنقاتٍ بريّةٍ تتوقَّف عطشى ! لكنها لا تردّ (إنها تنتظر .. تنتظر !!) تنقصفٌ يناعةٌ الزرعِ مّداسةً بقدمين يطآنها بوثوقٍ .. قدمان لمخلوقٍ ضخمٍ – عاري الصدر والذراعين ، إلاّ من شعرٍ غزير يغطيهما – يتَّخذُ هيئةَ البشر الممتزجةِ بصفات الحيوان ... الزروعٌ تهابهُ ، تبجّلهُ الحيوانات ؛ تباركهُ الشمس ... يدنو ، يثني ركبتيه بجوارِ نصاعةِ الماء ، وينحني ليرد بامتلاء ... تتهاطلُ خصلاتُ شعرهِ طافيةً .. قليلاً وينهض لتحاكيه المخلوقاتُ المحيطةُ في الورود .

ولوهلةٍ أقرب إلى خَطيف الومض يتناهى صوتٌ رجولي خفيض – من خلفِ جذعِ شجرةٍ دانية – بمثابةِ أمرٍ : هّيا !!

تتمثَّلُ على نبرةِ النداءِ صورةُ امرأةٍ مِغناج تجفل لظهورِها الموجودات .. أمّا البشريُّ المُهاب فتقتحمهُ الغرابةُ . وقبل أن ينطلقَ نداءُ السؤال : " من أنتِ ؟! " تروحُ تتحركُ على إيقاعِ نغمةِ الغواية .

تخلع أستارَ عُريها .. تقتربُ منه / تلتصق به .. تهبهُ المفاتن بلا ثمن فتتهاوى جبروتيةُ الدواخل لديه ، ويغيبُ في حومةِ العناق (ستة أيام ، وسبع ليالٍ) .. ينهلُ عاطفةً ؛ وفي عيون أتباعهِ يفقدّ مهابةً .. ينهلُ ويفقد !! ينهلُ فيضيع .. وفي الانتهاءِ تنضبُ ثقةُ المخلوقاتِ به فتنفضُّ عنه ... تنتهي غوايةُ المرأةِ .. يفيق .. ينهض للِّحاقِ بالرَّبع ، لكنَّ القدمين تخذلانه .. يصرخ بهم / يستغيث .. ومن تخومِ الفضاءِ تشرعُ تهاطلاتُ همسٍ كأنه التأبين :

" تركتَ خلفَكَ قواك ! حومةَ الوعي دخلتَ ! ماذا جنيت ؟ !

هالةٌ رغويةٌ عتّمت لديه منظرَ الأشياء ..

نهضَ على استفاقةِ السؤال ..

طارت فقاعاتُ اللحظة ..

(2)

يومَ ولدته أمّهُ رأت في ما يشبه الإعجابَ والتعجّب هالةً نورانية تحيط به .. لم يصرخ كما الأطفال المولودينَ توّاً ؛؛ فقط فتح عينيه ليلتقط ما يستطيع احتواءه .. ثم اهتزَّ نافراً ، مطالِباً المولّدةَ بالهبوط من يديها الصُلبتين وهما تقلّبانه .. ما اتجه لألعابٍ جهّزها له الأبوان ، هبطَ يطوف غرفَ البيت باستطلاع هَميم كأنه يبحث عن شيءٍ مُوصى به من عالم آخر .. حتى إذا دخلَ غرفةً اعتادَ أبوهُ زماناً ولوجَها رغبةً في مطالعةِ كتبٍ يأتي بها ثم يرصفها على أرففٍ عملَها عبرَ السنين حفاظاً اندهشت الأمُّ والقابلةُ ، كذلك النساء اللائي تجمعنَّ حولها يقلّنَّ خوفها ، ويبددَّن رهبةً تحتّمها الولادةُ (إذْ هي أقرب لرهبةِ الموت) ... لحظةً وأبصرنهُ يغلقُ البابَ خلفهُ ، ولم يسمعنَ له صوتاً سوى قضماً متواصلاً أحالهنّ إلى تخيُلهِ فاراً وسط بيدر قطنٍ .

أبدتِ الأمُّ تطّيراً من ولادةٍ غريبةٍ ومولودٍ غامضٍ .. ويوماً ؛ فيوماً اعتادت الأمرَ .. صارَ دخولُهُ الغرفةَ وصوت قضمه المستمر من عِداد الأشياء المألوفةِ .. لكنَّ الذي تجاوزَ المتوقعَ وأغرقَ الجميع في يمَّ الغرابةِ هو ما اكتشفهُ الأبُ مصادفةً حينَ فتحَ كتاباً ثم كتاباً فكتباً سحبها مِن الأرفف ليفاجأ بالصفحات وقد خلت من الأحرف والكلمات والأسطر .. صفحات ليست سوى بياضاً عميماً ... ابتسمَ هو للأبِ الذهيل بينما راودت الأب خشية صادقة لحظةَ تفرّسَ بولدهِ ، ناظراً إليه بحنانٍ وخوفٍ متنامٍ وجارفٍ من جملةِ مجاهيل توقَّعَها ستواجهُهُ وتتعقبهُ لاحقاً .. (ولقد أُجبرَ الأبُ على تلبيةِ متطلّباتِ الحاجةِ يُقدّم له الابنُ قائمةَ الرغباتِ فيسعى جاهداً للتحقيق .. ولم يكن الذي يبغيه الفتى تنوّعَ طرازاتِ ملابس تحفلُ بها معارضُ السوقِ ؛ بل مكتباتٍ فخمةً ، زاخرةً بالفحوى .. ولم يكن ما تُريده الذائقةُ طيوبَ طعامٍ ، بل أطباقاً متنوعةً من كتبٍ : عصائرَ متفاوتة من صحفٍ : حلوى وفيرة من مجلات .. بنهمٍ يندفع يلتهم .. وبانجرافٍ غامرٍ يشحذُ قلمَهُ ليدوَّن مسارات البوح)..

في مخدعهِ المعرفي تتجسَّد اهتماماته مثلَ فيوضِ رغبةٍ تدعوه إلى الطفو في مياههِ العذبة الرقراقة أو كسماءٍ تنفث في عيونهِ رغاوي التحليق المتناسل .. ينتشي عائماً حاثّاً ذائقتهُ إلى عَتبات الاعتراف بلا إشباع (إنَّ انغماراً من معرفةٍ تُشيَّدُ بمرورِ الزمان تدفعهُ إلى الإفضاء !) .

المخيلةُ ضجيجةٌ .. المشاعرُ محتدمةٌ ... الحياةُ ترمي على قارعةِ التكوين مُتطلّبات التصوير .. على أرصفةِ الأحاسيسِ يلتقيها فيسعى لارتكابِ فعل التدوين الحثيث ، يغويه الإبداعُ / تنقلهُ أصابعُ المَلكةِ إلى جنانِ الاحتراقِ العذب كالمسحورِ / كالمخمور / كالهائم / كالمسلوب الرأي يتَّجه ليخرج من سهوبهِ الغّناء داخلاً مِحنة الوعي المهيمن ، غير مُبالٍ بتبعات الأمر ؛ غير هيّاب لفحوى مُحفزّات الانتهاء .. وفي أوقاتِ التخفّي / خلفَ الباب الموصد يستمرُّ موارُ الحركة .. تتبادر إلى السمعِ حواراتٌ تترى ، يصاحبُها الهمسُ / المناجاةُ /الهتافُ / الضّحكُ الصارخُ مع البكاءِ الصاخب .. تتعالى أسماءٌ وتهمدُ أسماء .. وإذْ تنجلي الساعاتُ ويفتح البابَ بعدَ تمطّي لحظاتِ الانتظار يخرج إليهما – الأب و الأم – مُحاطاً بهالةٍ من نشوةٍ عميقةٍ أو تقاسيمِ ألمٍ مُمِض .. يسعدُ الأب لحالِه مرةً ويُصرِّح بالكآبة مرّات ... ويوم تتولى الأمّ مهمَّةَ ترتيب غرفتَهُ تواجَه – وجلةً – بالأوراقِ تتراكم على سطحِ منضدتهِ وقد ازدحمت بالكلمات المبعثرة أو الخطوط المبتورة فتحسب ذلك من بابِ العبث والتسلّي مُمنيةً النفس بالطمأنةِ سلوكاً هادئاً في مخدعٍ على فوضى طفولية مع أقرانٍ يمتهنون المشاكسةَ في الطرقات .

(3)

تتراقصُ حفنةُ الأسماكِ الشذريّة الصغيرة في بحيرةِ العينين المنفتحتين بابتهاجٍ غَمير .. ويزدادُ البريقُ اللاصفُ جرّاء صعودِها لسطحِ الماء فينتجُ سهاماً فضيّةً تهاجمُ الحدقتين وتدفعانه إلى الاستعانةِ بالرموشِ اتقاءً بينما ترتخي عضلاتُ الوجه عندما يتمُّ التخلّي عن التحديق .. يسحبُ النظراتِ لتمسحَ خارطةَ البحيرة الضاحكة بعذيب الماء ... تدعوه مخلوقاتُ الأعماقِ فتختفي أحجبةُ الرفض ... ورويداً ، رويداً يَلجُ حضنَ الماء تلبيةً للدعوة غاطساً عائماً .. وفي لحظةٍ يتقاسم الاثنان الماء والجسد – زهوَ الجذل .. يرى إلى حيواناتٍ مائية ودودة فيضحك ابتهاجاً لازدهائها .. يدنو فتجابهه بالرقصِ الموحي ... يترك أعضاءهُ تتشرب السكونَ فيفاجأ بالمخلوقاتِ الموّجية تحفّ جسدَه وتداعبهُ ... تطنُّ عند أذنه بنبراتٍ منغمةٍ تنقله إلى حيث الأماني المتحققة... في العُلا يرفلُ بين زهوِ التَّبرك السماوي ، وهبات الحبور حيث العيشُ لمنْ هُم فوق الانوجاد البشري ؛ أولئك : مالكو مصيرَ الأرض بما حوت والسماء بما أتت : مغدقو العطايا / واهبو فيوضَ الحنين ، الذين أصابعُهم إذا أومأت انفرجت دروبَ الهناء ورموشُهم إذا رفَّت تكللّتْ الأرواحُ برغاوي السلام وشفاهُهم إذا نطقَتْ غرفت الجموعُ المتطلعةُ بانبهارٍ أشذاءَ الدَّنى الأبديّة .. يترافق ذلك مع لَذاذاتٍ مُدغدِغة أحسّها تتصاعد مُتضافرةً بفعلِ ازديادِ مُداعَبةِ المخلوقات له والتي آثرت تضئيلَ عذوبةِ النبرات لئلاّ يأخذُه الثملُ إلى عتباتِ الغرقِ فتحركت الأعضاءُ وتولّت صعوداً إلى السطحِ ... وهناك في الهواءِ الطلق عندَ الحافةِ ، أو على العشبِ أو فوقَ الشجر لمحَ مهرجانَ حيواناتِ الغابةِ وطيورها تمارس الانشراحَ قفزاً أو رقصاً ، أو تحليقاً استكمالاً لسيمفونيةِ السرور التي تُعزفُ بأوتار دواخلهِ .

عامَ سابحاً واندفعَ رشيقاً وصولاً للغزارةِ العشبية ، استلقاءً على يناعةِ الأرضِ الخضراء ..لا يريد لما رأى أنْ يذهب .. لا يروم للمتعةِ أن تتبدَّد . أحبَ استرجاع هنيهاتِ الرحيل الجميل التي عاشها قبلَ قليل ،

فأغمض العينين تاركاً الضواري : أسوداً ونموراً ونسوراً وصقوراً ؛؛ جميعاً تَحميه من غدرِ الأرواح الشرّيرةِ ثم الأيائل مع الغزلان تتقافز ؛ تُقدِّم استعراضَ الاحتفاء بارتياحِه فيما تنطلقُ الطيورُ راعشةَ الألوانِ مرفرفةً تدنو من صفاءِ المآلات لتغنّيهِ أنشودةَ المتعةِ والحبورِ والجذل .

(4)

سحاباتُ الأفكارِ تقترب ... يتجاسدُ النسيمُ المعرفي مع انثيالاتِ ما تهبهُ انشراحات الفيضِ الإلهامي . وسعةُ المتجلي تتواشجُ فيجد نفسَهُ يُكثر التواجدَ في المخدع المُرتجى جاعلاً وقتَهُ المُحبب يقاسُ بشساعة إبحارِ ما وراء الباب ، عائشاً مواقفَ تفاعلٍ انصهاري أقرب إلى دائرةِ التمّاهي ... في رأسهِ تتزاحمُ أسماءٌ وتتناسلُ حالات كذلك المشاعرُ تتفاقمُ .. يرى إلى ما حولهُ فيأنس مُجسِّداً ذلك بانشراحٍ ضارٍ وتطلُّعٍ لأحلامٍ مُضاءةٍ .. وفي لحظةٍ بارقةٍ من عنفِ الذوبان والهياج الاستدراكي للمواقف التي تهبُّ بغتةً تحركت المُجلَّداتُ ثم تهاطلت ! فاحت رائحةُ القرون تملأ فناءَ الغرفةِ وتكتسحها .. ورويداً رويداً تَفرغُ الرفوفُ ، تتعرّى ساحبةً الهواء .. سالت الأوراقُ وتمازجت . سرى هسيسٌ ، وهمهماتٌ ندَّت .. الأشياءُ تراكمت آخذةً بواكيرَ تشكُّلِ قواماتٍ بشريةٍ ... ظهرت رؤوسٌ تعتليها عمائمُ وأخرى مكشوفة حسيرة .. بانت الوجوهُ ملساء وأخرى بلحى غزيرة .. عيونٌ برقَت ، وخفتت عيون ... أكتافٌ تجاورت ، واكفٌّ تصافحت . الوقتُ لقاء ؛ والودّ عناق . تداخلت آهاتُ الشِّعرِ مع خلجاتِ الخطابة ، مع أبنيةِ القصّ وجدرانِ المُقاربة ؛ مع ضرباتِ أزاميلَ واحتكاكِ مشارطَ ، تفاعلات عناصر كيمياء جوار انبثاقات إشعاعيةٍ روحيةٍ متقاطعةٍ .

فِرحاً / دهِشاً وقفَ يُترجِم تقنياتِ الموقف !! عرفَهم !! .. عرفَهم سريعاً : قاماتٌ متوهَّجة ترفِلُ على إيقاعٍ نوراني ،، كلَّ له هيأةُ الهالةِ المتماوجة تشقُّ أستارَ الهمود تدحرُ جيوشَ العُتمةِ يؤثِر النهوضَ بغيةَ اللقاء .. يَجد ودَّهم لا يسع لهفتَهُ !! عرفوه !! من احتراقات أصابعهِ / من لهيبِ حدقتيه / من اضطرام أعماقهِ / من رعَشِ الروح .. لا يدري إنْ كانوا دعوه أم هو الذي أدّى ذلك ؟ ! إذْ ما أنْ أوقفَ قلماً يدوَّن بهِ ونهض عن كرسيَّ يتّخذُهُ مجلساً حتى تخلخلَ الفناء ؛ وجدرانُ الغرفةِ تراجعت .. تواربَ دربٌ ، واتَّسعت آفاق ... دخلَ وإيّاهم أجواءَ الانفتاح تسوقهم أنسامُ الخلق باتجاهِ وادٍ يعمرُ بفنونِ الإبداع .. وادٍ يحتشدُ فيه المتميّزون عمَّن تناقلت عنهم الألسنُ ورسمتهم المخيّلات .. أسماءٌ أرّخت وجودَها بأفعالٍ تدخلُ بابَ الاستثناء واستبدلت مسرّاتِها بالأثرِ ، حافرةً بأزميل التضحيات .. شخوصٌ انبرت تُهندِّسُ وأخرى تتكلمُ مُجاهرةً بلا استئذان ، مُهرقةً سني عنفوانِها سعياً لتحقيقِ آمالٍ باذخةٍ تمنحها للآخرين ... يصافحُ الغزالي ، ويشدُّ على يدِ التوحيدي .. تنتشي كوامنُه لرؤيةِ المتنبي مثلما يفرح للحبّوبي . يفردُ ذراعيه لمايكل أنجلو احتضاناً ، تماماً مثلما يطبعُ قُبلةً على جبين الواسطي .. يُقال له ذاك ديستوفسكي وهذا ديكنز ؛ وذا هوغو ، وهذه مدام كوري وتلك أحلام مستغانمي ... ذلك الذي على الربوةِ خوان رولفو مع ديلا كروا ، وكازنتزاكي ، غوغول ومحمد خضير ، ونجيب محفوظ وسيلانبا وحسن مطلك [حسن مطلك يسأله : لابدَّ أنك قرأت روايتي " داباد " .. لم يُسعفه الوقتُ ليقول : نعم وشغفتُ بها أيمّا شغفٍ ، ولم يقدر أن يقول : روايتُك تلغي الإرثَ الروائي العالمي بأكملِه ، وتسمو عليه] .. مأخوذاً بالهديرِ البشري وموجاتِ الأصوات الرخيمة الهابطة عليهم (كأقواس السحاب) ؛ تشبيهات السيّاب وفخامة قولِ الجواهري : (أطبقْ دُجىً ، أطبق ضباب) .. يهمس له الطيّبُ صالح ؛ ويوميء علي حرب .. ومن بعيد يبتسم فرويد وآلفرد آدلر كذلك هيتشكوك يلمحَه محاطاً بالطيور .. يرى إلى

الخنساء الجريحةِ مثلما يلتقي زينب الطعينة يجمع همّيهما ويُترجم دموعَهما .. يتذكَّر صخراً ويستذكر الحُسين .. يصافحُ ليلى ويفوه بسؤال أين تكون بثينة . يحصدُ الشوقَ وأبجديات العشق ، ويبقى على وشكِ السؤال عن قيسٍ وجميل وجرير (لولا الحياء) الذي أجفلّه .. يبصرُ (التوباذ) .. يُمرّرُ عينيه على (يذبُل) .. يستنطِق (الدَّخول) فتتمثّل له جسورُ قسنطينة وبويب " جيكور " .. يسيرُ في أزقةِ (السكّرية) ثم يطوفُ على محلات (خان الخليلي) ... يُنتزع من نَهلِ الأسماء .. يلقى الجموع تحيا خلقاً مؤآنساً .. لم ير بينهم نيرون ولم يسمع عمّن يفوه بإسم هتلر ، ولا ستالين ، ولا الحجّاج ولا شارون .. وحين سألَ عنهم تحركت النظرات تُشير إلى جهةِ ما وراء تلٍّ نكير ... وجهةٌ لا يقربها المفعمون بالخلود .. يُنصح بعدم الدنو لكنّه يصرُّ سعيّا لتلمّس خاتماتهم .. يخطو وقبل اعتلائه التلَّ وإطلالهِ تداهمه موجاتُ عطَنٍ ؛ وتياراتُ عفونة ؛؛ ثم أصواتٌ هوجاء من زنوخةٍ كامدة تدفع به إلى تخوم التقزز والقيء ولفظ الأحشاء .

(5)

لم يكن الذي شهده مألوفاً . ولم يدنُ من خاطره إطلاقاً لكنّ الخبزَ الذي أكله (هو الذي ما ذاقَ منه قبلاً) ودنُّ الخمر الذي زقّه (وما كان قد عرف لسائلٍ كهذا من قبل) ، ، ثم الثياب التي غطّت جسدَه وغيّرت مظهرَه (وما انجلى ضبابُ سحرِها بعد) جعلوا منه مخلوقاً ينأى تواليا عن براءةِ البدء ... وعندما ألتفت وراءً بخطفةٍ لم يلمح (ها) المرأة الرافلة إلى جانبه .. يتوجّس حنيناً إلى الغابةِ وتضاريسِ الأحراش التي خلّفها ... داهمته خشيةُ أن تستحيلَ محطَّ طمعٍ لمن سيجدها خاليةً من أنفاسِه فيستحوذ عليها بلا عناء .

همَّ بالعودةِ والتخلّي عن جبروتِ المرأةِ المهيمنة عليه بدهائها بيدَ أنَّ المدينةَ التي قصدها غدت أقربَ من تنائي خُطى فالسورُ تتابع عُلوّاً ؛؛ والبابُ الخشبي المحفور بنقوشِ نخيلٍ وسلالٍ وأقداح نبيذ ازداد ضخامةً . مخلوقاتٌ من جنسهِ كشفتها مواربةُ الباب صارت مثارَ فضولٍ لعينيه المتفرستين ..

بانفعالٍ داهشٍ دخل ...

ما كان وحدهِ مَن يرتدي ملابسَ الغرابة بل الجميع تسربلُهم متنوعاتُ الأقمشة وتفاوتُ التفاصيل .. أبصرَ أبنيةً تهندسُها ذائقةٌ مثيرة ؛ وهياكلُ سلّمية تتدرجُ صعوداً .

هامسةً أسرّت المرأةُ في أذنِهِ :

- هي ذي المعابد / الزقورات / بيوت الآلهة ومراتب حضور الخاشعين .. هنا ستلتقي غريماً لك .. كنّ نداً لهُ .

لن يأبَه للغريم ؛؛ ولا يخشى المجاهيل لكنّ اللهفةَ للعودة تنامت مهيجةً في قلبِه طيورَ الأشجان .. نبالُ الحنين إلى الربع والربوع تفتكُ ببقايا جَلَدهِ .. ضجّ صدرُهُ بغيومِ الشوق !.. كاد أنْ يطلق شهقةَ الإعلانِ بالتقهقر . لم يقدِر ، فبكى ! .. بكى بمرارةٍ . سألت الدموعُ سيولاً على الوجنتين .

وإذْ نهضَ مقرراً تلبية نداء الأحراش خذله العقل .

سمعَ نداءَ المرأة يُعيب عليه رغبةَ القرار مُتهمةً إياه بالتخاذل ... حيالَ ذلك تصلّبت ساقاه وتوتَّر الذراعان .. شررٌ نافرٌ / زاخرٌ / قدحَ من الحدقتين فأنطلقَ الفمُ يُبعثر رذاذَ اللعاب ، ممزوجاً بمفرداتِ التحدي :

– إذاً هيّا .. دعيني أقابله .. أين مَن تزعمين ؟ !

(6)

توالت الأعوامُ ...وشرنقاتُ التبصّر تتالت !! استحالت الأيامُ أبجديةً من دروبٍ تمنحهُ مفاتيحَ المسار ؛ ولوجاً إلى عوالمَ مجرّاتٍ بشكلِ متواليات معرفية . يراكمُ أكوامَ أسئلةٍ عمّا يرى ويحدث ، كيف ولماذا ؟ .. هل وأين ؟.. استفهاماتٌ بهيئةِ مقارناتٍ وهو الحائرُ المأسورُ بالسهومِ والشَّددَ يتلمَّس معادلاتٍ مقلوبةً / مَنطِقاً زائفاً / شعاراتٍ رماديةً / أفعالاً شائنةً هي تراكماتُ غدرٍ محسوبٍ وسلوكٍ عنفي مُقنن مثلما هي شغفٌ لارتشافِ دماءٍ برواءٍ وساديّةٍ تُعلنُ هتافَها .

يدخلُ مُدناً شبحية بشوارعَ باهتة ؛؛ أرصفتُها تجفوها الأقدامُ المُستحبّة ، تهجرُها الظلالُ النديّة فيما الأجواءُ مُتكدّرة لا تُبشر باطمئنانٍ / لا توحي برضا . يخطو فتُذهلُه القاماتُ المتحركةُ بآليةٍ مُبرمجة تحيّره الوجوهُ الشمعية المُفرَغة من التعابير الأنسية .. يقلقهُ انتفاءُ دماثةِ الوجوه .. الخفافيشُ تأخذُ أمكنةَ العصافير : الجرذانُ تعتلي أعشاشَ الصقورِ رافلةً على خمائلَ هجرَتها : غربانٌ تضاجع غرباناً على أسلاكِ الكهرباء الميّتة ... ترادفاتُ نعيبٍ تبترُ بقايا نبراتٍ منغمة – هي ما ترشحت من مسارب النهارات البعيدة – .. صفيرٌ يُسمع من مسافةٍ تنأى كأنه اختراقُ ريحٍ لتشابكاتِ أغصانٍ عجفاء يجاهدُ الشَّجرُ في إبقائِها منتصبةً ولو بشيءٍ من الإرادةِ على البقاء .. البيوتُ تاركة نوافذها جروحاً فاغرةً تنزفُ عصارةَ ذاكرتِها وذكرياتِها .. محلاّتٌ واجهاتُها المزججةُ بالفراغِ تُقدِّم معروضاتِها أحلاماً مُجفّفة ، وأماني مُعلَّبةً ، وأفكاراً تَعِدُ بالفراديس الغائبة .. وفي زوايا غبارية : ثمة جماجمُ مصفوفةٌ باتِّساقٍ على أرففِ التشفّي/ أكفٌّ مبتورةُ الأنامل مُعلقةٌ بصنّاراتِ الوعيد/ سيقانٌ بأقدامٍ مُهشمة مُثبتة بقناني ثقبِ المؤخرات، بينما هياكلُ عظميةٌ متفاوتةُ الارتفاعاتِ تتراصفُ كخلفيةٍ لمعروضاتٍ إبادّية جماعية مُرتبة بإتقانٍ وحفاوة احتفالية.. [وفي ركنٍ آخر لمنفذٍ يقودُ إلى شارعٍ مفتوحٍ تتناقضُ الصورةُ؛ ويعطي الموقفُ تفاوتاً بيّناً: إيقاعٌ راقصٌ لضاربي دفوفٍ غجريين ، وراقصاتٌ غجريات يتجمَّلنَ بالمساحيق وبالأحزمةِ المشدودةِ حولَ الأرداف إظهاراً لاهتزازِها المثير.. متطلعونَ بشبقٍ يلغي الشعورَ بالمواطنةِ ، يلاحقونَ أقدامهنَّ تدوسُ الأوراقَ النقديّة التي ينثرونها بلا اعتبارٍ ولا حشمة.. أحذيتهنَّ تقصفُ النسرَ الشامخَ على جدارِ العملةِ فتلوي عنقَه وتكسرَ الأنف الصقري للوجه الذكوري المنتصب بشموخٍ يُعلي رايةَ المدينةِ فتُحيله عجوزاً مطعوناً... تترافقُ انثناءاتُ الأوراقِ مع شعورٍ بانخذالٍ ذليلٍ لمن جاءوا بهنَّ يُمتِّعنَ حفنةَ غرباءٍ جُلبوا لزيارةٍ جنسية بناءً على دعواتٍ متتاليةٍ لعرضِ يفاعةِ المدينة وإظهارِها فتيّةً ما زالت تَحظى بطمعِ المنتفعين].

يخرجُ مطعوناً بالتفكُّر ، مُكبلاً بأصفادِ الجَزَع ؛ فإذا القلبُ يكفهر : وإذا الشمسُ تنكسر : وإذا غزالاتُ الروحِ المؤمَّلُ لها الانطلاق جموعاً تنفرط : وإذا الدموعُ سواقٍ تقصُّ بانوراما الآلام والعَسَف : وإذا به براءةٌ حييّة وسط إعصارٍ جارفٍ من التجنّي !! .. يتسمَّرُ كالعاري أمامَ أنظارِ الأسئلة الكبيرة / الثقيلة .. لا سلاح لديه يتّقي به شرورَ الوعي سوى قلمه ... يلاحظُ احتدامَه وبركانَ أعماقِه ورغباتِ إفاضته .. يتحرَّك مستجدياً الأوراق ليوشم بياضَها بآهاتِ التمزُّق .. يلتقي الأقرانَ المُحبيّن فيستنشق جوهرَ الهمِّ وذاتَ البوح .

الكلماتُ لا تشي بافتضاضاتها الناجزة ..

الأشرعةُ لا تبغي التعرّي إزاء أعاصيرِ التبعثر ..

السفرُ طويل .. والبحرُ بلا منتهى ..

يحصدُ تعاطفَهم مثلما يمنحهم مواساته .. يَطمئنُّ لرؤيتهم ينهلونَ من ساقيةٍ واحدة ، وماءٍ مشترك مستانساً لسماع أسماء يردِّدونها هي ذات الأسماء التي يعيش ويغترف فيضَ معرفتها .. تتناسل لتغدو أفواجاً من العذاب المستديم ، ومنابت الأحزان تتراكم كدكنةِ الغماماتِ . بعدما استعرضَ الوجوهَ الحميمةَ التي سعى ليستحيل أحدَها شرع يتأمل على ركامِ التذكُّر تداخلات الأسئلة مجُاهراً بأبجديات الشك : هل عليه شراء الأقنعة ليضمن بهجةَ الاحتفاء ؟ ... هل يخنق الكلمات الصادقة الصريحة بكاتمِ البوح ليُخرجها متوافِقةَ واذرع الدخان ؟ .. هل يحيا الكذبَ المستديم ؟ .. هل يصبر ويصابر استعانةً بدرعِ التقيّة ضماناً للسلامةِ المُذِّلّة ؟ .. إذا كان ذلك من عِداد اليُسرِ فما هي تجليّات الحقيقة ؟ .. وأنّى له قولُ الواقعِ بريشةِ الرائي المُقيَّد ؟

بودٍّ وتعاطفٍ نظروا إليه .. ثم بعينِ السؤال فاهوا :

– وماذا فعلت ؟

يركنُ إلى الصمتِ مُسربَلاً بالذهول / مُتشبثاً بأظافرِ الحفر كي تبحث عن جوابٍ يُرضي اللهفات .. أخيراً ولِد الردُّ :

– كان عليّ أنْ أعبرَ جسور النار وأطأ جمرَ المستحيل تماماً كما فعلتُم أنتم .. أقبض شمسَ الحقيقة لأرميها ساطعةً في عيون الظلام .. اقتني فلذات الصبر وارتدي معاطفَ العزيمة .

فأنبرى يكتب بلا مواربةٍ ، عمّا يشهد وما يدور / ممزِّقاً ومعرِّياً حُجبَ المخبوءِ صارخاً بأعلى صوتِ قلمهِ ... الواعونَ من الناس يسمعونه / يقرأوه ... مدوّناته تتلقفُها الذائقات تلتقطُها الألسن ... يرونه لسانَ دواخلهم .. قاموس انفعالاتهم .. السماء يحفلون بصفاء أثيرها والغد الذي يبغون .

يغدو علماً / يغدو مؤثِّراً مُخيفاً ، يعدو متجاوزاً حدود المسموح به ... تكثر الآذان ؛ العيون تتناسل .. الأكف الرمادية تتكاثف ، متكفلة بمهام التحجيم .. بات المتضررون يبُصرون سهامَ أفكاره تخترقُ أنسَ مجونِهم ، ورماحَ الكلمات تترَّصدُ حبورَ موائدِهم (ما هذه الريح العتيّة تقصفُ جدرانَ انتشاءاتِهم وتسعى للإطاحةِ بسقفِ هيمنتهم .. ما لها ؟)

وينبثقُ القرار حاسماً ..

(7)

أصيلُ المدينةِ يتناغم بأنسامه .. وأريجُ طلعِ النخيل يتعالى ، ثم يهبط نثيثاً لامرئياً فوقَ الدروب والمنعطفات المزدحمة بحركةِ القادمين صوبَ الزقورةِ البيضاء ، المُطعَّمة جدرانُها بأقراصِ الطين الزُّرق أو البنّية المفخورة بلمعانٍ باهر (إنها لحظاتُ التقرّب من مهابةِ الآلهة) غير أنَّ الخطى سرعان ما خفَّت واستحالَ انتقالُها وئيداً .. ثم توقفاً آنْ تصالبت الأنظارُ على مخلوقٍ برّي أبعد من إنسانٍ أدنى من وحشٍ صحبةَ امرأةٍ يعرفونها .. ملامحُه تنمُّ عن اندهاشات تترى .. ما أبصروا مثله من قبل ؛ ؛ وما ذهلوا كما هو عُظم الذهول الذي يعتريهم الآن ... فقط كانوا يسمعون جملةَ حكاياتٍ عن مخلوقٍ يعتنقُ الحُبَّ الدفين لغابةٍ يحيا في تشابكاتِها ورَبع غفيرين يرافقونه .. لا أحد يجرؤ على الاقترابِ من سطوتِه ولا هو آثر يوماً التطلُّع لمدينتِهم .. تساءلوا بفضولٍ عمّن يكون ؟ وأين كان ؟! .. بيد أنّ حضورَ حاكمِ المدينةِ تحرَّكا صوبَ الزقورةِ غيّر اهتمامَ نظرِهم وحوَّلَهم إلى الاغترافِ العميقِ من طلّته [لمظهرِه صفاتٌ تخيف .. ولسطوتِه رعبٌ يميت .. ثلثاه إله وثلثُه بشر .. هالكُ الرجال ومُمزِّقهم / فاتكٌ بالنساء ... مُفتضُّ البكارات / مُبيحُ العذارى !] .. حين همَّ بالدخول عبرَ الباب الرئيس فوجئ الناظرون بمن يَقطع عليه الطريق ويمنعه !!!

ولم يكن الفاعلُ سوى القادم الجديد الذي انبرى يتفرَّس بعينين وحشيتين شرستين ..
تشابكَ الاثنان وتصارعا ...
تصايحَ المتطلّعون وتصارخوا ...
تعانقت القوّتان ثم تنافرتا ... قوتان تتقاربان في جموحِهما / تحتدمان ..
تلاحقت الأنفاس .. أنفاسٌ تعجُّ بالصراع وأخرى تصطدم بالتوقّف ابتغاءَ معرفةِ المآل ..
ولقد علا الهتاف / الصامت .. وتصافحت النظرات بتشفٍّ غامر عندما وقعَ الاثنان أرضاً وانقضّ هو على الحاكمِ مقترباً من إعلانِ انتصاره عندما دنت منهُ – خلسةً خناجرُ معقوفةٌ كانت مُندَّسةً خلفَ أرديةِ الغيلة ، أنزلت فتكاً في ظهرِه وسطَ طعن أنظارٍ وانكفاءِ رأيٍ وخرسِ ألسن .. ثم كآبة برقية خاطفة سرت في أعماقِ المتحلقين الذين تمتموا بنبرات منكسرة : آ آآآآآ....

(8)

حين أهالوا ختامَ كفوفِ التراب – في ليلةٍ هامدةٍ يكتنفُها السكون – انطوت آخرُ صفحةٍ من سِفر حياته .. صار وجودُه علواً ترابياً أسمه " القبر " في مقبرةٍ هي تكتلاتٌ جثومية وشواهدُ حُفرت على رخاماتِها بضعُ كلمات .
لم يكن المشيّعون سوى قلة اتخذوا الركونَ بعد الهمهمة ؛ ؛ مؤبّنين وراثين .. قلةٌ ممّن كانوا شاركوه ساعاتِ المِحن وانسحقوا تحت أحجارِ طواحين المشاعر راحوا يستعيدون واحدةً من مدوَّناته :
" عندما تتلاشى الأنفاسُ ويتّبدَّدُ الروح ليس الفردُ الذي يموت إنما العالم الذي يتوقف . "
عندها شرعَ أحدُ مريديه يكتب على قرطاسِ الذاكرة :
" إنَّ أمةً تَقبرُ رجالاتِها صمتاً لهي من الفناءِ أقرب . " فيما كتبَ ثانٍ في مشروعِ كتابٍ يُلخِّص حقبةً من خَواء الزمن ويفضح المتشدقينَ بالفروسية وبيارقِ الكرامة واستطالةِ الألسن :
" كلٌ يبحث عن سلوى .. كلٌ في التمادي يمور .. الزمنُ فصلوه حذاءً وطفقوا يطأون به كواحلَ عيونِ الأرض ورفَل مَيسِ الندى .. يطمرون نداءَ الهواء الطليق غير آبهين بالفحوى ؛ غير محتاطين لصوتِ العِرض ... تراهم عُراة يلجَّون ميادين الخديعة – المُعدَّة لهم عُزَّلاً يقتفونَ خُطى العِهر .. العيونُ الساخرةُ تلاحقهم .. الكفوفُ الممتلئةُ تلطمُهم على مؤخراتهم .. هُم في الغي يعمهون .. منكَّسون ... أذلاء ... خنوعون ... ضائعون .. "

(9)

في الصباح قُرِءَ خبرُ الوفاةِ حسيراً ؛ يحتلُّ زاويةً ميتةً بعُرف التنضيد الصحفي !!
في المساء كانت الأطعمةُ والفضلات تُلَف بأوراقِ جرائدَ – ذلك اليوم – ثم تؤول مقذوفةً إلى أكوامِ المزابلِ .

2001/5/30
زلّة – ليبيا

==========

(*) فازت بالجائزة الثانية في مسابقة دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد عام 2009 تحت عنوان انطلق عائماً واندفع رشيقاً

الجرثومــة (*)

مساحيقُها الفاقعةُ كرّهت لدينا رهافةَ الألوانِ وحرارتها... ملامُحها الحربائية صارت تثير مخاوفَنا، مفجِّرةً حشودَ الهواجسِ تعصفُ بأذهاننا المرهقةِ. ننتظِرُ انقضاء اللحظات الجاثمة على عقارب ساعةِ الجدارِ لنشطبَ بأقلامِ ارتياحنا شبحاً من أشباحِها العسيرة... آ ننتظر!،، وهل لدينا غير الانتظار مدخلاً للأمل ؟!.. كلّ حينٍ نقذفُ بلعناتنا بوجهِ لقيطها / الحصار، سارق جوهرةِ زهونا، وقاتل خيولِ حلمِنا الصاهلة. الليالي الثلاثون نحسبها بلوعتنا وصبرنا، ودعائنا.. ليس لنا من بلسمٍ سوى الفراشات الزرق آن تدخل علينا تحيل سكونَ البيتِ زغاريدَ فرحٍ نديَّةٍ نتمثلها ليلةَ عُرسٍ جنوبيةٍ ... يلتهمُ رفيفُ عيونِ أخوتي الحنينَ المخضَّب بحروفِها المتوسِّدة الأسطرَ المتهافتة... بشوقي أخطفُها من بين الأكفّ بعد القراءةِ العاشرة أو العشرين.. أخطفها وأنزوي،، وحدي أعيش طقوسَ القراءة الحميمة أسقيها دمعي ومناجاتي كإثباتٍ لا يقبلُ الشكَّ عن حبِّي لأبي.. أقرأ.. وأقرأ.. وأخيراً تقف عرباتُ الشغفِ عند آخر رسالةٍ :

زهوري العاطرة :

لم يبقَ للقاءِ بكم غيرُ شهرٍ أحسبه سينصرفُ يسيراً بعدما تحمَّلتُ وتحمَّلتم ثقل عامين قاهرين "

[على الكتفِ العريض يحملني، آخذاً بي عبر الدروبِ المتداخلة محلّقةً على شفا بهجةٍ مائيةٍ وتهليلٍ زاخرٍ... الشمسُ فوقنا تنثر نثيثاً كريستالياً يماوجهُ هواءُ عذبُ فأسبحُ عائمةً وسطَ هناءٍ روحي غامر... تتلقفنا الشوارعُ العريضةُ تقودنا إلى حيثُ كرنفال العيد/ بقعةٌ كانت قبلَ أيامٍ قفراء خاليةً إلاّ من أقدامٍ تقطعها باتجاهِ قلب المدينةِ هي الآن عامرة بضجيجِ زحامٍ بشري يطفو على غدائرَ الأثوابِ الجديدة، والحبور المتوهجِ... هياكلُ الألعابِ شاخصةُ: أراجيح/ عربات/ دواليب تسابقُ التيارات المهفهفة تعابثُ الفساتين المزركشة أذيالُها بالدانتيلات المخرمة..

واهتف به : " كفى... كفى !!"..

تمتدُ يداه لتهبطا بي.. رصيفُ الدهشةِ يلفُّنيّ، وجذلى أخطو راكضةً صوبَ أرجوحةٍ مهتزّةٍ أو دولاب دوّار، ثم عربةِ حصان ملأى بوجوهِ صغارٍ طافحةٍ بثَملِ الابتهاج.. يمكث/ يتابعني عن قرب... (أنا) أكسبُ رضاه لبقائي زمناً أطول ؛ (هو) يحصدُ سنابلَ سعادتي المغموسُة بطعمِ الضحكات أطلقها متواليةً فيعُبها شهيقُ الأنسام.. وأعود لأقصَّ على أمي].. أدخلُ عليها!! ألفيها عند منضدَتهِ منشدهَةً.... تنظّفُ المنضدةِ بلونها الحنائي، حذاء زاوية الغرفة باهتة النور.. تجانبُها رفوفُ كتبٍ متعاليةٍ تقارب السقف .. نافذةٌ عينا " جارلس ديكنز " بلحيتهِ الشيباء المشاكسة عبر مستطيلِ الصورة المحصورة بإطارٍ خشبي لمرآة تشظّت زمن الجنون البشري/ الحرب. بعدما أتمّت مهمةَ التنظيف رجعت خطوتين تتأملها... تستعيد ذكرى الجالس خلفها تكاد تُطلقُ سؤالها المعهود: هل أعدُّ لكَ شاياً ؟" ... سؤال اعتدتُ سماعَه منذ صغري . لا يمرُّ يومُ إلاّ وتركضُ عيناها قبلَ كفِّها تزيلُ غباراً سمح له الباب ليفترش السطحَ اللميع ... ومستمعةً كانت ؛ يقرأ لها ما كتبه قبل استحالتها ناقدةً لإعماله، هي التي رفضَ أبوها/ جدِّي مراراً تزويجها لحالمٍ لن يملأ نزوعَ ابنته بغيرِ أحلامٍ مهشّمةٍ لسعادةٍ سرابية كاذبة ...؛؛ بعد الاقتران تكشَّف لها صدقَ كلامِ الأبِ، لكنَّها صبرت عليه...، وصبرت.. ومع الأيام وجدت نفسها تحلُّق في فناءات رؤاه المنشطرة، ونحنُ بتنا حفنةً نتعاقب.. تمسكُ الصحفَ ساعات خروجه سائحة مع كتاباتِه المبثوثة . أخيلةٌ تقودُها إلى حيث شوارعَ وحاراتٍ، وأسواقِ مدن مثالية؛ إنسانُها يتعامل بعملةِ الفضيلةِ خلوَّاً من التشبّث بالشخصي وتاثير الذات... تنسحب!!. في عينيها مرارةُ ذكرى هاربة، وزمن عذب يقيناً تحسبهُ لن يعود... تمورُ داخلي رغبةُ تعرٍّ أمام مرايا التشظي والعدو خلفَ طرقات البوح... أحبسُ دمعةً تضبّبُ أمامي أشياءه المعلّقة تضمّها الزاوية: سترته الرصاصية اللون/ بنطاله الأسود/ قمصانه العديدة.. تتداخل كتبهُ المتراصفة وتسيح أحرفُها فأغرق وسط طوفان شوقي إليه.. أحدِّق بصورتِه المعلّقة قريباً من " ديكنز " ترسم ابتسامةَ زمنٍ محتْ عواصفُ الشدائد آثارَها وتركت جفاءً يسلب بهاءَ الروح.. أشذاءُ الدُنى تنصهرُ على صخرة العَسَفِ، وتواليات الإشراقِ تنطفئ بعماءِ انسحاقِ المديات إذْ كلّما تفتّحت زهرةٌ لفظت شهدَها قِسراً... باهتةٌ تلك الظهيرة .. كفّاى تتشبثان بأسفل بنطاله؛ دموعي كالندى تتقاطرُ على وجهِ حذائه اللمّاع؛ أستحلفُهُ أنْ لا يُعيد الكرّةَ ويسافر!..

عامان ونحن نتلظّى على جمرِ الفراق وهجيرِ اللوعة.. عامان، يا أبي!!..أمُّي تمسك ذراعي/ تسحبني بينما جباهُ أخوتي لافتات تفضح مرارةَ القرار.. يقول: دعوها !..

يرفعني ! ألمح دموعي ضجيجة يعكسها طُفو مقلتيه.. أدري أنَّ ثقلَ اللحظات عبر سنواته الأربعين تتهافت الآن؛ وأنَّ قلمَهُ يزدحم متأججاً لتدوين عصارةِ القلب، أسطرٌ تحتويها مفكرتُه التي ما زالت بعضُ صفحاتها فارغةً ؛؛؛،،، آه !! المفكرة [1] .. أدريه قلقاً حزيناً لم يرتضِ حكمَ الزمن المتدرّع بالجفاء واللامبالاة ... أدريه سيفتقد وسيفقد . حسبما قرأت – سنوات نهوضِنا وكبرِنا مُرغماً.. تسير أمي بخِفرٍ وحياءٍ وفؤادٍ مبعثر!.. يغلق بابَ عربةِ الأجرة ومن النافذة يرفع يداً تلوِّح بعدما طمّأنه إخواني لوضعِ حقائبَ السفر في الخزانةِ الخلفية ... هل يدري أنا الوحيدة التي جسّت بأصابعَ تتبعِها مكامنَ الذات ؟! أقصد ذاته! وهل تدرك أمي ومعها أخوتي تشبّثي العنيد لمنعه من السفر؟!.. أمدُّ يدي فاكتشف فراغَ الجارور ... وأنهض.. بي اندفاعٌ للبوح لها .،،. أستشعر أنفاسَه السائحات مالئات فضاءَ الغرفة وهمسه المنسرب من كلِّ ما حولي يرجوني الصمت.. أشهق..،،، ما يعتريني لا يمنحني فرصةَ نسيان هاجسٍ ساحقٍ يعيد لي زِحام المساءات الضاجّة بأكفِّ الحرب [2] المُصفقة انتشاءً،،،، ونشيج الصباحات !! ... كانت السماء تُقتَحمُ بخفّاشاتٍ فولاذية خرقاء؛ تمزِّق نديفَ غيومٍ بيضاء، تُحيلها شتاتاً راسمةً خارطةَ فجورٍ أخرق.. تتكّدس سماءٌ ثانية تنحو بالذاهلين لعظمِ المفاجاة إلى ليالي العتمةِ المتعثِّرة بساعاتِ زمهريرٍ جليدي وحفاوةِ شتاءٍ رعين.. صدورٌ تُصدر صفيراً خانقاً.. أجسادٌ تحتشدُ ارتجافاً. مشاعرٌ تصليها سياطُ المجهول بهيمنةِ فزعٍ يمحو بقايا طمأنينة منسية.. والذاكرة!! حتى الذاكرة تتخلى عن لحظةِ هناءٍ ماثل ...تقفزُ الشوارعُ[3] . لا شيء سوى صدى أصوات مخدَّرة تتوسَّد أرصفةَ الفراغ، وكلاب متضوِّرة تغرز أنيابَها في المساحاتِ المعُشبة؛ تقضم الحشائشَ الصفر فيما تزدحمُ البيوتُ بلوعاتٍ متناسخة تُذكيها العيونُ السائحة غرابةً؛ وأسئلة تدوفها حيرةٌ متقطعة من أفواهِ الصغار عمّا يحدث! كيف! ولماذا؟؛ متناسين ساعاتِ جوعٍ عاتية... الأُمّهات يعدن ترتيبَ خارطةِ المطابخ طِبقاً لتنفيذ كيمياءِ الطعام بينما الآباءُ يحصون الخيبات ويعدّون العدّةَ لاستقبالِ خيباتٍ أُخر.

كنا نلتهم الأيامَ على عزفِ انكفاءٍ كاتم يختزل خمسةَ أرغفةٍ إلى أثنين نقتسمها بشهيّة جامحة؛ ما نلبث أن نملأ فضاءَ البيت بإعلان عدم الشبع/ عدم الاكتفاء/ عدم القناعة .... يتبدد ما لدى الأب من مدّخرات على قلتها. نجابهُه بأفواهِ الاحتجاج من جديد. يعدنا بالمزيد مرةً؛ ومرةً يلوذ بالصمت تاركاً لأمّنا مهّمةَ المُداراة بالصبر/ الصبر/ الصبر/ الصبر؛؛؛ وأخيراً يجيء الانفجار:::: في ساعةٍ جهيدةٍ أمّنا تتعرى أمامنا وصوتُها المشوب بالانكسار [4] والتهدّج، يقول: انظروا!... هيكلٌ عظمي متكلّف الانتصاب/ ثديان ليمونتان ذابلتان/ بطنٌ خِرقةٌ منكمشة/ فخذان فقدا الكثير من امتلائهما... يلوذ أخوتي بالمرارة فأضجُّ أنا بالدموع....

يرتدي أبي معطفَ الحزن، والجاً مفارقَ التفتّت ؛ منتهياً بالغياب داخل غرفتِه ليل نهار.. دخلنا عليه، وجدناه ليس أبانا: كتلةُ اصفرارٍ ونحول ومُجافاة لما حوله.. وجهٌ شاحب. يختفي خلف زجاجِ نظارتيه كهفان عتيمان.. آنذاك لذنا بالصمت والذهول مفضّلين الجوعَ على الخسارة.

في لحظةٍ هوجاء مُستلّة من طوايا المحن أجلَسنا ليعلن القرار: " يا أولاد؛ المعضلةُ كما تبصرون مستمرةٌ ومهولة؛ وما يدخلُنا لا يكفينا.. متطلباتكُم القادمة كثيرة و مشروعة تدفعني لضرورةِ السفر

خارج الوطن والعمل هناك.. لديَّ أصدقاءُ احتضنتهم بلدانٌ عديدة، أغدقت عليهم رضاها وقناعتها وما زلت محتفظاً بعناوين بعضهم. [واحداً كان من شلّةٍ ما عرفوا للقناعةِ هيمنةً.. رؤاهم أنْ يخترقوا حجابات لم تطأها رغباتُ نفوسِهم اللاهبة من قبل.. ما حولهم يمنحهم دفقاً من عدم النظر المتبوع بالرضا والركون، إنما القفز واستطلاع ما وراء جدار المعرفة المألوفة/ المقاسة بأمتار كتبٍ مكررة أتخمت ذائقتَهم.. الهديرُ يفتح دروباً في الرؤوس؛ والدواخلُ بركانيةٌ تمور..،، أسرابُ طيور راحلة تُفجّر لديهم الرغبة.. يضمُّهم المقهى وسط صخب الحوارات وإعلان أنْ لا مفر من الخروج عن رقعة الشطرنج ..... وذا حديث متقطع أو متواصل لإحدى مساءات النفور تطلّعوا بوجوه بعضهم فاستوحشوا (منصور)، ومقعدهُ في المقهى استمر شاغراً؛؛؛ حتى اقتحم الجلسةَ ضحىً ساعي بريد المحلّة، دافعاً مظروفاً عرضت زاويته طابعاً يجُسّم ملامحَ امرأةٍ أربعينية يتربَّع رأسها تاجٌ ترصّعه بؤرٌ ماسية لاصفة؛ وأسفله برزت كبيرةً حروفٌ لاتينية!!... افتضّوه وسط غرابةٍ جارفةٍ؛ وقرأوا :

**(*أصدقاء الروح:*

لابد لهذا القلب أن يفتح عينيه بسكين لاذعةٍ كيما يتلمّس الطريق.

عذراً؛ أني لم أحس فيكم الواثق الشجاع ليرفع لافتة السفر والاكتشاف.. تُقرّون ولا تقرّرون!!

***هذه محطتي الأولى التي لا أجدها مبتغى.. أرى إزائي محطات سأبلغها واحدة، واحدة.. انتظروا رسالة أُخرى*) .**

ذلك اليوم ضربوا الأفخاذ بأكفٍّ الندم[5] والعتب، أو اللوم، أو الاعتراف حتى بالُجين... وهكذا استحالت رسالةُ منصور فاتحةً لمقاعدَ شرعت تفرغ، ومقهى صارت غريبةً يؤمها أناسٌ من دُعاة لعب الدومينو والقمار... أما هو فتتالت عليه الرسائل تدعوه وتشجّعه.. لهفاتهم تصله.. وأمانيهم ينثرونها ندى يرطّب جفافَ الروح.. كان بين إقدام يتبعه إقدام. وتردّد يليهِ ترددَ.. غاب عن خاطرهِ أنّ قطاراتِ الأعوام طفقت تتلاحق.... ويومَ رفع رأسه تذكّراً ونظر ألفى الهوّةَ اتسعت ؛؛ كذلك رسائلُهم اتخذت شكلَ المواسم ... ثم آلت إلى انقطاع.. لم يعودوا يتذكروه/ لم يعد يتذكرهم.. كان تشرنقَ بمتطلباتِ بيتٍ وحفنة أولاد / نحنُ نعلّقُ بأردانه، ونُثقِل عليه رغبةَ تفكّر اللِحاق بالركب.. عَبثاً حاولَ الاستعاضة عن ثقلِ الفراغ ونأيهم بمقالاتٍ يبثُّها صفحات الجرائد أو المجلات؛ أو يدفن وجهه في بطون كتبٍ لم يمتلك الوقت زماناً لمطالعتها.].. النهارات المنكفئةُ نذيرةُ مفاجآت عتيدة. أستيقظُ على واحدةٍ منها فتنبئني بخبر غيابه مسافراً على موجةِ قهرٍ عاتية... تهاجمنا جيوش الكوابيس فنمحوها بالتجلّد ؛ مستبدلين لونَ الرماد بأطياف الأملُ؛ متمنطقين عزيمةً تفحم المشاعر صهيلاً يحرقُ الشساعات؛ ولكن لحين... نعم لحين يتبدَّد خطفاً فنبصرهُ مُقاداً مع مداراتِ الأقمار الضائعة ... شمسُ السعادة التي كان يقطفها ويرميها تحت أقدامِنا نتبيّنها الآن تذوي وتنطفئ ... يغيب ولا مَن يملأ فراغَ القلب/ يحضر ولا من ذاكرةٍ صحيّة تمسك بوجهِه القادم خلل ضباب التفكّر ...؛؛ لم تجد أمّي غضاضةً من سفره المرة الأولى . كانت تمنّي النفس برفيف أشذاء تعرّش متداخلة مع أكاليل مطامح قادمة؛ لا سيما ورسائلُهُ ظلّت تفضي فحواها شطر مرافئ، وفنارات تمنح الأمنَ هبةً للنهايات وتنتشل الجميعَ من سفينةٍ كان سيغرقها الحصار... لا غرو من التضحية – استمرت تقول – بعامٍ أو عامين فراقاً وألماً إنْ ستغدق النتائج صباحات يسيرة سابرة .

تتذكّر أنها قبلَ أعوامٍ كانت تلحُّ عليه للسفر وتغيير الحال، لكنّها كانت تُجابَه باحتقانِ الوجه والرفض المختصر بإعلانه: " السفرُ يقود إلى جادّات الضياع، وقد يقودَك أنتِ على وجه الخصوص إلى الندم ".. آ... الآن بعدما حلّ عندنا لشهرين معاوداً مهمة الرحيل لاشكَّ أنّها تستذكر الردَّ العنيف الذي لم تفقههُ حينذاك.. أتراها نادمة ؟ ... مسكينةٌ أمّي!!..أمدُّ يدي في عمقِ الجارور فتصطدم كفّي بسخريةِ الفراغ ... أنهض، وإليها أخطو ... متقرفصةً أجدها؛ يسندها الحائطُ تحاور الصمتَ بمفرداتِ الشرود ....،، منذ سفرهِ وهي تتصرّف بارتباك. إذا كلّمناها تصرخ بعصبيةٍ تفضح يقينَ الفراق وزوالَ حلم اللقاء.. هي الآن تختلف عن أمّي التي بدا وجهُها قرصَ فرحٍ يشعُّ ونحن ننتظر قدوم الساعات[6] المتبقية لبهجة الاحتضان واللقيا... كثافةُ الألم هي؛ هي التي تكدّست بين رموشها لحظةَ طرقَ الباب وهرعنا بعد طولِ الرقصِ على لظى الانتظار...

كنا رسمنا عشراتِ الصور لهُ.. رأيناه في واحدة منها محمّر الطلعة/ رطيبَ القوام/ يرتدي فِخار الملابس وأزهاها / يعودُ أعواماً للوراء/ منتصباً/ شاباً جلا صدأ أعوام الحصار وتكلّسها/ يختزن قهقهات وضحكات مجلجلة تعبيراً عن أنس العودة...

عندما طُرِق الباب وهبَّ الجميع ، وسحب أسرعُنا المزلاج فوجئنا برجلٍ يرمي أنظارَنا بابتسامة باهتةٍ جهِدَ كثيراً لتجميلها بأصباغ عدم التكلّف كيما يجعلها فاتحةَ الاستقبال...؛؛ ولولا الصوت الذي تردّد صداه وطرق المسامع بألفةٍ لتجاهلنا الظن بأنّه أبونا.... اندفع أخوتي يقبّلونه بينما أنسحبُ أنا متخاذلةً من عُنف الصدمةِ.. أسمع كلماتِ أمّي الترحيبية تتهاوى مهشمةً بمطرقةِ عدم التصديق. وجهُها الذي كان قبلَ دقائقٍ قرصُ فرحٍ يستحيل دثارَ خيبة، وكومَ رمادٍ ثلجي...،،، ترفع رأسَها فأحصدُ أنا غماماتِ الانكسار.. ولكي تداري وضعها إزائي أسمعها تسألني إن كنتُ بحاجةٍ لشيء... حقّاً كنتُ مزدحمةً بضغطِ أسئلةٍ ترتدي هواجسَ تلحُّ على بوحِها لأرسو عند إجاباتٍ تُبرِّد حماء الروح.. لكنّي أُقمع عندما أُحاذي اللحظة الموشِكة...،، تهرب الذاكرةُ صوبَ مفارقَ نائيةٍ... أبتسم لها/ لأمّي [تبتسم لي وشمسُ الضحى تتسكّع بين بطاحِ الصحراء الغربية، حيث الباص يلفظنا بعد قطعه عشرين كيلومتراً نأياً عن المدينة؛ تاركاً إيّانا جوار مرتفعٍ ملحي/ رمادي يأخذ شكلَ كتلةٍ رغوية تنخرها الثقوب، وعارضة حديدية تنطق: (بحيرة ساوة).

نجد غيرَنا سبقنا.. جموعٌ وفيرة تتوزع الأماكن المحيطة.. نحمل ما جلبنا من بِسط وطعام وقوارير ماء..،، لم تكن الحربُ قد عرضت طيفاً من أطيافها البشعة بعد. كل ما نراه لوحات لقطائف طبيعة مخملية ناعمة، وحمائم بيض . أسرابها تصطفق/ تجمّل السماء... سنختار _ قالَ لنا _ مكاناً تضعون عنده أغراضكم ثم نبتدئ جولتنا.

بحرٌ صغير ذو قرار بائن ؛ واسماك شذرية أحجامها أصابع.. زَبَدٌ أصفر يطفو محاذياً حواف الملح المتكلّس... دجاج الماء أسود يعوم مبتعداً/ هارباً من خطى التحرك البشري.. عينا أبي تطيران إلى أفقِ البحيرة النائي.. قليلاً وتعودان تلاحقان سيحَ الرمال؛؛ واسمعه يفوه بتمتمةٍ: " من هنا مرّ المتنبي شاعرُ الطموح المنتهَك، والقلب المسافر أبداً.. " المتنبي؟! ".. أسألُه... " لم يكن يقر له قرار. ما أنْ يطأ أرضاً حتى يبرحها حين لا يؤكدها جمرةَ المطامح.. مثالُنا كان أنا والصِحاب.. نردِّدُ أشعارَه بعذوبةٍ تفوق مديات المتعة. "..أُحدق فيه ؛ أمدُّ يدي.. تسألني أمّي عن دعوى تكرار بحثي في عمق الجارور، فأختلقُ أعذاراً لنسيان أشياء أفتقدُها.. ،، لم يكن شريطُ الأقراصِ هناك؛ بَلْ هنا..

لصيق لهيب المشاعر (7).. أريكةٌ تضمّني.. بين يديّ كتابٌ أطالعه، وبين يديه شرودٌ سادر فيه/ محمول عليه. وبلحظةٍ أُذهَلُ لاكتساء ملامحِه شحوب مفاجئ وانكماش، نتاج ألمٍ جعله يسحب الجارور بحالةٍ تُفجّر الانتباه ساحباً شيئاً حاذرَ أن لا ألمحه.. اندفع خارجاً باتجاه المطبخ، ثم عاد غب لحظات. يتأملني بتفحص، محاولاً معرفة ما إذا كان أثار حفيظتي... أتظاهر بالقراءةِ وأتيه شكّاً... يطلعني الجارور بعد فسحةِ اختلاء على شريطِ دواء مهدئ لجنون الانفعالات فأمسِكُ أولى حصاد الغربة... ثم يستمر الجارور يقول: خذي... يضع بيدي مُفكرةً امتلأت معظم صفحاتها بحبرِ القلب وخفايا النفس.. أتفحَّصُها وأجهش/ أقرأها وأبكي... تبارزني كلماتُها الأخيرة بصارمِ المرارة/ تطعنني بالمعنى...

" أخشى أن أعود فتنشط جرثومةُ الاغتراب لتفتك بيقين العودة الناجزة إليهم!! أهلي وأحبتي . أخشى أن تسلبني غوايتُها قرارَ الحسم؛ ويدفعني الحصارُ لمعاودةِ السفر والرحيل!"

... آ.. أبي لن أدعكَ تسافر... كفّاي تتشبثان بأسفل بنطاله.. دموعي كالندى تتقاطر على وجه حذائه اللمّاع.. تمسك أمّي ذراعي كما لو كنت طفلةً... تسحبني!! بينما جباه أخوتي لافتات تفضح مرارة الآتي..

وسافر أبي !! بل رحلَ، يا أمّي . مارسي إذاً شحذَ الذاكرة؛ واحتفظي بما لديك من ذكرى.. نغِّمي مسمعَك بما تبقّى من صدى كلماته فلن ترينه بعد اليوم.. ولن تمتلئ عيناك بالقوام المهيب، ذلك أنني تتبعتُ الجرثومةَ تنشطر في دمه؛ وتتناسل... تنشطر وتتناسل؛ واللقيط/ الحصار عاماً بعد عامٍ يكبر ويتضخم؛ ملتهماً النهارات تلوَ المساءات؛ قاذفاً وجوهنا بهواجس لياليه العسيرة/ البغيضة/ الرعناء .

خريف 1996

قاع الشمس – اليمن

هوامش المفكّرة:

(1) الصفحة الأولى:

المفردات التي أحفرها على شغاف القلب بأزميل الاحتراق تهبني متعة اجترار هناءات سابقة ليس لي سواها ديدناً لوأد الأيام . الأيام تحبو ثقيلة كسلحفاة مهشمة الأذرع..أبغيها تنصرف فتجابهني بالعناد..

تتمدد ساعاتها وتستحيل خيوطاً أخطبوطية ماكرة.. من مدى تطلعّي/ من كمين دواخلي/ من شتى الأوقات أبصر تكسّرات الأفق تعكس جيوش الضباب، متكدِّسة تضاجع الرؤى الغائمة.

الذين تركتهم ورائي والمحيطين زورقُ يشقُّ عتمةَ غياهبٍ مجهولة رُغمَ أخبارهم الواردة والتي يجاهدون في جعلها تشيعُ باليسر!

(2) الصفحة الثانية:

هالهم البُشر، وأفزعتهم الضحكات. خطى صغارنا الطافية على الأمواج الرخيّة عكّرت لديهم صفو بغضهم.. شرعوا يّقيمون الذهولَ أسئلةً متبوعةً بالشِراك.. المكائدُ نثروا تفاصيلها حبكاً لبلوغ وحول الحصاد.. إختلقوا أذرعَ الفُرقِة عُذراً لغاياتهم، راسمين الغايات هدفاً لبدء الحصاد.. صنعوا الحرب من دهاء..،، الحربُ لديهم لعبة: أصابعُها حلوى دمار.. ابتسامتها أسنانُ شناعة ورعب مهول.. مهول!!

(3) الصفحة الخامسة:

المدينةُ صامتةُ!!...

الشارعُ نائم!!..

أوقِظةُ

بأرقي...

(4) الصفحة السادسة:

انكسار.. انكسار.. كلّ شيءٍ في انكسار..

أمس وأنا في محاولة الاستدارة تهاوت نظّارات القراءة.. أخبرني زجاجها المبعثر بسلامة الإطار... اليوم كان عليّ أن أغلق نافذتي الوحيدة المطلّةَ على شاطئ الكلمات، وأكتفي باستسلام لعيون الكتابة.

(5) الصفحة الثامنة:

نفر الصحاب وغابوا ممتطين جياد البحث.. فرحين اندفعوا يحرثون ثرى الشمس؛ ويعدّون منقبين مفاتن القمر.. الرؤى تتقدمهم مُلاحقة الأجرام الهاربة بغية الرسو عند موانئ فك إبهام جيوش الأسئلة العصيّة.. وأنتَ!!؛؛ أنتَ طفقت تهشم الأعوام وتغرز بيارق قناعتك على أرضٍ اكتشفتها بعد حين نديفَ رمل.. غاصت قدماك قبل أن تُثّبت شارة انتصارك.. صرت تحار: من أين تجيء باليقين المنقذ؟... الدروب خالية من العِثار... صرخت بشحنة القلب المتبددة: آآآآ.. فلم تزركَ غير قهقهات الصدى؛ في حين فوّهات المسامع المرتجاة تولّي عنك.. تصيخ السمع إلى جبهات تتناهى أفواهها نداءات، أنغامها لم تطبع خطى مسامعك على أديمها من قبل...،، تنّدت صرخةُ من قلب الشحنة: آآآ... غير أنّ المدى كان ينأى بينما كنتَ تعد أمتار السنين بتهالكٍ يفوق اللهاث.

(6) الصفحة العاشرة:

.....

.....

(7) الصفحة الثالثة عشرة:

أنامُله الجائسة جدار أعلى البطن أربكت الكيان، وشلّت الهيكل الممتد على سرير الفحص بألم خانق. صرخةً كتمها ثباته في محكٌ هكذا مواقفٍ... قال: " أشك، ولا لليقين من أشعّةٍ تكرس صدق الشك.".. نظرني باهتمام: أنت تُرهقُ نفسكَ فتدمَّر جسدك، تطيح بأعصابك فلا تمنحها مضماراً من النسيان." بتحديق نافذ في المربع الشفّاف الملتصق على جدار النيون الضوئي فاه: لا تجعل الماضي رَحى تطحن هنيهات هنائك فتحيلها آهات من اختراق حتماً سيلتهم سنينكَ اللاحقة.. حذارِ!!

القلب يوماً ما سيخذلك إنْ لم تتدارك الأمر... وإذا كان الإنذار قد جاء قرحةً معدية هذه المرة فالتنفيذ سيكون الفقدَ الكامل.. ارمِ الأحمال جانباً لأنكَ لست أولَ من تمادى في حملها ولن تكون أول الخاسرين... خذ كلامي تذكرةً لعبور مفازة القلق إلى جادة اللامبالاة... أعتمد هذا الدواء لتخفيف عنف الألم حيثما داهمك... ولا تنس.. بل إنس!!

==========

(*) فازت بالجائزة الأولى في مسابقة جعفر الخليلي لاتحاد أدباء النجف 2009

بَعدَ التحيّة *

رحيلاً عن الرحمِ الخصيب؛؛ ولوجاً إلى النفق المبتغى . بين ذاك وهذا عامان طويلان مَرّا.. عودتي بعدهما كانت صعوداً نحو الانكفاء/ انحداراً باتجاه السفح ... عامان تغيرت فيهما الأحوال بشكلٍ عجيب :

" الحال لا يُطاق .. إخوانُك على وشكِ الضياع ، تركوا الدراسةَ وتفرّقوا، لا يعيرون سمعاً لكلامي .. توسلاتي تؤجج فيهم هوسَ الابتعادِ عن البيت "

وتلطمني في آخر رسالة:

" آ ؛؛ يا ولدي: العائلاتُ تتمزَّق/ الحصارُ مقيت.. إننا مقبلون على كارثةٍ مهولة ! "، كنت أظنّها تضخّمَ الأمرَ، تفجرّه عذاباً وتفتتّاً يُشظيّ القلبَ ويبعثره، وكثيراً ما رددّتُ مع نفسي: هكذا هُنَّ النساء ! جَزوعاتٍ هلوعات... أتأسى على أمي .. أسألها: كيف قضيتم السنتين ؟!..

ينكمشُ وجهُها.. لا تجيب !.. استفهمها عن صديق اسمه " ناظم ":

– يا عيني !! على الدوام كان يتَّصل بنا يقول عنك أنكَ بمثابة أخيه.. لم نسمع عنه منذ شهور.

وأتذكّرُ رسالتَه الفيّاضة الأخيرة:

" صديقي كريم: أخشى أنْ يهجرني الشعر.. لا أُحسُّ بمذاق الأيام ، فكلُّ شيءٍ فيها غدا باهتاً وفجّاً يبعث على القيء. قد لا تجدني عندما تعود. "

وعدتُ ..

عُدتُ مُحملاً بشوقٍ هزيل، وضياعٍ قاهر ورغبةٍ مبتورة...

دخلتُ الزقاقَ مُفترِضاً ما أن يلمحني أطفالُ زقاقنا حتى يهرع بعضُهم يستقبلني، وبعضٌ إلى أميّ التي لا بد ستخرج دونَ عباءةٍ لفرطِ فرحها.. ستطلُّ رؤوسُ النساء عبر الأبواب شوقاً وترحاباً، أو فضولاً بما أنا عليه وبما أتيت.. لكنّ شيئاً من هذا لم يحدث.. لم يكنّ ثمة صبيةٌ؛ التهمتهم أشداقُ البيوت بينما الوقتُ ما يزال عصراً، ولحظاتُ الغروبِ لمّا تزل بعيدة.. لا واحدة من جاراتي تهجّست حضوري .

كانت طرقاتي على الباب واهنةً... زدتُها، وزدتها فلم أحظَ بردٍّ... اعتقدتُ أنْ لا أحد في الداخل... الصمتُ يغزو البيوت ، ويحتلها/ يخنقُ الضحكاتِ وترددات الأصوات التي كانت يوماً ما تسبح في غمارِ البهجة.. ضرباتُ أقدام متعثّرة تناهت كأنها قادمةٌ من غورٍ عميق،، قلبي ميَّزها سريعا، فصاح الذي داخلي: هي ذي أُمي .

لم أشاهد الأرائكَ الأربع التي تركتها إبّان سفري . واحدة لا غير، بدت كما لو كانت ليست لنا ولم أعتد الاستلقاء على فراشها المخملي طيلة أعوام وأنا أقرأ أشعار " كيتس " و" شيللي " و" بوشكين ".. رأيتُ كبرياءَ المتنبي ساقطاً تحتها مُعفراً بغبار الأرض . هموم " المعري " لم يُعرها أحدٌ ما بالاً،، رفعتها عناكبُ وعلّقتها مع جثثِ ذبابٍ تحتويها مملكةٌ أباح لها إهمالُ ساكني البيت التوسّعَ لتأخذ مدىً يبتدئ من طرف زاوية الغرفة الأيمن، أعلى الشباك الوحيد، حتى الزاوية البعيدة . خمسةُ أمتارٍ بالتمام ! أكبرُ مملكة عنكبوتية يفاخر بها هذا الزمن العتيد... جدرانُ غرفةِ الاستقبال خَلت إلاّ من

صورةِ أبي الذي خيّل إليّ أن عينيه المفتوحتين على كبرِهما تطلقان شرراً متشظياً يتبددُ بارداً كالثلج قبل وصوله إياي.. وهناك ! داخل غرفة أبي لم أتبيَّن سجّادةَ الحائط القطيفة تلك التي جلبتها أمّي من مكّة قبل عشرين عاماً، بل رطوبة تركت تكلّسات ملحية مُفتتة حلّت محلها (لقد فقدت أمي دليلاً رصيناً يؤكد كلامَها كلّما زارنا زائرٌ وشرعت تحدِّثه عن حجّها لبيت الله).. تنبهتُ إلى أنَّ الصحونَ الجميلةَ التي كانت محطَّ اعتزازِ أبي وحرصَه وكثيراً ما تلقّيتُ تعنيفه وأنا صغير بسبب لعبي القريب منها نُزعت مِن فوق الرفوف . لا شيء هناك إلاّ الفراغ الهامد:

– أينها ؟!

تصمت أمي؛ لا تجيب.. تكتمُ ألماً / تكابر/ تتكلّفُ في إخفاءِ دمعٍ يُفترض نزوله سيولاً دافقة، لا تريد فضحَ ضعفِها أمام أختي الواقفة إزائي ترقبُ نحولي وذهولي الطافحين... لا أقراط أبصرُها تتدلى من أذني أختي!... لا طلاء يصبغُ أظافرَها ؛ وثوبُها هو.. هو الذي كانت به يوم قبّلت جبهتي وداعاً !.. أين فاهم وكامل وقاسم ؟. عرفت أنهم خرجوا.. سمعتُ أمي رغمَ صوتها الخفيض تقول معاتبة : " أنت أهملتهم كثيراً فترة غيابك "..

أيامٌ ثقيلة انصرفت منذ مجيئي.. أعيشُ مهمّشاً ضئيلاً أبغي استعادةَ توازني المرتبك . أمّي جريح / أختي ذابلة / أخواني ممزَّقون، هجرتهم سحبُ الآمال الهاطلة.. لقد تسبّبتُ في إيلامِهم طيلةَ العامين...آه !!.

ذات ظهيرةٍ ساخنة، حيث جدرانُ غرفتي تضيقُ وتنحسر وصلتني نقراتٌ خفيفة على الباب.. وجهُ أختي يتسللُ عبر الشقِّ الطولي الذي راح يتّسع: " خذ ! ".. وسلمتني قصاصةَ ورقٍ قالت : مرّ عليك رجلٌ ترك لك هذه؛ قال من صديقِك " بشير ".. تلقّفتُها متلهِّفاً.. كيف تذكّرني؟!..

بلا تحيات، ولا مقدمات ولا إعلان شوق كتب:

"أنتظرك في مكتبي الساعة الخامسة عصراً، احتفظ لك بمفاجأة... لا تتأخر"..

ألا تكفّ عن مفاجأتِك السخيفة طالما ألقت بي عند مجسّاتٍ لا أتحرر منها إلاّ وأنا نادمٌ على مصاحبتك !!.. ماذا تخبئ هذه المرّة ؟!

ترددت صدى قهقهاته بعدما تلقّفني بالأحضان وسط مكتبهِ الفارِه.. عابَ عليَّ نحولي واصفراري.. نهض؛ وإلى سيارةِ صالونٍ سوداء حديثة قادني .. كم تغيّر هذا الـ " بشير " يبدو أشدَّ بدانة وترفاً / ينقل خطاه باتزانٍ؛ يتكلّف المسير..

– يا خائن الصحاب! أسبوع ولم أطرفُ على ذاكرتك ؟!.. يا لهوسِكم شراذم الأدباء ؛ لولا رفقة الطفولة ما التقيتك، أنت الآن مثلي مليونير.

أطلقَ ضحكةً أخرى ، ثم :

– ذهبت أيامُ الجدلِ العقيم؛ ومفرداتُ التقدُّمية والحتمية كنتَ تصعق مسمعي بتردادِها بينما بنطلونَكَ مترباً بالياً، وقميصَك تثقلُه الأملاح.. ها هي حياةُ الترفِ تغمرُك فعش كما تشتهي..

ومرة أخرى صدمني بقهقهته الساخرة.. تغاضى عن غضبٍ تنامى مكتسحاً صدري/ فضحته عيناي كنتُ موشكا على الردِّ عندما دفع جسدَه الضخم داخل العربة:

– إلى أين؟!

– إلى المفاجأة...

أقدامُنا تضرب بلاطات السلم اللامعة تأخذُنا إلى طابق خلّفنا تحته طابقين لعمارةٍ دشّن أول شققِها نزيلٌ أعزب قبل أسابيع..

لحظةَ سحبَ المزلاج ودفعَ باب الصاج البني الصقيل ذا العين السحرية داهمتني دفقات من التضاؤل وشعور باختلالِ التوازن ووجدتني أتهاوى على دركاتِ الحيرة: أثاثٌ يملا الصالة ويضيق/ جدرانٌ باهرة الطلاء/ سقفٌ يُدلي ثرياتٍ حليبية المصابيح.. لمسَ زرَّ الكهرباء فتناثرت بغتةً حزمُ أنوارٍ ضاجّة غرقت بفيضها الموجودات [معظم الأشياء بدت مستعملة.. تنافرت ألوانُها وحداثةُ صنعِها]..أرائك متواضعة، أفرشتها مخملية.. لا أدري لماذا شبّه لي أنها الأرائكُ التي باعتها أمي.. وقبل أن يسألني: ما رأيك ؟ " عاجلته: " من أين لك هذه ؟! ".. ابتسم/ لم يفهم كلامي.. قال: أنك لم تطّلع بعد على ما هيأت...

أدخلني غرفةً بسريرٍ عريض قوائمه برونزية بهتت التماعاتها، تقابله مرآة بيضوية يحيطها إطار ألمنيوم صقيل؛ تجاورها خزانة ملابس خشبها صاج أسود.. قال: "هنا سيكون مسرحُ المفاجأة.. تعال واسترح "..

دخل غرفة صغيرة، وعاد حاملاً أقداحَ وعلبة معدنية حوت مكعباتٌ ثلجية، ثم دخل ثانية.. سمعتُ صوته يسألني أي نوع من الشراب أود... "جن" أجاب على سؤاله.. " سيجلي صدأَ قلبك، ويعيد لأعصابك الواهنة جمرَها واشتعالَها ".. هل فقدتُ قدرتي على الرفض ؟..هل حفاوته الكبيرة بي أنستني الرد ؟.. هل الرغبة الدفينة لدخول عالمٍ ينتشلني بلوامسه المخدرة وينأى بي لساعاتٍ عن دائرة الكآبة التي تلبَّستني بهولِها القاتم ألجمتني ؟.. هل واحدة من هذه أم جميعها أعطته حقَّ الاختيار !..

حدثني عن دروبٍ سلكها، وتصرفاتٍ أدّاها، وقناعاتٍ نمت وترسخت متباهياً بقدرته على جعل اسمه يُحسب من عِداد التجّار النادرين داخل السوق.. قال: " إنّ جمع الثروة لا يحتاج سوى دهاء بسيط وغض طرف عمّا يحدث للآخرين فأيامُ الشدّة وصعابُ المواقف تُحتِّمُ على الإنسان إلاّ يُفكِّر إلاّ بنفسه يجب أن يتقدَّم المضمارَ دائماً وإلاّ سُحِق بأقدامِ من يسعون لتجاوزه ".. أنا أنصت؛؛ وبعد نهاية كل حديث يقول:" أنت الآن تمسك الأموالَ وتُدرك قيمتَها، إنَّ لها من الوزنِ ما يجعلك أثيرَ الأبصار ومحطَّ الاهتمام.".. وكلّما حاولت الاعتراض قاطعني بحديث آخر. [أنه يفهم كم أنا نقيض له].. " بالمالِ ستجد الأشياءَ ميسورة، تافهة أمامك "..

تغريدٌ متقطِّعٌ لبلبلٍ أطلقه صندوقٌ خشبي صغير له شكلُ كوخٍ أعلى الباب قطعَ كلامَه.

– مَن ؟!... سألته؛؛ ومبتسماً أجاب:

– المفاجأة..

تحتَ سنِّ السبع عشرة أو بحدودها مَن قالت: " مساء الخير " ودخلت... وجدته يسألها: أنتِ تأخرتِ!! " قدّمت اعتذاراً.

جميلةٌ بقوامها/ رهيفةٌ بهية؛ فستانُها الأزرق الداكن توشّيه التماعاتٌ من أحجارٍ ماسيّةٍ تقذفُ ألواناً متنافرة ولدّتها إشعاعاتُ الضوء الساقط من بؤرِ مصابيح الثريات... التماعاتٌ تتفجرّ على خطيّن متوازيين يلتقيانَ عند نقطةٍ بين النهدين ويندفعان متنافرين كلّ على جانب... يتبعثرُ بريقٌ بلوّري

مُكتسحاً انتصاب عنقِها ومساحة من قاع الحنك... رمت حقيبةً بلونِ الفستان على كرسيّ يحاذيه.. وكما لو أنها تحسَّست وجودي لأول مرّة شرعت تطالعني...

قدّمني إليها/ قدّمها لي.. رفع كأساً فارغة: " شاركينا ".. قليلاً؛ و" صديقي وضيفي. الحريقُ يلهبُ غابةَ روحه الساكنة، فكرّتُ بمن يطفئه فما وجدتُ أكفأ منكِ واقدر". ضحِكت.. كانت الضحكةُ كافية لاكتشافِ صفِّ أسنان ناصعة وشفتين ممتلئتين تنفرجان بشبقٍ يبعث على إضرام النار و إحراقِ مضارب الآخرين .. " أنهض صديقي."

مالَ عليَّ، وهامساً قال: "ستنسى عالمَك الصحراوي الأجرد وبراريَك الشاسعة وستجوس وجوداً هو الحلم الذي تتمنى.."

بيدِها أغلقت بابَ الغرفة ووقفَت أمام المرآة،، ولأول مرّة أقف إزاء سلّةَ وردٍ ومحيط عاطر تغذّيه أشذاء ، وأرائج ، وغوايات..اقتربتُ منها/مددتُ يدي/ استدارت.. وبلمحةٍ صارت تلتصقُ بجسدي ..وبذات اللحظة . يا عادل . طفقت عيناي تغرزان شبقاً حارقاً بمنابت العينين السوداوين.. ما لبث أنْ تبددَّ بغتةً لحظةَ انتفضتُ مرعوباً . قد لا تُصدق . نظراتُها بدت كأنها ليست غريبةً عليَّ/ قسماتُ الوجه كما لو أني لم أبصرها قبل قليل؛ أرجعتني لاستشفافِ ملامحَ مألوفة لديّ.. مألوفة جداً...أتراه السائل الأثيري لعبَ برأسي فاستدعى تخيلاتٍ وزرعَ أوهاماً؛ أم أنا بمواجهةِ مخلوقةٍ أعرفها حقاً ؟..هذه النظرات/الرموش/ خط الأنف/ جمرة الفَم/ جميعاً اعرفها، ولكن لمن ؟!.. ذُهِلت وهي تتملّىّ جمودي....ألا ترغب ؟!".. لم أجب..."ألستَ واحداً منهم؟!".. لا ادري كيف تفوهتْ محتجّاً: "كلاّ..كلاّ".. ولا ادري كيف تفجّر فضولي سؤالاً سكب لوماً وعتاباً، واحتراقاً:

- لماذا تهرقين هذا الجمال على صخرةٍ عَفنِهم؟!..

الوجهُ النضر/ المُشع أفلَ سريعاً.. العينان الوسيعتان تكدّرتا، تطاطأ الرأس؛ ووجدتني أخرجُ كالمجنون وسط حيرة بشير والسؤال هذياناً يتفكك من فمي: اعرفها! ولكن منَ تكون؟.. نعم، اعرفها!!"..

ليومين متتالين أقبعُ مقموعاً، صامتًا وسط غرفتي، لا أبارحها.. وطوال الليلتين كانت أمّي يقظةً تتفقّه بحدسِ الأمومةِ ضياعي ووحدتي. (وحدهن الأمهات يمتلكن حاسةً مشتركة مع الفلذات.) ..أسمعُ حفيفَ ثوبِها الطويل يقترب.. أخالها تلصق إذنَها على خشبِ الباب تتسمَّع أنفاسي،، تتحرَّق للدخول عليّ.. أتنحنح فيسرع الحفيف مبتعداً.... وجهُ ناظم يقتحم خلوتي. يداهمني إحساس كاوٍ وسؤال يغلفّه الاستغراب: لماذا لم يزرني؟!.. لابد إذاً من زيارته. " تلتهمُنا الأيام يا " كريم "، يُغرقنا وعاؤها البركاني في قيئه الناري .. أبخرتُها ترفعنا باتجاه دركات التقهقر "... عليَّ الذهاب إلى مقهى حسن باشاً سأجده هناك حتماً.

التخوتُ فارغةٌ . يا عادل . الروّاد قليلون . المقهى التي كانت تأتلق وجوداً تشكو عِجافَها الآن .. وجوهُ الرفقةِ المألوفة تلاشوا كالدخان..صدى الابتسامات/همس العيون/ترف الملابس/ رهافة السير، جميعاً تبددّت: ليس إلا " أبو نوال "... تندّت نظراته:

- أين أنتَ؟

- هات لي شاياً .. أين الآخرون؟.

- أنت الذي فزت.

– كيف؟! أتحسب غربتي عن الوطن فوزاً؟!

– لا أقصد ذلك إنّما بقاؤك كان لغيرِ صالحك.. أصحابُك ما عادوا يقدرون على شراءِ علبة سجائر.. صاروا يبتاعونها فرطاً تصوّر، يوماً ما اقترحوا.. قالوا: لا داعي للخروج والشراء من السوق؛ قم أنت ببيعنا... أنا فرحت... جننت.. أحرزتُ الربح الوفير.. أنت تعرف الأدباءَ وهوسَ التدخين لديهم... لا أخفيك؛ امتلأت جيوبي، ولكن لأيام معدودات راحوا بعدها يستعيضون عن النقد بالفقد فطفقوا يمتصون ما تحويه جيوبي حتى طالوا أخيراً أجرة عملي.

– وناظم؛ ألم يأت هنا؟!

– ناظم؟!... " توقف ليتذكر "... ها؛ منذ ستة أشهر ولم يطأ عتبة المقهى.

. وكيف ألتقيه؟

– هو جاري... بيتهم لا يبعد كثيراً . وبحسرةٍ . يا للناس باعوا بيتهم الكبير واستأجروا آخر. مسكين ناظم لازم البيت ولم يعُد يخرج. لا أعرف ما حصل له.

" قد لا تجدني عندما تعود ". مدويةً صعقت مسمعي.

. ماذا ؟!!..

كانت شهقتي كافيةً لتراجع الرجل واستغرابه... كادت كفّه تلفظ أقداحَ الشاي.. السائلُ الساخن كوى لساني وحلقي وأنا أدفعه بلا شعور.. " خذني إليه ".

– ناظم... أيها الحبيب!

تهلّلَ الوجه... افترشته أجنحةُ الود وفرحةُ اللقاء... كنت أنتظر ترحيبه بالكلمات بيدَ أن لا صوت!.. إشاراتٌ مبهمة، وعينان ذبلتا سريعاً/ احتوتا حزن الوجود.. لحظات وانكفأ يمسك عوداً ينبش به بقعةً مترية.

– " هذا حالُه منذ أشهر... باءت محاولاتُنا لإخراجه من صمتِه وكمدِه بالفشل "... سمعتُ أمّه من ورائي تكلمني؛ تكتسحُ صدرَها عبرةٌ هادرة.

– كان إحساسُه بسوء حالتنا شديداً.. لقد أهمل كتبَه وبعثرها؛ مزّق أغلبَ أشعاره وأحرقَها..

سهمٌ ناري/ حارق اخترق أضلاعي وغرز نصلَه النافذَ وسطَ قلبي... هتفتُ:

– ناظم؛ ليتني ما جئت!!

أظهرتُ رزمةً نقدية من جيبي:

– انهض.. اشترِ لك بنطالاً وقميصاً؛ وما تحتاج وأرمِ هذه الأسمال... هذه النقودٌ عزلتها لك من هناك..

يرفع ناظمُ وجهَه/ يتأملني.. تضيقُ عيناه؛ تعجّان بدمعٍ ثقيل.. يزدادُ عبثَ عودِه بالتراب.

– انهض نذهب إلى مقهى حسن باشا، سنجد الأصدقاءَ إنهم لابد مشتاقون لسماعِ أشعارك.

– دعه، يا ولدي... أنه ..

وتقطعُ رجاءَ كلامِها طرقاتٌ متتالية على الباب.... عجزي عن إقناع ناظم دفعني إلى رفعِ رأسي لاستقبال تحيةٍ ناعمةٍ من صوتِ أجفلني، فإذا بي أمام فتاة تلبس فستاناً أزرق داكناً، توشّيه التماعاتُ أحجارٍ برقت في عيني وتعالت رؤوساً مدببةً لإطلاقات مصوَّبة بنفاذٍ باتجاه رأسي.

بهتَ الوجهُ الفتي، فيما احتدمت داخلي سنواتي، وذكرياتي،، واحتراق شبابي، وأشعار غربتي.

قفزت مذعوراً.. ورأيتني أندفعُ خارجاً إزاء ذهولِ أمّ ناظم ورعبها... وهناك على أديمِ الدرب تركت كفيّ... تتغلغلان في جيوبي/ تستلان حزمَ أوراقٍ ثم تنثرانها إلى فوق.. فوق؛ فيبعثرُها في الأرجاءِ المحيطة هواءٌ عابثٌ مجنون.

وها أنا أختم رسالتي إليك . يا عادل . ستعود يوماً... قد لا تجدني عندما تعود...

ملاحظة :

عادَ عادلُ هو الآخر فألفى صديقه " كريم " قابعاً في البيت، ينبش بعودٍ بقعةً متربة بينما أسمالٌ مُقرفة تسربله، وأمّاً تكتسح صدرَها عبرةٌ خانقة، تخاطبُ الزائرَ/ الصديق:
– هذا هو حاله منذ أشهر، لقد أهملَ نفسه، واحرقَ كتبه، ومزَّق أشعارَه ... كان إحساسُه بسوءِ حالتنا شديداً و...
وقطعَ نبرةُ كلامِها الحزين صوتُ طرقاتٍ متتاليةٍ على الباب ..

شباط / فبراير 1996
بلسن – اليمن

- **فازت بالجائزة الثانية بعد حجب الأولى بعنوان (رسائل وشجون) في مسابقة (الإبداع الثقافي الأولى) التي أقامتها مديرية النزاهة العامة – بغداد**

حالمون وعاقبة (*)

تبئير

جلس الكاتب كالمحارب الطعين ، يتأمل أوراقَه وما آلت إليه كلماته .. جلس يحصي عددَ الخيبات فلم يقدر .. ويحاول استعادَة ينابيع الهناء فتنفرط من بين أصابع ذاكرته يسيرةً لا تستحق العد .. كانت الأولى يوم

رأى أولَ نصٍّ له يأخذ حيّزاً في صحيفةٍ شهيرة . وثانية يوم أمسكَ بأول كتابٍ مطبوع يقرأ عليه أسمه... وثالثة عندما قرأت له فتاةٌ لا يعرفها شعراً من أشعارِه فأحسَّ بأنه مقروء ، وبأنَّ كلماتِه شاركت . ساعةً ما . وسادتَها لحظات النوم ... وما بعد ذلك بدت مواجيدُ الهناءِ باهتة تفتقد الطّعم ، وتخلو من الشذا .

جلس الكاتبُ كأنه سجينٌ قضى سنينَ طوالاً وراء القضبان . وإذْ قذفَ به خارجاً وجد ليس بالمستطاع التآلف مع المحيط ... رأى الفضاءَ الماثلَ غير السابق البعيد ، والدروب غير الدروب الأولى . وحين وضعَ قدماً ليرفع الأخرى ارتجت الأرضُ تحته ، وشقّت السماءَ بروقٌ متقاطِعة / متقطِّعة ما لبثت أنْ استحوذت عليها جملةُ رعودٍ فألغت مصطلحَ السكون من قاموسِ التكوين ... وجد الكاتبُ دواخلَه خواء ، و ذاكرته مهشَّمة فلقدُ سلِب كلَّ شيء ، ولم يتبقَّ له غير قلمٍ حين مدَّ كّفاً لاستخراجه من الجيب ألفاه بلا رأسٍ يكتب فيه .

جلس الكاتبُ مثلَ بدوي هربت جمالُه ، واندفعت لا تعير همّاً لهشّة ولا تخاف عصاه ... كلماتُه تهرب ، ومحاولاتُه للقبض على فكرةٍ تبدو مضحكةً / معيبةً يخشى البوحَ بها.. أوراقُه التي يسعى للتدوين عليها تستحيل رماداً يتطاير ليهاجم عينيه الذابلتين.. يستعين بالخزين فلا يقبض سوى ركامٍ جهدت معاولُ الآخرين على هدمه ، وإزالة معالمه .

حيال ذلك وجدَ أنْ لا خيار له إلا الاستدارة تحركاً صوب وجهاتٍ بهيئة منافٍ ..

تلك هي عاقبةُ الحالمين .

الفضـــاء

(1)

تحت اقواسِ الفيء يتبدّى المثول .. الجدرانُ تقّدم إسنادَها للظهر المعترف . حتماً – بالإجهاد سعياً لكسبِ استرخاء مؤقت للساقين المكدَّسين بالإنهاك.. تلوحُ لنا العربةُ فنعرف إنّه هو ... هو !!.. نحثُّ بعضناً بعضاً لإدراكه.. يشيح بنظرِه نأياً عن هطولِ استفهاماتنا . نطالعُ حلكةَ البشرة مقارنةً مع ذلك الوجه المتورِّد . زمناً. نواكبُ انطفاء البريق من تينك العينين الثاقبتين .. نعتصر قلوبنا .. نراكمُ الرجاءات الخضيبة بالخيبة .. وننكفئ !!

(2)

حثيثةً / بهيجةً انهالت علينا تلكَ الأيام تغدق برفيفِ لحظاتِها شراباً عذباً يثملنا دفيقُ عطرِها الكاسح فنتوه أسراباً طائرين تحملُنا أجنحةُ الحلم المؤمَّل ... ومن هناك نلمحها : هي .. هي !! تضرب إسفلتَ الشارع بقدمين واثقتين وقامة تقرب حدودَ التحديّ فيما الشعرُ القهوي يساجلُ هبوبَ الأنسام ويروح الأثنان يمارسان زهوَ الطبيعة ... الوجوه المكتّظة على الجانبين تحفّز الأعين فتتطاير من الأفواه عباراتٌ منفلتةٌ تمجّد هذا الخلق الملائكي ... يتطلَّع هو كعادتِه، من مكانِه في المقهى .. نظراتُه تتفاوت عن نظراتِ الأخرين ، وهدوءُه يلغي تلكَ الجلبة المدوّمة / يزيحها جانباً (إنه يغوص في ثنايا الحلم رحيلاً باتجاه الصمت .. نسأل عنه فلم نتلقَّ رداً ... ثم متدثراً بمعطف الذهول . بعد أيام . يعود،، محملاً بالهمس و التأني .) وغب مرورِ مساءاتٍ عديدة يدعونا للتحلّق فننهضُ مندفعين، نتابع أصابَعه الدقيقةَ تلجُّ جيبَ قميصِه لتستخرج ورقةً سمّيناها في ما بعد (التميمة).. تنتقلُ مهمّةُ التتبع إلى شفتيه وهما تطردان وريقات تِبغٍ علقتْ ببللِ الرضاب .. لحظات من التنصُّتِ المهيمن والانتباه المركَّز نطير تحتَ سحرِ المفردات المقروءةِ شعراً إلى عالمٍ نراها فيه مخلوقةً ولهةً / لوعى ترتمي بين يديه تبغي رضاءه،، وهو الكتلةُ المتشربةُ بالحماسةِ والشعر يقدمّ روحَه أعوادَ كبريت تحترق، وأحجارَ بخورٍ تذوب ، فنهتفُ بجذلِ التمتع والاندهاش : ياه !!.. هل نحسدُكَ أم نُكبر فيكَ القوافي ؟! ويزدادُ تعلقُنا به .. وتزداد هي قصداً في تبعثره .. وفي أشهر معدوداتٍ صرنا نجمع ديواناً قدمنّا له رغبةً وسنداً لإ صداره فقدّم رفضاً مدافاً بإصرار.

بعد عام ...عامٍ واحدٍ أبعدته الأسباب عنّا وأعادته إلينا بخبر يقول : اصطادته شِباكُ الحرير/ تزوج .. لم تكن المفاجأةُ في الزواج بل في الزوجةِ التي إخطار... رأيناهما : هيَ وهو.. انموذجان فنتازيان/ عصفوران تبللاّ بفيضِ الحبور ،، منطلقان باتجاه سماءٍ بيضاء وألقٍ بهي ... سألناه : كيف حدثَ ذلك ؟! ... ضحكَ ، وقال : لهذا حكاية سيأتي سردُها لاحقاً .

(3)

لم تكن القاعاتُ تكتظ فحسب ؛ بل الممراتُ والفُسحُ الخارجية المنتهية بأبوابِ البنايات الرئيسية لكلِّ أمسيةٍ تُقام له ، وفي أيةِ مدينةٍ يُدعى إليها .. كان الصوتُ عذباً تشوبه بحّةٌ تضفي عليه شجناً آنَ التحليقِ ببساط الشعرِ السحري ... وحين ينتهي يمسك بصولجانِ السرد فيستحيل الجميعُ حضوراً مُنصتاً تنقلبُ ذائقتُه من الشجنِ والغرقِ في الرومانس إلى اغتراف تجربةٍ هي من الفرادةِ ما جعلَ الكثير منّا يمارس التقليدَ وصولاً الى الرضا (بعدَ الزواج صرنا نبصرها تشارك الحضورَ تواجدهم... الوجهُ القمري تحفّه هالةُ الشَّعر الهطول... يقرأ كأنه يوجِّه عطرَ الكلمات والجمل إشراقاتٍ لعينيها الملاحقتين حركة شفتيه، وارتفاعات يده وهبوطها مع موسيقى الأبيات ، لائذةً بأبوابِ خجلٍ طفولي بريء ، تفضحه حمرةُ وجنتين صافيتين وارتعاش رموشٍ نافذة .. كنّا نسميها (ألزا) ، وكان هو مجنونها (أراغون)... تسحرنا بساطتُه ؛ ويهيمن على دواخلِنا اعتداده.. ننهلُ من رصينِ التجارب ؛ ونأخذُ بسدادِ الرأي.. نجتمع إليه ونروحُ نلقي بأسئلةِ التلاميذ :

. أنت خزينُ الإبداع ، ومؤئلُ الخلق... في كلِّ ركنٍ من دوحةِ الأدب لك شجرةٌ تضجُّ بالثمار ، فلماذا التشهي والتشبث بثمارِ الشعر؟.!

يزرعُ ابتسامة سمِحةً يمنحها وجهُه المبتشر ، تاركاً للعينين مهمةَ استهلال الرد .. ثم تشرع الكلمات تنهال (نوتات) تقطِر عذوبةً ، وتؤلِّف نغماً .. نتيه بانسيابيةِ سِفره ، نسمع من خلالها أعماقَه تفوه:

. الشِّعرُ ، يا أصدقائي ، هو بوحُ الروح الاصدق ،، فيضُ الطبيعة الغنّاء.. منه استقي المخلوقُ كينونةَ الحلم ، وغاص في ماهيات الماحول طائراً على كفَّ الهيولي وصولاً الى تخوم مجرّات سلّمته مفاتيحَ المعرفةِ السحريةِ كإجابات لاستفهاماتٍ متماهيةٍ بغموض ، ومحتواة بتيه... في غوره تكمنُ منابتُ الخطر ، خالقاً ألوهية مستقلة ، لذلك حجّمته الرسائلُ السماوية وحذرت من مريديه.. ألم تسمعوا :" الشعراء يتبعهم الغاوون ، تراهم في كل وادٍ يهيمون."

بتنا نسمع شيئاً جديداً / مناقضاً لآراء أدمنّا سماعها من الكبار.. خفنا على أنفسِنا منه مثلما تناسل إعجابُنا به .. قلنا لو مضينا نسمع ونصدّق ذلك يعني اندفاعاً إمّا الى وجوديةٍ تلفُّنا بالضياع أو الى صوفيةٍ تنأى بنا عن ثرى الرضاءات... ورغم نأينا عن الرأيين إلاّ أننا سقطنا في بركةِ البلبلة ... صار الشعرُ سلوكاً يومياً لنا .. استحلنا . نحن . طاقاتٍ تضجُّ بالاحتدام ، ساعين بحثاً وتقصياً عن كلِّ ما هو جديد وغامض ، وغائم.. ما أنْ نسمع بشاعرٍ حتى نهبّ لقراءةِ تجربته، وهو من قريبٍ أو بعيد يشدُّ على رغبتِنا ، مُشيداً بنشداننا التقاط جوهرةِ التسامي.

(4)

شمسُ تموز ماحقة ؛ تلمُّ توهجاتها النارية من جوفِها المائج / نافثة إياها فحيحاً يلهب الطرقات ... السماء تعلن خجلَها للأرض والأشياء ؛ مواريةً زرقتها بمسوحٍ ضبابية تراها أنظار المارّة الشحيحين باهتة.. الحصارُ ينثر مجسّاتِه الأخطبوطية غب سنواتٍ تاركاً لمخالبه اقتناص موجاتِ هواءٍ متحرّرة من هيمنته فيما لمساته صارخة جارحة تغرزُ نواجذَها في تعرّجات الوجوه منتجةً شحوباً وخواءً فاضحين.

ذلك الدرب الذي انقبضت فيه نفوسُنا ، واعتصرت أمعاؤنا، وتجلّى خفقُ القلوب تلاطماً للمرأى نأياً عن التصديق / إصراراً على التأكّد حين صرخَ أحدُنا : تطلَّعوا هناك . مَن ترون ؟!

صبيٌّ تقطر براءةُ عينيه عشرةَ أعوام ، يلوذُ بشريطِ فيء حسير.. أمامه صندوقٌ كارتوني ، سطحُه يعرض بضعَ علب سجائر ؛ يتطلَّع بعين التوسل للمارّة الباحثين عن فُسحةِ ظلٍّ اتقاء نِصال السموم الحارقة ...

لم يكن المشهدُ غريباً إنّما العيون التي زحفت قليلاً هي ما فجّرت الدهشة .. شاهدناه واقفاً يحتمي بالفيء ، قريباً من الصبي / بعيداً عن التصور .. حسبنا وجودَه لغرضٍ يسير الزمن.. هممّنا بالتوجه نحوه تحيةً وسؤالاً عن انقطاع طويل .. غير أنَّ التوقّف المُريب والنظرات الناضحة أمراً أقرب الى الخجل هما اللذان تركانا نتوقف قليلاً لنتساءل ... شاهدناه يغدق نظراتٍ مرتبكةً تمسح قامةَ الصبي وأشياءه ؛ والصبي بين ثانية وأخرى يتطلّع إليه .. وعندما اقترب رجلان وانحنى احدهما لشراء علبةِ سجائر راح يدنو منهما ، مساعداً الصغير في

التعامل ... بابتعادِ الشخصين / الرجلين تقدّم الصغير وسط سرورٍ طاغ يسلّمه حفنةَ نقودٍ... حدّق أحدُنا وسطَ دهشٍ عميم سبقته صيحةٌ منفلته:

. أليس هذا إبنه البكر ؟!

لحظات وتفجّرَ الجواب صرخةَ إيجابٍ ...

تراجعنا !!.. ولعُظمِ ما رأينا قطعنا طريقَ العودة والتفرّق صامتين .. ذهولٌ كامد لا تخترقه سوى شتيمة اندفعنا نردُّدها لعنةً على الحصار .

(5)

اعتدنا لقاءَه .. يصحبنا لأزخرِ مكتبةٍ . نلجُها رغبةً في رضائِه / سعيًّا لاقتفاء خطواتِه .. نراقبُ اختياراته / نتابعُ الاستثناءات .. يدعونا للتفحّص والمطالعة ؛ يسألُ عن الجديد . دائما يسألُ عن الجديد . يُشير الى كتابٍ ؛ يقول : عليكم باقتنائه.. والى آخرٍ يحذّرنا من فحواه .. ودائماً ؛ دائماً يقول:

ـ إياكم والسقوط تحت سطوةِ قراءةٍ واحدة ، أو تقمّص مؤلِفٍ واحد ... تأثروا ولكن لاتقلّدوا ولا تتقولبوا. فالاثنان خسارةٌ يكلّفانكم السمعةَ والابداع .

نلفّ' الدروبَ محتفينَ برفقته .. تغمرُنا المباهاةُ ، وتُشعرنا بزهوٍ نُحسَد عليه.. يقودنا لمقهانا متَّخذين الركنَ المعتاد .. هناك يدعونا لعرضِ ما أنتجنا .. ننطلقُ ؛ نُسمِعه مغترفاً بالأذن الصاغية/ المرهفة... شيئاً ويستحيلُ اللقاءُ جلسةَ حوارٍ ،، مَشغلاً يُهذّب النفوسَ مُغدِقاً عليها نثيثاً من مودةٍ وابتهاج. يتناول ما يُرضيه من نتاجاتنا . أيام ونفاجأ بها منشورةً في صحيفةٍ أو مجلة .

مرةً قرأنا له :(تأملات) منشورة ؛ هي بمثابةِ خطاب مليء بلمساتِ الغزل ، ومسوحِ المشاعر الصوفية ؛ يتماهى في التوجّه لامرأةٍ ضبابية / كونية أو لنفسٍ يسعى لأن تكون من العذوبة ما تشتهي كشهدٍ الى الأبد .

أطريناه عند القراءة .. احتفينا بالثَّمَل الذي جَذَّلَ قلوبَنا ... قلنا :

. لقد أسرَتنا رهافةُ المشاعر، وأسكرتنا الكلمات!!

رسم ابتسامة بسعة نافذة قبل ان يفوه:

. مثلما أسرَتها ... كانت هذه التأملات هي الرسالة التي بعثتها إليها قبل عام،، وهي التي أيضاً نقلت الشمسَ من مدارٍ لآخر... لم أكن أتوقع أن بوحاً بحجم ورقة دفتر سيفجِّر لديها عالماً تُحيله صفحاتٍ طويلةً من ردٍّ ذُهلتُ لقوّةِ أسلوبه وصدق فحواه.. قلتُ في سرّي : هذه كاتبه لا تخضع لقوانين الفصول؛ ولا يجب انْ تهرسها مخالبُ الظل .... تلك كانت فاتحة اللقاءات البعيدة ؛ خلالها اكتشفتُ شغفَها بنتاجاتي ؛ تتابعها بتواصلٍ .. تصوروا سمعتُ منها كأني أسمع من مبدعةٍ طار اسمها خارج حدودِ بعدنا الجغرافي المقيَّد.. صرتُ ألتقيها.. أقرأ لها.. تحاورني/ أغرق في غيومِ مفرداتها بينما هطولُ شعرِها وهواءُ عطرِها يرحلان بي .. أتدثَّرُ برموشِ أجفانها وانامُ منتشياً بثَملِ الأحلام المنفتحة ... كدتُ أقع أنا المسحور بكلِّ تفاصيلها في حومةِ الهلوسةِ والارتباك لولا الكلمات المغموسة بالتلعثم ، تلك التي نثرتها قائلاً : أجد أنَّ كلينا يحمل بذرةَ النمو في أرضِ الآخر فما قناعتُك لو عقدنا اتفاقاً روحياً لزرعهما ؟!

كانت عيناها إ تسعتا، ثم انفرجت الشفتان .. وبدلاً من أنْ أسمع رفضاً أو تردداً أو حتى طلبَ تأجيل ، جاءني الرد:

. هل تراني أستحِقّكَ ، أم هو المزاح ترشقني به؟!...

شُبِّه لي أنّ السماء احتضنت غيوماً بيضاً تهاجمها حزمٌ ضوئية لها بهاءٌ ذهبي .. تمثَّلت الشمسُ مبتسمةً تطايرت لها رغواتٌ ناصعة ، ما لبث أنْ هطلَ حبورٌ سحري ، وهمس متقطِّراً كأنه الدُّعابات ... همسٌ لم أترجم ذبذباته. فهتفت: (كيف ؟! .. كيف أمزح مع نارٍ هي دفئي وأمانيِّ إنْ نأت عني فتكت بي سكاكينُ الصقيع!!) . واقترنّا !!.. خشيت يا أصدقائي أن يترك تعلّق أحدُنا بالآخر برزخاً يعيق اللقاء بكم.

وكان للخشية ما يحقّقها فعلاً.. إذْ تضاءلت اللقاءات . وإنْ حفلنا بها فلزمنٍ قصير .. قصير جداً . لا يكاد يجلس ليرتشف قدحَ شاي أو فنجان قهوةٍ حتى يهبُّ مُستميحاً، مقدماً لهفةَ العودة الى البيت ... مقابل ذلك كانت كتاباتُه تزداد غزارةً ؛ والنشرُ يتشعَّب . وإذا التقيناه ونثرنا بوجهِه فراشاتِ العتاب أطلق قهقهةَ الوَد ، قائلاً :

. لكم الحق! لكني أتابع نتاجاتِكم المنشورةَ باهتمام .. لقد أصبحتم كُتّاباً ، لا حاجة لعصاً تتكئون عليها بعد الآن ... أنتم الآن أشجارٌ باسقة في بستانِ الإبداع .

(6)

استُدعيت الحربُ فأعطت النتائج .

تراكمَ الحصار فترمَّلت المدينة ، غارقةً في طوفانِ ركودٍ غائم مُشبَّع كتعبيرٍ عن تاريخٍ مُدوَّنٍ بجملةِ وقائع :

صباحاً : الحركةُ دبيبةٌ ، ملفوظةٌ من أزقّة تنام وتصحو على خدرٍ أزلي .. خدر عفن حشودٍ القُمامات وروائحَ مجاري المياه الثقيلة.. فضاءات تستفزُّها صرخاتُ أطفالٍ بخلت عليهم الأثداءُ الجفيفةُ بامتصاص رطيب/ بقطرةٍ بيضاء حسيرة/ بنغمةٍ تجدد حنان الأمهات.

ظهراً : ضجيجُ الحَماءِ يغرزُ وجودَه بصورة لفحٍ يوشِّم صفحات الوجوه/ مشهدُ أجسادٍ تستحمُّ بعرقٍ طافح / شواءٌ يكوي بواطنَ أقدامٍ نسيت حُلم ارتداء الأخفاف.

مساءاً : هجومُ الالآمِ مُجسَّدة بتأوهاتِ الأعضاء / مشاعرُ شقاءٍ حثيث يلتهمُ ما تبقى من هشيم الروح/ يعودون مكدّسين بالتعب. فقدوا التطلع .. كلُّ ما يرتجون حفنةَ أمانٍ منسي/ ذكرى نائية، مُعادة/ إغفاءة شارد ة تؤومهم فتتعطف عليهم بهناءةٍ ضنينةٍ ... ضنينة ...

(7)

في المقهى أبصرنا واحداً من الشلّة ،، يجلس منزوياً، تعوم فوقهُ سحابةٌ رمادية من دخانٍ متكاثف بينما العينان شاردتان لم يعدهما حضورُنا... تراكمت الأستفهامات ، واحتشدت الأنظار الحيرى تطوِّقه بامتعاضنا

وغضبنا.. هزّات الرأس والتململ المتكرر هيّجَ فضولنَا مُلقياً بنا فوق أشواكِ قلقٍ ساحق . عندما ضَّيقنا عليه دائرةَ الهرب وإضمار الأمر طفق يبوح :

ـ لقد رأيته اليوم !! لا يمكن أن يكون هكذا .. لا يجب أن ينتهي به الحال لهذا المشهد المرير...

صمتَ قليلاً .. رفع عينيه فارتفعت عيونُنا معه تتابع طعناتِ حربةِ البندقية تتَّجه بفضاضةٍ الى جهة البطن الظاهرة والصدر العاري فيما العينان المرتعبتان للأسير – المقيَّد بسلاسلٍ تشدُّها قبضات حفنة رجال أشدّاء ـ تلاحق إلتماعةَ النصل المتّجه بتحفّزٍ خارقٍ مدفوع بحقد متضرّج بكثافةٍ تعكسها قسمات وجه المهاجِم ... قطع الصمت والتطلع لصورة الجدار بنَفَسٍ عميق من سيجارته المخنوقة بين إصبعيه المتصلبّين قبل أنْ يُكمل :

– كان يقود عربةً تعرضُ خِضاراً ثم يقف مع صفٍّ عربات لبائعي خضار .. الإجهاد ينتهك جسده ، والعينان تسكبان خذلانا . عندما دنوتُ منه بادرني بتحيةٍ تخفي شقاءً ، تمنحه تمالكاً متكلفاً .. سألني عنكم ، عن النشاط والتواصل ، ولكن ببرود هذه المرّة !.. وحين أخبرته إننا ندفع ثمناً مُكلِفاً وباهضاً ؛ وأنَّ الخنجر يوغلُ في خواصرنا قال: هذا بعضُ من ثمن وجودِكم .. لا ديمومة تأخذ تواصلَها دون تضحيات.. لكنَّنا نفتقدك قُلت ؛ نروم إبداعَك يسقينا إكسيرَ البقاء ويضخ ممرات طاقتنا بدماء من فِكر ومفردات .... آ.. لمحتُ كفّه تشدُّ على قبضةِ العربة ، وأصابعه تضغطُ الخشب كما لو كانت تبغي تهشيمه .. طاطأ الرأس ورفعه : اسمع.. إن الكلمات لم تجلب لأولادي خبزاً ؛ الكتابةُ استحالت وبالاً وعائقاً لحياةٍ رمتها كثيراً تخطو هادئة ، مطمئنة ... نحن في حلبةِ ذئابٍ ، والمتفرجون شبقون سادّيون يستعذبون جراحَنا ، ويشدّون على أيدي مضطهدينا... احتشدت تلالُ غضب ، أو عنف ، أو انكسار ، أو بيان هزيمة تتكدَّس كما شبّه لي عند محفّات حدقتيه ... وفي غفلةٍ من التفكير والكلام المتوازن ، المتزّن صرخ بوجهي: لقد خسرتُ بعض الزبائن ... لاحقت عيناه بعضَ المتسوقين المتَّجهين لعرباتٍ تحاذيه... دوّامةٌ من جزع قاهر رعين طوحت بي .. افتقدت التوازن ؛ تجاوزتُ الزحامَ واللغطَ المُريع للباعةِ والمشترين ؛ مندفعاً لأقرب ركنٍ خلي أطلقُ لروحي مدياتِ الاحتراق ، ولعيني غزيرَ الدموع... تلك اللحظة أدركتُ أنَّ المعادلةَ مربكةٌ . واللعبة قاهرة ، قاهرة ، متقنة .

(8)

لابأس أنْ نطرقَ البابَ ، ولو على مضَضٍ ؛ فقد اتخذنا القرار .... وليكن . جاءنا الصوتُ قلِقاً ... عرفناه/ صوتها .. ولكن بارتباك تعلنه التهدُّجات.. وإذْ اطمأنت لمفرداتٍ لينّه فاهت بها صدورنا واربت الباب. وبالمواربة حصلت الصّدمةُ التي لم نحسبها.. صرخنا بصوت واحد: آآآآ...

وتحاورت عيونُنا المُنشدِهةُ بعبارةٍ لا ندري كيف أطلقناها سويّة : (ذهبَ الصفاء!) .. صفرةٌ صارخة تنضحها البشرةُ التي استبيحت بالكماشات لا تتوازى والأعوام المنفلتة توّاً عن الثلاثين... حتى الشَّعر الذي أخفته بشالٍ أوحله القِدمُ وبانت خصلاتٌ منه عكست جفافَه وأظهرت جلياً ملامحَ إهماله (ذلك الشَعرُ الضاجُّ بالحريّة والبهاء ! وتلك الخِصلة المتمرِّدة/ المتراقصة على وجنةٍ لميعةٍ تُعاندُ ساحةَ الجبهةِ البيضاء الصقيلة ، راميةً بقلوبنا المتعثرة ولهاً على أرصفة اللامبالاة إبغالاً في احتراقاتنا ، إين هما الان ؟!... عادت تلك الأيام تتهافت .. كنّا نكتب رسائلَ اللوعة وتقديم عروض الحب ، ثم تالياً نمزِّقُها انكفاءً بعدما تهاجمُنا مشاعرُ إننا

قطعاً لسنا الذين لنا حقُّ التقرّب من تخومِ اهتماماتها .. وعبثاً ، عبثاً إنْ نحن شرعنا بالمحاولة و..) آ.. ذهب الصَفاء!!

صُدِمَتْ هي الأخرى بوجودِنا إزاءها فلاذت خلفَ الباب تخفي قواماً ناحلاً /متهالكاً يستره ثوبٌ موشك على البلى. وكان علينا أن نُجبرها للدخول ، فالكلامُ وقوفاً لا يُرضي نزوعنا، ولا يحل إشكالات تراكمت تغمرُ أذهاننا.

أرهقنا صمتُ البيت ، وكبّلتنا حيرةُ خلوِّ غرفة الاستقبال من ما يشير لتسميتها بهذا الاسم .. دخلنا قلبَ الموضوع... وما جئنا لأجله عرفته . كان حكى لها ، لذلك جُلَّ ما فعلته هو أنْ قالت :

– بالنسبةِ إليه انتهى كلُّ شيء .. أيام طويلة في نفقٍ عتيم، وممارسات خارقة، عنيفة، ثم الخشية على ضياع الأولاد كافية لجعله يكفر بآلهةِ الكلمات ... إنَّ تواليات الحربِ اليومية التي تُمارس معه جرّاء قصيدةٍ يكتبها أو نصٍّ قرائي ينشره تركت صلابتَه تنضب ، وصمودَه يتهاوى.. تحطمت لديه جدرانُ المواجهةِ التي شيَّدها بقدرته التي كانت تدهشني . اكتشف أن آلتهم أقوى من خطوط مشاعره الدفاعية ، ولقلبه حدود مقدرة لا تقبل التجاوز . وإلاّ كانَ الانتحار رديفاً للخلاص. وإذا كان لم يحقِّق انتحاره الجسدي وتوقّف أنفاسه فظني أنه فعل ذلك بتوقّفه وهجره الكتابة.

صمتت لتقيس ـ كما يبدو ـ ضراوةَ ما سترميه في وجوهنا ، وحالة تقبلنا أو عدمه ؛لحظةً .. و:

ـ للحق أقول لكم . إنَّ ما اتخذه بادئ الأمر ظننته خطأً مدمِّراً لمبدعٍ خالق مثله .. ولكن يوماً إثر يوم تمثَّل لي صدقَ رؤيته وحسنَ قرار صنعه ، فالمعضلةُ هائلةٌ لا تقاوم كما كان يردد ، تحمل في جوفِها أسراراً مخيفةً . لهذا وضعتُ كفّي بكفّه واختتمنا المضمار.

لم تُبقِ لنا قولاً مُقنعاً ننشره على مسمعِها . وحتى ما تعلّلنا به وهممنا بطرحهِ تيقّنا أنها قد تسمعه كأي كلامٍ لن يعنيها ، ولن يوليه (هو) إهتماماً .

نهضنا مُلجَمين بكفِّ الخذلان/ منهزمين تلاحقنا كلماتٌ مهشمةٌ وأفكارٌ صارت من عِداد النكتةِ السَّمِجة ؛ يقينا ستثير امتعاض من يسمعها.

خرجنا بعد اتضاح حقيقةِ إننا نعيش دمارَ حصارين بقراراتٍ منفلتة، وتصميمات لمْ تُناقش ولم يُدع لهاً فرصةً التحاور . أعلن البعضُ مناّ الدخول الى دائرةِ المهزلة ، حيث اليوم التالي وجدناهم يدفعون عرباتِ خِضار ، واقفين جواره أو على مقربةٍ منه تعلو صيحاتُهم تنافس صيحاتِه المختلطة بدوّامة الهرجِ والمرج ... والغوغاء .

آب / اوغست 2000

زلّة – ليبيا

(*) فازت بالجائزة الاولى في مسابقة مؤسسة النور لعام 2009 .

زيد الشهيد

Ich Liebe Dich

إش ليبـه دش

قصص قصيرة

صدرت طبعتها الأولى عن (دار تراسيم) في بغداد عام **2008**

الفهرست

المقدمة
1- أبو طير
2- تضرُّعات واعدة
3- احبك Ich Liebe Dich
4- احتراقات صامتة
5- تحت غيمة النسيان
6- عبير الحلم
7- مساء الاحتراقات

تراسيم الذاكرة .. جغرافية الأنا

لكِ يا منازلَ في القلوبِ منازلُ أقفرتِ أنتِ وهُنَّ منكِ أواهِلُ

ثمّةَ ما يجيزُ للذاكرةِ افتضاض ضباب الأعوام لتمنح اللوعة الخبيئة في الأعماق شيئاً من الانسفاح على يباب العمر ..

ثمّةَ ما يدع الروح تتبارى من أجل ذكرى هاربة تكيننت يوماً عند شاطىء العمر الزاحف وصار القبض عليها كالاستلقاء على صدرِ حبيب رؤوم ، أو كالتبتل عند ربٍّ قال لا تنسوني .

وهو السرد يغدو أبجديةَ القلب في تسجيل بوحه فيتشكّل أيقونات خطابية تحكي خطى شخوص استلها السارد من دروب خلقه ودفع بها على تراتبية زمكانية لتحفل هذه الشخوص بالمصداقية لدى المتلقي ، وحينذاك يلجُّ هذا الأخير فضاءَ الحياة المُختلَقة فتبدو تلك الحياة كما لو كانت تمتلك مفاصل وجودها الحي ، الحق .

لقد ولدت نصوص هذه المجموعة مع ابتداءات وصولي إلى اليمن وعملي في سلك التدريس للفترة من 1994 إلى 1997 . فكان لصنعاء نصّان (عبير الحلم) و (مساء الاحتراقات) وقد كتبتهما خريف عام 1996 فيما توزعت النصوص الأخرى على ريف عمران . فقد تم التعاقد معي في نهاية عام 1994 لأول مرة وعينت في قرية (ذيبين) . وذيبين قريةٌ تقع بين جبلين شاهقين هما (كحل) و (الذروة) أهلها اصلاء كأهل اليمن جميعاً يتعطرون بتراب الطيبة ويرتدون غيوم البراءة . أول ما لفت انتباهي قبور دارسة تحتل تلاًّ ما زال يحتفظ بهويته القروية فعلمتُ غب السؤال أنها ليهود كانوا يقطنون معهم في القرية ويتقاسمون رزق الله بلا فارق ولا استعلاء ...

في ذيبين ولدت نصوص (تضرعات واعدة) و (إش ليبه دش) و (أبو طير) وقد جاءت على خلفية حكايات كان يلقيها على مسمعي زملائي المدرسون من القرية لعلَّ منهم صالح غابش وعلي شرامة وخالد حنش وعسكر وفضل ؛ وآخرون خانتني الذاكرة في استرجاع أسمائهم لكنَّ وجوهَهم السمحة وبسماتهم

المنفتحة لما تزل تتمثل أمامي الآن فكانت " حورية " في قصة (تضرعات واعدة) وهي شخصية متوهجة في ذاكرة أهالي ذيبين ؛ وكان " جبران " وهو طالب ثانوية كان من ضمن طلبة السادس الثانوي الذي أقدم جهدي الدراسي إليهم وقد وجدت أن يكون بطلاً لقصة (ICH LIEBE DICH) مع " لورا " الألمانية حيث ثلاث ممرضات ألمانيات كنَّ يعملن في مستوصف ذيبين الذي تقدم ألمانيا مساعداتها من الكادر الطبي والمختبري والدوائي ومزجت في القصة بين جبران و لورا ". ادخلتهما في حب وتركتهما يأخذان مداهما الإنساني بينما تركت للقراء والنقاد اكتشاف شفرة التمازج بين حضارتين وافرازات ونتائج هذا التمازج . وفي العام الدراسي الثاني 1995 انتقلت إلى قرية (بلسن) مسقط رأس مجاهد أبو شوارب نائب الرئيس اليمني علي عبد الله صالح . وهناك كتبت عدداً من القصص التي لم تضمّها المجموعة وضمّتها في ما بعد مجموعة (فضاءات التيه) التي صدرت في أسبانيا عام 2004 وكان منها قصص (بعد التحية) إلى جانب كتابة قصص قصيرة جداً مثل (غوايات) و(أمّهات) التي احتوتها مجموعة (حكايات عن الغرف المعلَّقة) الصادرة في عمّان عام 2003 . وفي العام 1996 وجدتُ نفسي في قرية (قاع الشمس) تلك التي كانت تفتقد إلى الكهرباء وتعيش في وهدةٍ ، طريقها ترابي يبعد بحدود عشرة كيلومتر عن الطريق المعبد ألذي يوصل إلى قضاء (عمران) . كان أهلُ القرية مزارعين مسالمين . وكان عليهم النهوض مبكراً إلى حقولهم لذا تراهم حالما تهرب لحظات الغروب يؤوبون إلى النوم مبكرين أيضاً فلا تبصر ضوءاً ينبعث من بيت أو لقاء يتم في درب. هناك كتبتُ قصّة (الجرثومة) وكنتُ أعني بها جرثومة الاغتراب ووضعت فيها اسم " منصور " وهو اسم أحد المدرسين اليمنيين الذين كانوا معي في المدرسة ... وبعد حضور مدرس بديل نُقلتُ من قرية (قاع الشمس) إلى قرية " ينور " الواقعة على الطريق المعبد . في تلك القرية التي كانت تضم مدرسة ذات بناء حديث شيَّدها أهل القرية بأموالهم الخاصة كتبت بعض القصص القصيرة جداً منها (تحت غيمة النسيان) التي تحتويها هذه المجموعة و (وقائع قروية) التي احتوتها مجموعة (حكايات عن الغرف المعلّقة) ومعها كتبت رواية (سبت يا ثلاثاء) التي صدرت عام 2007 عن دار أزمنة في عمّان . وفي هذه القرية كتبت أيضاً العديد من القراءات النقدية .

في اليمن ومنذ اليوم الأول لنزولي أرضها الكريمة استطعتُ بناء علاقات ودية مع أدبائها ومسؤولي الصفحات الثقافية لجرائدها . وكنت معتاداً على حضور الجلسات الثقافية في مقيل الروائي المرحوم زيد مطيع دماج والجلسات الأسبوعية الأدبية التي يقيمها الدكتور عبد العزيز المقالح في مركز الدراسات والبحوث الكائن في شارع بغداد مثلما كنتُ دائم التواصل مع أعضاء اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين بمقره الرئيس في " هايل " (لا أريد ذكرَ أسمائهم خشيةَ أن يهرب احدٌ من ذاكرتي فأشعر بالندم بعد ذلك ، لكن فقط سأسمي صديقي القاص محمد الغربي عمران ممثلاً عنهم) .. كانت الجلسات تبعث على الحميمية وتتعالى مع تعالي مفعول القات الذي كنّا نقضمه على إيقاع أحاديثنا المتبادلة التي تنتهي بالرحيل الذهني كلٌّ إلى وجهةٍ تشغله ، وأمرٍ استدعته الذاكرة للتحاور .

لقد طال تأخُر صدور هذا النوع من الافضاء القصصي في كِتاب ، وهي محنة كبيرة نعانيها نحن الكتّاب . محنةٌ لسنا المتسببين في خلقها ورميها على قارعة العدم ؛ لكننا نبقى ننوء بحمل تتبِّعاتها ؛ فهل ستبقى كواهلنا قادرة على حمل هذه المسؤولية والسير بها في درب الصبر الناضب ؟

السماوة

2007/9/1

على ذرى ذيبين

عبرَ عطفات الخيال
حيث شرانقُ الفيض الصوفي
ذيبين تغرقُ برذاذ الشمس
وجبلُ " الذروة " عطوفاً يلاحق نشوتَها
وعلى صخرة " أبو طير " جلسنا .
ننثر الرغبةَ عيوناً على أسرفة العنب .
رحيلاً ، بحيرات الأرض المحروثة توّاً
خيالاً ، عرانيص الذرة ..
وجوهٌ طرية
تعتمر قبعةَ الذهب ، المصفّد ..
جلسنا :
برك الماء الخضر / صومعة الجامع الوحيد /
ماعز يلاحق السفوح ؛ يتابع الكلأ .
عين الله فوق ذيبين الغارقة في خثرةِ
ظلالٍ حلمية ..

هل كنّا نحلم .. يا ذيبين ؟

نيسان 1995
ذيبين – اليمن

أبو طيـــــــــر

على سقسقةِ عصفورٍ ، أو تغريدِ عندليبٍ ، أو نواحِ فاختةٍ تخلّى عنه الكرى فوجد نفسه منهكاً ، واعضاءه مفككّة . تغمر فمَهُ مرارةٌ بطعم العلقم . آ .. أين أنا ؟! (في غرفةٍ فارغة إلا من سرير يرتمي عليه ، وأرض جرداء بلا بساط ، ونافذتين تطلاّن على وادٍ بعيد) .. آ ..تذكر أنّه قضى وقتاً طويلاً من الليل يئن من ألمٍ انتهزَ فرصة تعبه فراح يغرز نصاله على كلِّ شبرٍ من جسده ، وينزل فتكاً وتجبّراً ، متلذذاً في ما يطلقه من تأوهات .. وتذكَّر أنَّ الطريق كان حجرياً ، ووعراً ، ومتعثراً ؛ وسائق كثير الكلام نقله من مدينة " عمران " إلى " ذيبين " دون أن يلجم لسانه دقيقةً واحدة (السائقُ مُعجبٌ بكون زبونه مدرساً جديداً شاء الحظُّ وجرّةُ قلمِ واضعِ الملاك أن يكون في هذه القرية التي قال عنها محدثه : " مكمن الأسرار ، فكن حذِراً في تعاملك مع أهلها ، يا أستاذ ! " .. لم ينفع رجاء الأستاذ في تسلّم مفتاح هذا السر من السائق الذي اكتفى بالقول : " ستذهب إليهم وتكتشفهم بنفسك ! ") .

تلك هي ذيبين من بعيد ...

وركّز بصرهُ : بضعةُ بؤر ضوئية متماوجة ومتناثرة . ذلك هو إذاً المكان الذي سيغدو مستقره وبدء عمله (ذيبين : القرية التي اختارت بيوتاتها على قمّة تلال متجاورة) أول ما طالعه فيها شبح قامة ناهضة كأنها قوام زنجي عملاق يرتدي ثوباً رمادياً ، تحتل أعلى نقطة في هذا المرتفع .... القمر يشيع بضوئه الفضي على الوديان والتلال ، وما يعلوهما من جبال . إلا إنه لم يتبيّن ذلك الهيكل المتعالي جيداً . قال السائق : هذه منارةُ الجامع الرئيسي الوحيد فيها ؛ ومن ذلك الموقع ستكون نقطة شروع بحثك ونهايته في ذات الوقت .

****

الطَّرقاتُ الخفيفةُ على البابِ هي التي انتشلته من استرجاعه إحداث الليلة الفائتة . نهض ، فإذا به أمام رجلٍ يتمنطق حزاماً يتوسطه خنجرٌ معقوف . قصيرُ القامة / أسمرُ الوجه / له عينان سوداوان شرعتا تتفحصانه .

– " أنا فرحان ، عاملُ المدرسة . جئت أسألك إنْ كنت في حاجة إلى شيء ".. ودخل بعفويةِ رجال القرى :

– هنا الحمام – وأشار بيده إلى بابٍ مغلق – وهنا المطبخ ، فيه ما تحتاجه من لوازمِ الطبخ ... مديرُ المدرسة سيأتي بعد قليل . لقد أوصلنا له الخبر أمس حالَ وصولك ...

وخطا خارجاً ...

ما أن عاد إلى سريرِهِ وجلس حتى عادَ الصوتُ الذي ظنَّه سقسقةَ عصفورٍ أو تغريدَ عندليبٍ أو نواحَ فاختةٍ . عاد كرّةً أخرى يشيعُ في الأرجاء .. أحسَّه ينفذ عبر النافذتين والباب التي تركها فرحان مواربةً .. نهض يروم الخروج من الغرفة فواجهته شجرةُ دوم . قال ربما يكون الصوتُ آتٍ من طيرٍ يتّخذ أحدَ أغصانها إطلالة على المكان ، ولكنْ لا شيء . فالصوت يملأُ الفضاء . أتراه يسمعُ حقاً أم هو بقايا خيالاتٍ عالقة في رأسه جرّاء تلك الليلة الثقيلة / البطيئة !!..

كان في حاجة إلى فرحان كي يسأله ، بيد أنَّ الرجلَ لم يعُد ثانيةً .

****

ضحكت الأزهار المتفتحة على روض وجوههم وكشفت فيوضُ عيونِهم النقية ألقَ الدهشة وهي تلاحقه / تتملَّى ملامح وجهه / طول قامته / ملابسه الحضرية . يركِّزون سمعهم على مخارج الكلمات المندفعة من فمه . وإذ يسألهم يصرفون وقتاً قبل الإجابة كأنه ينطق لغةً أخرى تستدعي الفهم أولا ثم الرد . ذلك ما اضطره إلى النطق بعربية فصيحة :

_ ما هذا ؟ .. وأشار إلى خنجرٍ وحزام يشد خصر تلميذ .

_ جمبية ، يا أستاذ .

_ وهذا ؟ ...وأشار إلى كوفية تعتمرها أغلب الرؤوس .

_ سماط ، يا أستاذ .

_ وهذا ؟ .. وأومئ إلى خرقة قماش مشجرة تهبط من الوسط حتى القدمين .

_ فوطة ، يا أستاذ .

_ وما أسمك ، يا أستاذ ؟ .. هتف به تلميذ تدفَّقت على وجهه قسماتُ الشجاعة .

_ زكي .. وجئتكم من العراق .

تعالت في فضاء الصف زغاريد النظرات ، والتقت الوجوه السمر تتهامس .

_ أنت أول عراقي يصلنا ، يا أستاذ . اعتدنا المدرسين المصريين والسودانيين .

الصمتُ سرقَ فسحةً يمنحها للنظر . العيون العاجّة بالبراءة والشغف استقبلت دعوةَ المتابعة فتفتَّحت بصورةٍ أشد وراحت تلاحق حركته بينهم . منهم مَن طفق يتمتم باسمه ؛ ومنهم مَن مدَّ كفّاً يتحسس بأصابعه النحيلة ملابسه وآخرون يتملّون قامته فبدا كما لو كان هابطاً من كوكبٍ بعيد سمعوا به ولم يروه .

****

لعدّةِ أيامٍ ظلَ الصوت يتكرر ، مبتدئاً من لحظات الفجر الأولى حتى الصباح . وإذْ أطلق الأستاذ أسئلته قيل له : ما تسمعه حقيقة . ذلك قادمٌ من الطير الذي يعتلي ذروة منارة الجامع . بإمكانك الذهاب إلى هناك .

وذهب (ينقل خطوه على منعرج طريق هو مزيج من ترابٍ وحجر ، تمتد على جانبيه بيوت متفرقة تعلو على تراكمات أحجار مكعبة كبيرة تتخلله كوىً مستطيلة وأخرى نوافذ يؤطرها ألمنيوم براق يعكس حداثة بعض البيوت المشيدة . قادته خطاه إلى ساحةٍ مستطيلة تلاصقت فيها دكاكين واطئة الواجهات ، وتقابلت _ إنّه السوق ، ومن ساحته كانت منارة الجامع منتصبة بلونها الحجري المجلي بأعوام القرون وتراكمها . رفع رأسه يحدّق في قمتها) .. شاهده هناك .. " طيرٌ مغزلي الجسم بحجم طائر نورس ورشاقته . يبدو ثابتاً ومستقرّاً . نظراته مصوبة إلى جبل عرف في ما بعد أن اسمه " كحل " ؛ وشاهد أيضا الطير وقد تغير اتجاه نظرته فيكون رأسه قد استدار ليواجه الجبل الشرقي ، في الاتجاه الأقصى ، المعاكس .

_ هل رأيتَ المرقد على يمينك وأنتَ تدخل ؟ .. سأله شيخ الجامع .

_ نعم ؛ وأبهرني فيه الصاج المزخرف ، المؤطر بآياتٍ قرآنية تجلّى فيها الخط الكوفي باهراً .

_ هذا مقامٌ لرجلٍ تقي نذر نفسه لخدمة دينه . قدِمَ إلى هنا قبل تسعة قرون . أول شيءٍ فعله هو بناؤه هذا الجامع ؛ وكان أبوه قد بنى جامعاً آخر في ظفار ؛ هناك (وأشار إلى قممٍ جبالٍ عالية شمالاً) ستزوره يوماً ما . كلّفَ نفسه مشقة خدمة الناس وكثيراً ما كان يصعد ويهبط إلى جبل ظفار يقدّم الموعظة والمشورة لمن يطلبهما ..آآ !

اتسعت حدقتا الأستاذ . ظنَّ الرجلَ يشكو ألماً ، فكانَ على وشكِ أن يسأله عندما عادَ الشيخُ يواصل الحديث :

_ في ليلةٍ تحاورت فيها أذنابُ الشيطان وتراقصت لحدثٍ سيكون لها يدٌ فيه . نالت منه العيون الذئبية فلاحقته حتى أحدثت الكارثة .

عن أية كارثة يتحدث هذا الشيخ ؟ وما الذي يرمي إليه ؟ بدا كلُّ شيءٍ مبهماً وغامضاً لدى المستمع . وكان على وشك أن يُبلِغ المتحدث بعدم فهمِ ما يقول عندما واصل :

_ " تضرج ، يا ولدي الجسدُ الطاهر بسيفِ الغدر . قتلوه ! ظلت الجثة على الأرض لعدة أيامٍ . لا أحد يدنو منها . وعندما عزمَ نفرٌ من المارّة على حمله وانتشالها فوجئوا بتشبثها والتصاقها في الأرض . ذلك ما جعل

الناس في حيرةٍ واستغراب . زاد هذا المشهد من عظمته وعظُمَ حنقُ الناس على قاتليه؛ إلى أن حضرَ بعضٌ من أهل ذيبين . دنو منه ثم امتدت أياديهم فرفعته بخفة طير . كان راضياً عنهم / راغباً بهم . حملوه ودفنوه إلى جانب هذه الأرض التي شيدها جامعاً ... منذ ذلك اليوم صار قبرُهُ مزاراً واسماً يُتَبارك به بينما وقف الطيرُ الذي تشاهده الآن فوقَ المنارة منذ يوم دفنه . قيل أنه في اللحظة التي صعدت روحه قتيلةً شوهد هذا الطير الصائت لأول مرةٍ على صخرة بيضاء يطلق صوتاً متواصلاً . فتارةً تسمعه سقسقةِ عصفور ، وتارةً تغريد عندليب . "

صمتَ قليلاً ؛ وبدا كأنه يسترجع أشياءَ تبددت في ذاكرته فسعى الآن إلى إعادتها ؛ ثم :

_ إلاّ مرةً واحدة . أقصد زمناً لا ندري كم استمر ، لكنه ليس بطويل فوجئ الناس بغياب الطير واحتلال غراب أسود مكانه .

ماجت الحيرة في عين الأستاذ . والاندهاش رسم ملامح غامضة . الشيخ المواصل حديثة اكتشف ذلك جلياً فلم يتعسَّر لديه الآمر . إنَّ كلَّ الذين حدثهم عن ذلك أظهروا تلك المسحة من الغرابة . لأنَّ ما يبوح به أقرب إلى الخيال . بيد أنَ البقاء في ذيبين لأيام سيزيل شيئاً فأشياءَ تأثيرات هذا الإبهام . وإذا كان الأستاذ الشاب يحتفظ بقصص غرائبية قرأها في مجلاتٍ أو صحفٍ وخزّنها في ذاكرته فليضِف هذه الحكاية إلى غيرها .

_ السلام عليكم .

وارتفعت العيون فأعقبها الرد :

_ اجلس يا حميد الباشا . قالها الشيخ . وعاد يواصل حديثه مشيراً إلى الجالس الجديد :

_ هذا الرجل له صوتُ في الشهادة على ما أحكي .

اقترب حميد حذِراً ؛ وبعينين يشوبهما حولٌ ظاهر طفقَ يتفحص الأستاذ .

_ اجلس يا حميد ! .. ألا تعرف . الأستاذ صار واحداً منّا .. اعذره ، يا أستاذ .

****

ها أنتَ ترى ذيبين قريةً تنأى عن طرق العابرين ؛ وقليلاً ما يطأ أرضها غريب . وإن حدث ذلك فلأيامٍ معدودات ثم يكون مآله الرحيل . السنوات الأربعون التي تراكمت وأثقلت كواهلنا وتركتنا نتعكّز على الذكرى التي هي الحد الفاصل في حكايتنا معك ... رجلٌ طويل القامة ، أحمر الوجه . له عينان زرقاوان . شعرُ رأسه وشاربيه ولحيته بلون الحنّاء قدم اليها . أظهر حسنَ معرفةٍ بالقرية ، وصلة قرابة . مدَّ يده مصافحاً متفوّهاً بأسمائهم . الوجوه طفحت بالود ، والرضا ، ورغبة وجوده . الصغار نالوا منه العطف ؛ والكبار حصدوا المساعدة . أغدق عليهم النصائح ، وأمدّهم بما جاء به من مال محفوظاً في أكياسٍ سميكة . قال : جئتكم لأسكن عندكم ؛ فقالوا : مرحباً . اتّخذ له مكاناً مجاوراً للجامع هذا . ونهوضه كان مبكِّراً يسبق أذان الفجر فيكنس أرضية الجامع وفناءه ، ويرشّهما بالماء . يفعلُ الشيء نفسه قبل أذان الظهر ومواعيد الصلوات الأخرى . سماءُ ذيبين زرقاء تتطلّع إليها العيون بانشراحٍ وبهجة تتراغى . الجميع عزا ذلك الصفاء لقدوم الرجل الودود . ترسخت قناعتهم به ، فأقرّوا ثُقاه وورعه . كتبَ لمرضاهم الدعاءات . قيل بعد حين أن الشفاء كان سريعاً . يمرر كفّه على بطون العواقر فانتفخت ، وقرأ أمام أعين الممسوسين والمسكونين بالجن فقيل

انتفضوا أصّحاء . " أيكون هذا مَلَكاً أم جنّياً يؤدي ما صعُبَ على الآخرين ؟ " .. هكذا تساءل الناس دهشين .

ضحك حميد الباشا .. ضحكَ من كل أعماقه ؛ وتوجّه إلى الرجل :

_ يا أستاذ !.. يا أستاذ أناس أعماهم الغباء .

_ دعني أكمل ، يا حميد .. دعني .

" سريعاً دخل القلوب . صار الحديث اليومي . حديث الناس البسطاء ، وما أكثرهم في ذيبين يُعاد ؛ ويُعاد .. لا أحد يمل الإعادة .

وفي الإعادة إضافة . والإضافة عند البسطاء تكبر وتكبر ؛ وقد تزيح مركز الحديث جانباً لتصبح هي الفحوى والمحتوى ... وفي يومٍ جاءهم هذا الرجل _ وأشار إلى حميد الباشا _ يبوح بسرٍّ يبعث على الذهول . قال : " وأنا في طريقي إلى بيتي تناهى إلى مسمعي حينما كنتُ أخطو جنبَ بيت الرجل صوتٌ غريب أثار فضولي ، فتوقفت عند الباب أتنصت . هالني ما سمعت !! سمعتُ أصواتاً كالتي تنبعث من جهاز راديو كانت تتردد . في البدء لم يساورني الشك ، إلا عندما صرتُ أسمع الرجل ينطق بكلمات غريبة بعيدة عن العربية ، كأنه يتكلم مع جهاز راديو ! " ..

هزَّ حميد الباشا رأسه تململاً كأنه يستعيد تلك الأيام .

" لا أطيل عليك ، يا أستاذ . فوجئ حميد بنبراتِ الاستهجانِ من قِبل الناس ؛ بل اتّهموه برغبةِ تشويهِ سمعة الرجل الطيب ، الوقور فانكمش كاتماً القَسَمَ الذي أطلقه لمرَّاتٍ بأنَّ ما قاله صادقٌ وليسَ من وساوسِ الشيطان . " .

" يجتمع الناسُ حولهُ فيّسمعهم جديد كلامٍ يبهرهم ، مؤججّاً خيالاتهم . رسمَ لهم ممالك وقلاع ؛ جنائنَ وفراديسً . انتقلت هذه إلى أحلامهم فعاشوا حياة الحلم الجميل ؛ يتوهون في مسالكه ؛ وتأخذهم دروبه إلى فناءات وفضاءات تستحيل فيها الأماني واقعاً ، والرغبات جواهر ملموسة يضمونها إلى أعطافهم ، ثم يخفونها في خزائنَ ؛ أبوابها من الصاج الموشَّم بأصابع النار ، وأقفالها فضّة تطعمها ياقوتات ملوَّنة ، وماسات براقة تفيض ضوءاً شذرياً مضبّباً . نسوا الأرضَ والزرع ، والعمل . وحتى الأولاد والزوجات نسوا . إذْ الأحلام أجمل ما يعيشون ، والرحيل خيالاً أبهج ما يرحلون ... إلى أن تكشَّفَت تلك الأحلام والتراحيل يوما ؛ وانجلت شعاعات الواقع بطلبٍ غريب رماه الرجل على طاولة أذهانهم . طلبٌ سحبهم من نواصي الحلم سحباً أخرقَ وعنيفاً ؛ سمعوا لتأثيره قرقعةَ سلاسلٍ خيّلَ إليهم أنّها تكبّل أيديهم وأرجلهم . كما سمعوا لفح سياطٍ على ظهورهم ، وأنّهم على غفلةٍ فوجئوا بأنفسهم في زنانين دهماء ؛ وصوتٌ آمرٌ يهتف : " أزيلوا مرقد الشيخ أحمد أبي طير . دمّروا هذا الجاثم على أرضية الجامع ." .. وجاء صوتهم وئيداً ، تغلّفهُ بحّة الدهشةِ بينما عيونهم تفشي نظراتٍ ذهيلة : " ماذا تقول ؟! " . فيأتيهم هتاف الاستهانة : " وما نفع وجوده ؟.. انقلوا الرفات وادفنوه في بطن الوادي ؟ " .. تفاقمت الحيرة في النفوس ، فردّدوا مبهوتين : " ماذا تقول ، يا رجل ؟! كيف نجرؤ فنزيل مَن هو بركتنا ، وشفيعنا ، وارثنا ؟! " ... حيال ذلك انقسم الناس وتجزؤا . منهم مَن وجد في الكلامِ حسن الإقناع ؛ ومنهم مَن أبدى تشكّكاً ورفضاً قاطعاً . " .

_ " ثق ، يا أستاذ .. ثق أنني عدتُ إليهم مرةً ومرات . " .. نطق حميد الباشا ناطّاً من صمته . " أقسمتُ لهم مؤكّداً أني سمعتُ أصواتاً غامضةً تبعثُ على الارتياب ، وأنَّ هذا الشيء حدثَ لمرّات عدّة .. نعم ؛ لمرات أسمعه ينطق مفرداتٍ غريبة لا أفهمها ..آآآه ، أغرقوا في الوحلِ كلماتي ومحاولاتي في تبصيرهم بحقيقته

المريبة .. احتقنت وجوههم واحمرّت عيونهم ؛ متّهمين إيّايَ بالكذب .. بكيت ! ثق ، يا أستاذ بكيت لوحدي . بكيت لأنني الصادق ، وهم الذين يفتعلون الطرَش فلا يسمعون . لم يتجرأ أحدٌ أن يصحبني لأسمِعُهُ ما يدور . ماذا تفعل ، يا أستاذ أمام موقفٍ كهذا . يكذّبونكَ وأنت الصادق .

_ اقتحم منزله ، واثبت مصداقيتك ! .. هتفَ الأستاذ وهو في حمّى إنصاته ؛ وقد أخذ منه الموضوع اهتماماً جادّاً .

_ أحسنت القول .. وهذا ما قررت فعله . لكني تراجعتُ فجأةً لحظةَ حسبتهم سيرجمونني ، أو يحلون سفك دمي إن أقدمت .

_ " فعلاً كانوا سيرجمونه آنذاك . ظنّوه يستغل انقسامهم ." . قالها الشيخ دعماً لكلامِ حميد . " كان يصيحُ فيهم أنتم أهلي وأحبتي ، وليس لي مصلحة في ذلك . ولكن ! .. لا أذن تصغي ، ولا اهتمام يولى . " .

الحديث يطول والوقت يمضي ويدنو من العاشرة ليلاً ؛ وأنوارُ الجامع ستنطفئ مع أنوار ذيبين بعد قليل ، فتغرق الموجودات في جوف ظلام عتي . من هنا يمكن اكتشاف مآب الناس في القرية إلى بيوتهم والاندساس في أحضان أفرشة ستقلهم في زوارق الكرى إلى مرافئ النوم العميق . لكنَّ الثلاثة هنا استمروا مجتمعين ، وراحلين بلا هوادة في دروب الذكرى ومنعطفاتها .

واستمر الشيخ في الحديث ؛ مؤثراً الاختصار :

– " توالت الأيام وجموع الموالين للغريب تزداد بينما يقل عدد الرافضين ... وذا يوم فوجئ الناس بزوال الطير الأبيض الفضي ، وهو ما أخبرتُكَ عنه في بدء حديثي . نعم ، زال من على هامة المنارة ؛ وصاروا يشاهدونَ غراباً فاحماً يدور بوقفته مستطلِعاً نواصي القرية وبيوتاتها بعينين محمَّرتين أرعبت صغار القرية ، وأدخلت الخوف إلى قلوب المسنين ، يذكّرهم بعيون الموت المختلس . بيدَ أنَّ الآخرين لم يبالوا إذ طمأنهم الرجل بعسل الكلام ، قائلاً : " أنه لا يبعث على القلق ، فسيذهب غُراب ليأتي عصفور ، وربما تليه فاختة ، وهكذا .. المهم تنفيذ ما طلبته منكم . "

نهض حميد الباشا مستأذناً ن خارجاً وقد طفحت في مقلتيه دمعتان جهِدَ أن لا يدعهما تسيحان على خديه .

رجاه الأستاذ أن يجلس حتى نهاية الحديث إلا أنَّ الشيخ قال : دعه ، أن الأمر ما يزال يؤلمه حتى يومنا هذا ، واستمع لآخر الحكاية فقد قاربت على الانتهاء ، والضوء سينطفئ بعد قليل . "

كان الأستاذ في أوج لهفته ، وفي حمّى انصاته . وكان الشيخ في قرار الإخبار ورغبة ختم الكلام ، لذلك وضع حدّاً للتفاصيل وصولاً إلى الذروة :

_ " وكان أن حُدِّدَ اليوم الذي سينهض ساعة فجره أهالي القرية ليدكوا بمعاولهم ومجارفهم وفؤوسهم المرقد والقبر ، وليزيلوا إلى الأبد وجوده الأبدي ... وفي الليلة التي صمموا في انتهائها على النهوض حدثَ شيٌ أقرب إلى الخيال . فقد نهض أحد الرجال المتحمسين من نومه فزعاً جراء حلم مثير تمثَّلَ فيه الشيخ أحمد أبو طير وسط هالة نور باهرة مرتدياً ثياباً بيضاء لكن قسمات وجهه كانت تفشي عتباً نطقهُ بكلمات دفيئة ، مُذكِّراً بطيب أفعاله التي قدمها إلى آبائهم وأجدادهم ، قائلاً أن من يدفعهم لهذا الفعل المشين إنما هو شيطان متلبس بلبوس الأتقياء . نفض الرجل الحلمَ من عينيه ونهض مرتدياً ملابسه ، وخارجاً إلى الشارع اندفع ؛ فإذا به يلتقي جاراً له . وجِلاً رآه ، يرتعش حدَّ الفزع .

– ما بك ؟!.. سأله مرتبكاً .

- مصيبة ، يا أخي !! .. هتفَ الرجل مرتعباً .

قليلاً وأبصرا جاراً لهما يخرج وقد كسا وجهه سيماءُ الخوف .. وغب لحظات امتلأت ساحة القرية بالناهضين من نومهم ، يلاحقهم الذهولُ والشَّده . وكانت المفاجأة أنَّ كلَّ واحدٍ أفشى للآخر بنفس الحلم وفحوى التفاصيل . وقتها سادَ القريةَ لغطٌ وهياج .. تراهم يسيرونَ ويتقاطعون ؛ يتوقفون ويندفعون . يبدون كما لو أنهم يودون التخلص من قيود تكبِّل وجودَهم وألسنتهم .. صوت ما فجّرَ في دواخلهم سؤال الصحو والاستفهام ، فتساءلوا هاتفين :

- أين الرجل الغريب ؟!

صوبَ بيتهِ انطلقوا !

وعند الباب توقفوا يطرقونه ، ويطرقون ، فلا يرد إلا الصمت . ولحظة اقتحموه بوغتوا بلا أثر له مثلما بوغتوا بحزم ورقية تلتهما نارٌ مشتعلة للتو ، وبعض أوراق متناثرة ومبعثرة امتلأت برموز وحروف غريبة جهلوا قراءتها .

صرخوا بصوتِ اكتشافهم لحقيقته :

- لنلحق به .. لا يجب أن يهرب .

الذين التقاهم الجمع الباحث في الطريق اسرّوا بما يثير الدهشة والاستغراب . قالوا أنهم أبصروا الرجل الوقور المَهيب ، الغريب بمظهر لا يأتي على البال قطعاً ! .. أبصروه متجرداً من ملابس التُّقى ومظاهر النقاء ، ومرتدياً بنطلون جينز وقميصاً تشابكت فيه ألوانٌ فائرة اتخذت شكل أفاعٍ ملتوية ومطوية ومتشابكة ؛ تصاحبهُ فتاةٌ شقراء صعدا سيارةَ جيب كانت متوارية في بيتٍ مهجور وانطلقاً باتجاه الشمال .

حين تداول المتعقبون الأمر وجدوا أن لا منفعة من الملاحقة ، فاستداروا عائدين . وبعودتهم أولَ ما واجههم هو هذا الصوت الذي سألتني عن سرّه ، يا أستاذ .. من يومها والطير يطلق صفيره المتواصل كأنّهُ يُذكِّر أهل ذيبين بضرورة التحسب والتوجّس من كلِّ داخلٍ غريب . "

كانون الثاني / يناير 1995

ذيبين

تضرُّعات واعدة

كتلة هلامية ذات تأجج فضّي برّاق تدنو زاحفة تدفع بها هامة جبلٍ شاهق يتخذ الشمال جهةً ، تشيعها شمس الضحى بدفقاتٍ من حبورٍ بهي . يزداد الألق ويتطعّم اللازورد بوشمٍ باعثٍ على التطلّع الطويل .. العينان اللتان تمولحت حدقتاهما تمتصان بمتابعةٍ دقيقةٍ هذا الزحف الجميل فتسترخي الغضون . تندُّ من بين الشفتين المزرقتين كلمات دعاء قصير " خيرُكَ يا رب " . تتساقط حبّات المسبحة بصوتٍ خافت وسط الهدوء الراكض مع أنسام نيسان الباردة . يتلوى جسد العجوز حوريّة (تنقل نظرها الكليل لتنثره على مفازات الأرض الراحلة بعيداً حتى شواخص الجبال المحيطة . الأسابيع التي مرّت جرداء عقيمة بأيامها ، لا بدَّ ستؤول إلى منتهى ، ولا بدَّ لبشير الأمل أن يلوح .. ها هي الكتلة الأولى تزحف إليهم ؛ تأتي كزائرة لهثت العيون بانتظار قدومها . تقترب مخلّفةً هامة الجبل ؛ طافيةً فوق أشرعة العنب وشجيرات القات ، وهياكل شجر الطلح والدوم المتناثرة هنا وهناك .. أيامٌ وستينعين أيتها الحشود المتعطِّشة .. صبراً ! صبرا !) . " ما خابَ مَن صبر . ما خاب قطعاً " . صدر الصوت موشّى باليقين من " حورية " . وحورية ليست لها أرضٌ تنتظر ، ولا زرعٌ يشكو . إنما الروح جُبلت على الحب للجميع والتضرع بالخير العميم لأهلِ قريتها ذيبين دون استثناء .(العيون الأخرى كانت تبصر هذا المشهد يتكرر . نعم ! الكثير من مثل هذه الكتل قدمت من قبل / مروراً فوق الرُبى والقرى ليسَ إلا . تنتهي عند الأفق الجنوبي ؛ هناك حيث سلسلة الجبال الجنوبية تمتصها ، ولا شيء ! لا شيء البتة ! . غير أنَّ اليقين لا يموت ؛ لا يمكن أن يموت . صحيح ظلَّ الجفاف مستمراً لثلاثة أعوام ؛ وها هو العام الرابع يدبُّ بأيامه البخيلة إلا أن للأمل بقايا . ما مات نبتُ إلا وخلَّفَ بذراً . النفوس الشابّة ملولةٌ بطبعها ، لكنَّ الكبار من أمثال حورية ما عرفوا لليأس منفذاً إلى إيمانهم .) .

مرّت ساعات الظهيرة كانت كتل الغيوم فيها تتوالى وتزداد ، ثم تتعدّى فضيَّةً فتعطي انطباعاً على أنها تجعل من فضاء القرية وأراضيها مروراً ليس غير .

قال البعض : لن يأتنا المطر . وعزوا ذلك لتخلّي الناس عن أداء واجبات مفروضة أقلّها الزكاة وإطعام ذوي القربى والمستحقين . بهرجة الحياة الدنيا تغيرهم آخذة بهم إلى مسالك العصيان . إذاً لن يأتنا المطر !!

وكانت حورية تردد على مسامع من يلتقونها عند دكّة باب بيتها الحجري ، الرابض عند منحدر جبل " الذروة " : لا تيأسوا من رحمته .

شوارع ذيبين المعدودات تمور بصبيةٍ ناحلين متربي الوجوه ، رثّي الملابس ، حفاة ، مشاكسين . اللعب لديهم أثمن متعةٍ . لا يفقهون ضيق الآباء وانقباض نفوس الأمهات . أنسام نيسان الباردة تزرقهم بزخم من طاقة متأججة فيعمدون إلى اللعب الممزوج بالصيحات النزقة ؛ يتبارون بإظهار قواهم فتراهم يتصارعون ، يرتمون على الارض المترية فتتعفّر وجوههم وملابسهم بمساحيق الغبار وسط صرخات أقرانهم المتحلقين .. وفي دربٍ آخر يتبارى آخرون بمبارزةٍ عدَّتُهم فيها " جنبيات " صغيرة أكلها الصدأ فعميت حتى غدت لا تذبح عصفوراً . هؤلاء الصبية يمرحون في اللحظة التي تطالعهم حورية من بعيد وبما تقدر من نظر . (من فيض حبورهم تُثار الكوامن ؛ تعود صور الأيام من بين طيّات الذكرى : الذهاب إلى بئر عثمان أسعد رحلة وأجمل سير _ هي واثنتان أو ثلاثة من القرينات _ يخطينَ بأقدامٍ حافية وملابس مشجّرة مهلهلة ، وسنوات تربو على الخمس عشرة ، يحملنَ قدوراً ويهبطنَ عبر دربٍ حجري تغزوه العثرات نحو البئر حذاء شجيرات الدوم الوارفة . يتحدّثنَ ويتحدثن . تتخلل الكلمات ضحكات : " ههه ..ههه .. وماذا ؟ " . حكايات يطبع أغلبها الحياء ؛ وكلمة العرس خاتمة لكل حديث أو بادئة لكل أمنية . هذه تتمنى يحيى ، وتلك تبغي ابن كريم ؛ والثالثة تقول لو صار لي ابن الشيباني سأعيش في جنة .. تتوالى الأمنيات والأحاديث تعاد يومياً . وقد تُستبدل الأسماء في اليوم التالي حسب الرغبات والأخيلة السائحة في الكوامن . بيد أن لا شيء من ذلك تحقق . فقد آل المآل بحورية أن تتزوج رجلاً عقيماً كان تزوج قبلها ولم يجد ما تمنى . ومرت السنوات لاهثة متعجلة حتى جف الرحم وتبددت نضارة الوجه الفتي . ثم مات الرجل . أماته ضغط كاسر تسبب به السكّري الذي لازمه لوقتٍ مديد ، مضافا له هموم الإحساس بعدم وجود مَن يخلفه يحفظ له إسماً فيما بقيت حورية تقطن البيت الوحيد الذي تركه لها .) .. تظهر الحشود بيضاء بهية . تتكاثف ثم تعبر . تنحسر مساحة اللازورد وتضيق لكنَّ الغيث في حقيقته بعيد ، بعيد المنال جفاءً .

لحظات غروب ذلك اليوم شرعت تتنامى ؛ تتغلغل طاردة قرصاً برتقالياً لم تبق منه سوى مسحات حمراء تلطخ خدود حشد الغمامات الراحلة غرباً . ثمّة الريح المتعالية يُسمع حفيفها خلل أغصان ووريقات الأشجار المبعثرة . آبَ المزارعون صوب قراهم ؛ وفتيات صغيرات عُدنَ بالماعز والأغنام من سفوح الجبال المحيطة ومنعطفاتها . النجوم طفقت تظهر صافية في رغوة السماء ؛ والمساء ككل المساءات العادية (هكذا هم يصرفون الليالي : صلوات ودعوات وثرثرة قصيرة يعقبها نوم مبكر ، يسبقهم فيها الصغار وقد أنهكتهم شقاوة اللعب وأعمال أُجبر بعضهم على أدائها مع آباءٍ لهم تتطلّبهم المزارع .) . وصرفت حورية ساعات طويلة من الليل تقرأ على ضوء فانوسها الشاحب آياتٍ من القرآن غير آبهةٍ لمضار ابتسار الضوء على نظرها الواهي . وبين حين وحين تترك أذنيها تلتقطان أصوات دمدمات بعيدة فتدرك أنَّ مطراً ربّما الآن يغازل بطاحاً تنتظر . ذلك جعلها تطيل القراءة ؛ تقرأ وتقرأ حتى اقتراب ساعة الغلس حيثُ بثّت اللحظات خدر غفوتها على العينين فذبلتا . مالَ الرأس على جانبٍ تبعه تراخي اليدين وانبساطهما بينما بانت بواكير ريحٍ تعلو في الخارج ، وتشتد . (إنَّ ذيبين تنام الآن في عتمة كاسحة قرينةً لسكون مطبق .) .

الأصوات الجماعية الهادرة هي التي انتشلت حورية من نومها ففوجئت بوضعها الغريب . تبيّنت القرآن ما زال مفتوحاً ، وذُبالة الفانوس تواصل بصيصها . أدهشها سماع هدير أصوات ، وتساءلت عن سرِّها . تنصَّتت فلم يبلغ أذنيها فهماً للكلمات . خطت ؛ وإلى الباب الخارجي توجّهت .

ثمّة جموع من صبية يتقدّمهم صالح بن غابش وعلى شرامة وناصر داجي (أشقياء ذيبين وعفاريتها) . وأمامهم أبصرت ما أسعدها وذكّرها تاركاً خيطين مائيين ينحدران على الوجنتين المجعدتين . ثورٌ هلالي القرنين ، تناثرت على جسده أصباغ فاقعة يبدو كأنه ارتدى ثوباً صوفياً . رأته يعدو (المشهد غائم لدى الثور . إنّهم يبهرجونه ، راكضين خلفه . حناجرهم تهتف بتآلف يقلل من خوفه ما يجعله يُبطىء في حركته .. الأصوات تعاجل حورية : يا حنّان .. يا منّان .. منَّ علينا بالأمطار .) . الصبيّات الصغيرات عمراً انضوينَ مع موج الأصوات ، وجعلنَ يركضنَ مع الحشد طافيات وسورات الدعاء ، عائمات فوقَ هديره . النسوة انتصبنَّ عند الأبواب يتمتمنَ فيما البعض يرفعنَ الأيدي والرؤوس نحو السماء دعاءً وتضرعاً ، والرجال مؤثرين مشهد الأبناء (الصبر يوشك على النفاذ ويكاد يطيح بايمانهم مهشّماً لديهم قناعةً حرصوا على حفظها كنزاً لن تقدر عظم النوائب على تحطيمه وافنائه . وأخيراً توجّهوا للقاء شيخ الجامع مُحل مشاكلهم ، ومعينهم على الصعاب . أطرق الرجل أمامهم طويلاً قبل أن يقول اذبحوا ثوراً فديةً علَّ الله يجود بخيره . خرجوا مندفعين . أمسكوا أقرب ثور صادفهم ؛ وإذْ قرّبوا نصل السكّين من نحره داهمه الفزع فنفر ، ثمَّ فرَّ هارباً . وكان للصبية دورٌ في ملاحقته بترداد دعاءٍ متوارث انتهى ببوادر غيث وفير روّى الزرع وأغرقه . ما زالت ذاكرتهم تنتعش باستعادة صورة ذلك السيل الفيّاض) .. وذُبِحَ الثور على نغمة ترديدات الدعاء الأزلي :" يا حنّان .. يا منّان .. منَّ علينا بالإمطار . " . وزِّعَ لحمه على البيوت . صار عشاءً تلك الليلة التي شهدتَ ريحاً وسحابات رمادية داكنة خلت من الماء .

استيقظوا صباحاً على سماء زرقاء جهّمت الوجوه وعفّرت الدواخل برماد الخيبة . وكانت حورية تطمّئن النساء ممَّن جلسنَ جوارها على دكّة البيت ساعات العصر حيث الرجال / أزواجهنَّ يستهلكون الوقت في تخزين القات وتبادل أحاديثَ يتخلل بعضها حديث المطر وطول الصبر وأمنيات بقدومه : " لا يجب ترك اليأس يداهم نفوسنا . أشعنَ الطمأنينة لدى أزواجَكُنَّ بأنَّ رحمة الله لا تنقطع . " .

الأيام تتوالى لاهثة ؛ شحبت فيها الوجوه واستكانت النفوس . راحت النباتات الصغيرة الضعيفة تميل على أرضٍ جافّة عطشى ؛ والوريقات تصفر وتذوي . على وجه حورية طفق الألم يعمل خطوطاً فينتج صفرةً جرّاء سهرها المتواصل الطويل _ تقرأ القرآن على صفحةٍ لتنتهي وقد ختمت الكثير من الآيات _ . وطرقت بابها مرةً فإذا بها أمام حفنة من الصبية يسألونها الرغبة في الذهاب إلى صخرة " مسعود " حيث الحنش يرابط هناك . (كنتُ صبيةً _ يا أولاد _ أصعد بمرافقة جدتي يوم يأتيها صِبيةٌ يكبرونني عمراً . أسير معها وهم خلفنا . جدّتي تحمل قدراً فيما هم يحملون أعواد حطب وكمية من دقيق ذرةٍ جلبوها من أهليهم . ترتقي جدتي الجبل ممسكةً بي فيلحقوننا . صخرة مسعود الهائلة نراها تجاور كهف صغير رأينا في زاويةٍ منه عيداناً وقطع خشبية محترقة . قالت جدتي هذه من أعوامٍ خلت .) . هاتوا عيدانكم ؛ لملموه وكوّموه هنا . أحاطته بثلاثة أحجار كبيرة ثبّتت فوقها القدر . قالت الحنش يختفي هنا ." . حدِّقوا وتفرّسوا في فتحة دائرية في عتمةٍ سوداء خيّلَ للصبية أنّه سيخرج فيبتلعهم . لقد سمعوا أنَّ الحنش يتّخذ من جوف الجبل الكبير مناماً له ؛ وأنّه لا يخرج إلا في أيامٍ معدودات . يخرج وفي بطنهِ جوهرةٌ بحجم قبضة اليد . ينصبها على هذه الصخرة المسطحة ويروح يزحف ويتلوى في البراري باحثاً عن طعامٍ يكفيه لأشهرَ ثم يعود على دلالة الجوهرة المثبَّتة

. والجوهرة إن سرقت سيظل الحنش الطريق إلى حجرهِ وسيهيم لا يفقه أين يذهب (تمنى كل مَن سمع الحكاية لو كانَ هو السارق لينعم بثراء بيعها .)

أوقدت الجدّة حورية النار تحت القدر فاشتعل الحطب . وضعت الدقيق ثم سكبت الماء وانهمكت تدور بالمحواش الذي تمسكه بينما التفَّ الصبية حولها ؛ تحكي لهم : " لا يأتي شيءٌ يا أولاد دون ما يقابله . لا يمكن الأخذ من الحياة ما لم تعطِ ؛ وهذا الحنش الضخم هو الوسيط الذي نبتغيه ليخاطب تلك الغيوم حتّى تحنَّ علينا فتمنحنا الغيث . لهذا نحن نعمل العصيدة هذه فنهبها له لأجلِ وساطته . ".

طفق القدر يسخن ، والدقيق استحال خليطاً ثخيناً أصوات متتالية تصدر :" بق .. بق " . ويد حورية تدور وتدور . يساعدها بين حينٍ وآخر كبير الجوقة صالح بن غابش ؛ يليه علي شرامة . حتى إذا أدركت انجازه حملت القدر من على النار وتركته يبرد . العيون تتابع الوجه المنكمش والعينين الخرزيتين . الدواخل تمور بخوفٍ يتنامى : " قد يظهر الحنش فترونه ؛ وقد لا يظهر . هذا راجع لرغبته . " . بعضهم تمنّى الظهور ، والبعض الآخر آثر العكس : " يا أبنائي . آباؤكم في حيرةٍ من أمرهم ؛ وأمر الله لا يحار فيه . إننا نفعل هذا لأجلهم . أغمضوا عيونكم لحظة أرمي العصيدة إليه ، فقد يضجره أن يبصره أحد . وقد ينتبه وهو يأكلها فيؤذينا جميعاً . " .. أسدلت العيون أجفانها فاختفت الحدقات . بيد أنَّ عيوناً في قراراتهم انفتحت . جعلت تدور باحثةً في دروب الغيب ومفازات الخيال . كيف يكون الحنش ؟ ما لونه ؛ وأي سعة يمكن لعينيه أن يكونا ؟ هل سيخرج فعلاً ؟ ... رسوا على السؤال الأخير . أغلبهم ساورته رغبة الاطّلاع . فتحوا فرادى العيون فشاهدوا العجوز حورية تكتّل بيدها كمية من العصيدة وترمي به خلل الفتحة المعتمة ، مردّدةً دعواتها برجاءٍ وتضرّعٍ راجيةً سعيه للإتيان بالمطر لآباء الصبية التعساء ؛ إذ بدون المطر سيفرقهم الجفاف ويتركهم يبرحون القرية وما حولها .

بانتهاء محتويات القدر دعتهم إلى فتح العيون . جلسوا يتحدّثون . يسألونها فتجيب . وحين دعتهم للنهوض والعودة كانت هنالك غيوم داكنة تقترب حجبت بعضاً من نور شمس العصر . ارتفعت الأبصار تلاحقها ثم تحولت إلى الجدّة حورية . كانت النظرات أكثر فهماً وتفسيراً من كلامٍ همّوا بإطلاقه فتردد لمسمعهم : " لا يأسَ من رحمة الله . " هكذا ؛ وغب ساعتين صارت ذيبين تتهادى بقلبٍ خافق تحت دكنة سحابات واطئة تبعث هديراً مدوّماً . تلك الغيوم تداخلت مع ظلمة المساء . الساعات استحالت فضاءً من بروق ورعود زرعت في قلوب الصبية يقيناً بوساطة الحنش ودعاء حورية بينما قلوب الآباء والأمهات تبتهل خاشعة . ترجو وتتضرع .

ولم تذق الجد' طعام العشاء بل شرعت تقرأ سوراً من الآي الحكيم على الضوء الوفير لفانوسها الذي نظّفت زجاجته جيداً ؛ موقنةً ومصممة على استمرار القراءة حتى لو بلغت الفجر . القلب يحتشد بطاقةٍ مفعمة بالأمل ؛ والروح يعج بإيمانٍ زاخر . (إنَّ إيمانها شفيف لم تمسسه شائبة . سنواتها المتراكمة قضتها مؤمنةً ، موقنة بالخير . تحنو على الصغار وتطمئن الكبار . النساء يقصدنها في جلّ مواقفهنَّ العسيرة ، ويخرجنَ بنفوس مطمئنة .) . شفرات البروق تخترق زجاجة نافذتها الصغيرة ؛ تعقبها أصوات الهدير الراعد . تشبّثت العينان بصفحات الكتاب القويم ؛ والقلب يصر على إيمانه ؛ بل يشتد . رشقت بضعة قطرات زجاج النافذة فإذا فضاءات الروح تتَّسع . تسللّت إلى دواخلها بهجة طفقت تتفاقم مثل رغوةٍ علت وكبرت فازداد تشبث النظر في الصفحات النيّرة . اشتدت الرشقات مستحيلةً ضربات عنيفة ، متواصلة . أدركت أنّه مطر متواصل وليس غيمة عابرة . السماء في الخارج تهمي مدراراً تغسل بيوتات ذيبين وتُماسِك غبار دروبها

الطحينية . الأنوار الضئيلة التي يبوح بها زجاج عيون أعماق البيوت ظلّت تلك الليلة مضاءةً . بالإمكان رؤية وجوه عبر محفّات الوقت تلاصق الزجاج لتراقب الخارج . أشجار القات وحشود شجيرات العنب والطلح ، وكذلك شجر الدوم ، الجميع شرع يستحم . (استحم الكل بماءٍ استعذبه بعد صبر مديد ، لكأنه ضوءٌ يمنحه الألق والفتوة .) . كلابُ المزارع والبيوت التي عوت لدى الرشقات الأولى صمتت الآن . لاذت في الزوايا والجحور اتقاءَ عنف المطر المنهمر وشدته .. لا حركة ؛ لا صوت يُسمعان في عموم القرية والأراضي المحيطة سوى صوت جريان ماء بوادره عند انحدار جبل " الذروة " . أعقبه صوتٌ آخر جنوب القرية حيث جبل " كحل " يدفع بأطنان الغيث الهاطل عليه صوب السهل المنحدر أسفله .

إذاً هي السيول ؛ حُلم أهل ذيبين وأمنيتهم . إنَّ حورية تسمعها اللحظة هادرة فتستحيل القراءة عندها إلى ترتيل يعلوا شكراً مسموعاً تبثّه في فضاء غرفتها الضيقة لتسمع أعداد الملائكة غير المرئيين حولها . السماء تجود بما حلمت ؛ والليل يبلغ منتصفه ، ويمر . طالت مراقبة الناس وانصاتهم له ؛ ووجدوا أنفسهم بانصراف الوقت يغفون . يسرقهم الكرى محلّقاً بهم في أحلام تحفّها البهجة رافّةً فوقهم أجنحةٌ لسعادةٍ مُفتقدة منذ أعوام .. لقد ناموا جميعاً ؛ إلا حورية . كانت ليلتها التي تمنّت ؛ فاستمرت تقرأ ، وتقرأ تواصلاً مع الخير العميم .

لحظة فتح الصبية عيونهم كان الصباح قد حلَّ بكلِّ زهوه ونضارته .نفض حلّة الغيوم الرمادية ؛ والشمس طردت بقايا كتلٍ بيض أمكن رؤيتها تبتعد . ولأنْ شوهدت قلائلَ فلجمالٍ تنشدهُ السماء وشماً لخديها .. وخرجَ الصبية ، تتبعهم الصبيّات تاركينَ القرية ، ومنحدرينَ صوبَ الوديان . الخرير يُسمع في أماكنَ عديدة . انتشروا جماعات ، جماعات مخترقين هذا الغدير أو ذاك . صالح ومَن معه ما كانوا يعيرونَ بالاً للأنسام الباردة المتهافتة في تيّاراتٍ طويلة . خلعوا الثياب واندفعوا يواجهون شلالات أوجدتها الانخفاضات العمودية للأرض .. سبحوا .. عاموا : هيه ..هيه.. هاها .. هاها .. كركرات متقطعة وفيض حبور دافق مع بهجة عاطرة . الجميع يترجمون عيداً بهيّاً لم يشهدوا لمساته منذ أعوامٍ خلت . وقف المزارعون عند أسرفة أعنابهم . لمعان عيونهم يعكس سعادةً فائقة ، وحب دفين للشجيرات الغضّة بينما وقف آخرون على أرضٍ بور تركوها في انتظار الأمل كي يحرثوا وينشروا بذار القمح والذرّة . نقلوا أبصارهم إلى حيث عصافير تتّخذ أماكنَ متفرقة بعيداً ، عند الحافّات المنداة . هنالك تدخل غاسلة أجسامها المغزلية ؛ نافضةً بقايا أتربة وعفر عالق بأرياشها . تحاكيها في مكانٍ ثانٍ يمامات اقتربنَ وشربنَ كممارسة أولى أو استطلاع قصي للأمان ، ثم تهادينَ نزقاً إلى الماء كفتياتٍ يافعات .

على أيةِ تلّةٍ من تلال ذيبين تواجهُكَ أكثر من لوحةٍ انطباعية تلتقطها الباصرة لتدفع بها إلى خزائن الذاكرة . هنا تتجلّى سخونة الألوان وبهاء الأنوار تشع من بؤرٍ شتى . هل التقطت العيون ذلكَ حقّاً ؟ ..هنا العيون البشرية يحقُّ لها التفوّه والبوح علناً بلا كلفةٍ أو مواربة . كذلك تفعل عيون الطيور وعيون غابات العنب ، وعيون الجبال الشواهق ، وعيون التلال المتفاوتة التي تبدو الآن كجزرٍ عائمة أو أرخبيلات في بحرِ مياهٍ لها لون الأرض ، وعيون الأغنام والأبقار والماعز الراكض باتجاه الروابي يكرع كما يحلو له من برك متناثرة ، ممتلكاً حركة لم يألفها . ومثل كل ذلك عيون الصبية الأكثر تشبعاً بالموجودات : هه .. هه .. هه .. هه . واغترف صالح حفنة ماء بكفّيه .

_ خُذ .. رماها بوجه علي الذي نطَّ اللحظة من جوف الماء .

_ ها .. ها ..

غافله علي ؛ وبكفيه :

_ خُذ هذه بدلها .

وكاد صالح يتلقى من ناصر أيضاً لولا نظرته الخاطفة . مال برأسه فجاءت الرشقة في وجه صبي خلفه . تعالت الضحكات . استمرت متفجرة . دفقات متواصلة . حبور وغبطة بلا حدود .... وبغتةً توقفوا . كأنَّ صوتاً دوّى في مسامعهم مرةً واحدة .

_ حورية !! ... هتفَ أكثر من صبي .

_ ماذا بها ؟

_ كيف نسيناها ؟ لا بدَّ أنها عاتبة علينا الآن .

_ آ .. صحيح . ماذا نفعل ؟

_ هيّا .. هيّا ؛ لنخرج . سنزورها ونعتذر .

تركوا البرك ؛ ومعهم دوّى نداء ردّدوه بالأمس : يا حنّان .. يا منّان ....

انظمَّ إليهم صحبٌ آخرون التقوهم في الطريق . ولجوا دروب القرية . خطاهم تتلاحق للوصول . على الوجوه قطرات رقراقة ؛ ومن شعورهم تنساب خيوط مائية نازلة على الأعناق . إنّهم غير آبهين لها . أصواتهم الجمعية وأداؤهم المتآلف أنساهم مهمة التجفيف .

خلّفوا الزقاق الأخير ؛ ووقفوا عند باب حورية . أدهشهم أنها مغلقة . طرقوا بضرباتٍ أقوى فووجِهوا بالصمت .

_ هل خرجت ؟! .. كلا .. كلا .. لو فعلت ذلك لتركت خبراً عند الجيران .. لنسأل الجيران إذاً .

سألوهم فلم يأتهم سوى الإبهام . دفعوا الباب دونما اتفاق . ندهوا وانتظروا . وإذْ لم يسمعوا ردّاً اندفعوا ، مرتقين درجات السلم صوب غرفتها التي وجدوا بابها موارباً ... صعقوا لحظة الوقوف على عتبتها . هالهم المشهد الغريب : حورية منكفئة على القرآن المفتوح ، مغمضة العينين ، مرتخية الشفتين . تتجلّى مسحةٌ من بقايا ابتسامة صافية كشفتها حزمة شمس الضحى المتسللة عبر النافذة الصغيرة منهالةً على الوجه الذي بدا أشد وداعة وأرق طلعة ، بينما خرير أمواه السيول دفّاقاً منغّماً سمعوه يتعالى في فضاء الغرفة وجنباتها ؛ طافياً مع شيءٍ لا مرئي حملته لوامس الهواء وراحت تطوف به فوق بيوتات ذيبين ، وروابيها ، وغدرانها .

مايس / مايو 1995

ذيبين

Ich Liebe Dich

ـ جبران .. ! .. جبران .. !!

ويقفزُ جبران كالملدوغ من مكانه الظليل تحت الدومة الوارفة حذاء الطريق الخارج من " ذيبين " . يتخذ الأرض الصاعدة نحو سفح الجبل راكضاً ، وأنا أهتف به : انتظر ، يا جبران .. انتظر ! .

الشمسُ دفيئة ، وظهيرةُ آب تشي بنسائم تؤكّد هيمنة الصيف .. آ.آ.. جبران ؛ لقد ذهبوا وخلّفوك . سرقوا طمأنينتك ورحيقَ تفتُّحِكَ . تركوك عيوناً باحثة ، ونظرات حيرى ، وعقلاً هو بقايا هشيم .

أتعرف يا قارئي " ذيبين " ؟

وهل سمعت عن جبران ؟

اسمان نحتّهما على صخرة بيضاء بارزة ، آليت في اختيارها أن تكون في الدرب الصاعد أو الهابط من " ظفار " بينما تركت فراغاً لأسمٍ ثالثٍ يجاورهما .. اسم صارَ طيفاً وحلماً مُنتَظَراً .

*** * ***

لم تكن " ذيبين " سوى قرية وديعة هادئة توسدت أكتافَ تلّةٍ وسيعة يحرسها جبلا " كحل " و " الذروة " . ولم يكن جبران سوى تلميذاً في المدرسة الثانوية الوحيدة . يأتيها في الصباح مَشياً ، قاطعاً درباً تختلطُ فيه الحجارة مع الترابِ الطحيني ، تترامى على جانبيه سهوبٌ خضر تبدو فيها غابات " القات " متسيّدة كأنّها تُعلن تفوّقَها على كلِّ زرعٍ شقَّ الأرض وخرج للدُنى .(دائماً يؤثرُ جبران حضورَ الطابور الصباحي ، اوغالباً ما يختاره مُنظم الطابور قائداً له مع اثنين من أقرانه . يعطي إيعازَ الانتظام وترديد الشعارات وقراءة آيٍ من الذكر الحكيم .. هو لا يتوانى عن أداء ذلك . يدفعه حب الالتزام وفراسة تميّزه عن الآخرين) . لجبران قوامٌ طويل وبنيةٌ متينة متماسكة . في وجهه مسحةٌ من جمال يماني امتزجت فيه سمرةٌ أفريقية . وله عينان مشرعتان وضاحكتان تبدوان لمن يتطلّع فيهما أنهما ترحبان به رغبةً في التعارف ، وتوقاً للقاء . ذلك جعل الكثيرين من الغرباء يسألونه السؤال المتداول : " أين رأيناك من قبل ؟ " . يدخل قلوبَ الآخرين خطفاً . أثيراً كان وودوداً مع صحبه . ومدرسوه كثيراً ما بالغوا في الثناء عليه .

* * *

_ ما هكذا ، يا جبران ؟!

يصمت جبران .

_ تعال معي وادخل الصف مع زملائك .

يهرب ..

_ كلُّ حجرٍ في المدرسةِ يسأل عنك .

يبتعد ..

_ تعال .. تعـ.....ال .

* * *

وأستعيدُ في ذاكرتي ذلك الصباح الذي فوجِئت فيه مدرستُنا بزيارةِ كادر مستوصف ذيبين . طلبتُ وقتها من الجميع التزام النظام وإظهار حسن التصرّف ، خصوصاً وأن أفراد الكادر هم من الأجانب / الألمان الذين عالجوا طلبةَ المدرسة حينما نزلت بهم الأمراض الموسمية من زكامٍ وحمّى في الأعوام السابقة .

دخل رئيس الكادر صفّنا فألقى التحيةَ بلغةٍ ألمانية رصينة أعقبها بلغة عربية متكسِّرة : " سلام أَليكم " . تقف خلفه فتاتان تقاربتا العمر ، الأولى شقراء بطولٍ فارع والأخرى فاحمة الشعر قصيرة نوعاً ما .

_ سيتم فحص عيونكم على التوالي . أرجو إبداء تعاونكم .

قالها مدير المدرسة مخاطباً التلاميذ ، واستدار للرجل الضيف ... أشار الطبيب المُقيم إلى الممرضة الشقراء التي تحركت فجلست على كرسي أعدَّ لها ثم طلبت من الطلبة النهوض والجلوس على كرسي يقابلها كيما تتمكَّن من فحص عيونهم بمنظار تقرّبه من الحدَقة بعدما تضيء مصباحاً دقيقاً داخله فتسقط حزمة ضوئية شديدة على البؤبؤ الذي ينكمش للحظة قبل أن يستعيد حالته .

وفيما كانت الشقراءُ تفحص كانت فاحمةُ الشعر تدوِّن ما تسمع . تحرَّكَ التلاميذ تباعاً ووجد جبران نفسه يجلس على الكرسي بمواجهةِ التي ابتسمت له إذْ رأته . تمتمَ في سرّه : " لورا " . (كثيراً ما تطلّع إليها مبهوراً بفتنتها وهي تقطع دربَ القرية من بيتِ الممرضات صوب المستوصف وبالعكس . وأحيانا كان يقترب خجِلاً ليبدي مساعدةً لها وقت شراء ما تبغي من سوق ذيبين ؛ وهي بكل لباقةٍ ورقّةٍ تثني عليه وتشكره .. لمراتٍ عديدة تمنّى لو بادرته هي بالكلام وطلب المساعدة .) . وها هيَ تكلمه . إنها الفرصة المشبّعة بالمفاجأة _ وجهاً لوجه مع لورا .. يا جبران ! _ . دنا وجهُها من وجههِ فداهمته أنفاسُها مُعطَّرة ساخنة . أحسَّ كأنه يغرق في طوفانِ رغوةٍ أنثوية تتَّسع وتزداد هالةً وهيمنةً .تفشّت في أوصاله ارتعاشةٌ جعلته يَجفل فتبدر منه حركةٌ استغربت لها لورا . ترجّته بكلماتٍ رقيقة أن يثبت . تطلعت عبر الناظور في عينيه ، وتطلَّع هو مبهوراً بزرقة وصفاء عينيها وموار الحياة والتدفق السحري المشتعل فيهما . وإذْ رفعت الناظور عن عينيه شعرَ كأنه أستُلَّ من حلمٍ فباغتته اليقظة . فوجئ برئيس الكادر والمدير ، وبنا جميعاً ننظر إليه . خيّلَ إليه أننا اكتشفنا ما اعتراه . لكنَّ اقترابَ تلميذ آخر وتهيؤه لأخذ مكانه ألغى الشكَّ في نفسه فنهض وخرج ؛

يقف في الفناء ذاهلاً يهيمن عليه شعورٌ غريب وغامض ومربك ؛ انتهى بالتفاتةِ " لورا " وسقوط نظرِها عليه لحظةَ خروجها والكادر من المدرسة .

في اليوم التالي بدا لي جبران شاردَ الذهن ، راحلاً في خيالاته بعيداً ، بعيدا (عُمرُه الشبابي يسمح بانطلاقته ، والموقف بالأمس لا بدَّ أججَّ في نفسه هذه الارتحالات) ، لذلك عندما تحدّث المدير بعد أيامٍ عن حاجةِ كادر المستوصف إلى تلميذٍ لبقٍ يعرّفهم بآثارِ " ظفار " فيصاحبهم واقترح أحد المدرسين شخص جبران رفضتُ أنا بشدّةٍ ؛ حتّى أنَّ زملائي المدرسين استغربوا إصراري .

للحقِّ أقول لم تكن لي القدرة على البوح بشيء محتمِلاً سخريةً سيرمونها في وجهي لو قلت أنَّ ثمة شيئاً رمادياً أراه من بعيد سيدمِّر هذا الفتى المُقبل على حياةٍ قد تمنحه افقاً جميلاً ، وإنَّ عليَّ منع الحدوث . كان صوتٌ ما داخلي يهتف : " لا يجب أن يذهب جبران .. ستكون بداية ضياعه وتهشمه) .. لا .. لا .. !

لكنَّ جبران خرجَ ذلك الصباح مُتقدماً الجميع : الطبيب والممرضتان وموظف صومالي صاحبهم للترجمة والإعانة . لدى " لورا كاميرا تتدلّى من على كتفها ؛ تبدو أكثرهم بهجةً فيما جبران غير مصدِّقٍ ما يرى ؛ وغير عارفٍ كيف ستسير الأمورُ بهذه الدهشة ، وكيف تحقَّق له كل ما تخيّل (تخيّل بالأمس وهو جالس في مقيل خالد حنش مع جلاسٍ وجبة قظم القات أنّه محظوظ باختياره رفيقاً لنزهة الغد ؛ وأنَّ الحظ سيجلب له كلمات الإعجاب والحسد من قبل زملائه وأبناء قريته . سيكون حديث الآخرين طوال ساعات جلسة المقيل وربّما ستنتقل الكلمات إلى صفوف البنات فتُثار في دواخلهنَّ غيرةٌ حارقة . ولعلَّ " أسماء " التي أعجب بها ولم يُعجبها تسمع ما يدور بينهن فتحرق كبدَها على لظى الجمر الذي أحرقت به قلبه . سيمشي بعد ذلك اليوم متخايلاً في طرقات القرية وسيثير إعجاب مَن لم تعجب به) .. لم يحسب للغيوم الداكنة التي ستمطر على رياض شبابه مطراً من قارٍ وأعاصير من شرودٍ وضياع .

السير إلى ظفار يستدعي ارتقاء جبل ينبغي الوصول لقمَّته عبر ممراتٍ وعرةٍ متعرجة يتخللها صعودٌ حذر يتطلب مساعدة أحدٍ للآخر ... جبران يتولى الدور الرئيس في هذه المهمة فيمدُّ يده مراتٍ عديدةً وفي الأماكن الخطرة ذات الحافّات الضيقة ؛ ويدُ لورا واحدةٌ من الأيدي التي اشتبكت مع يده وأقترب وجهها من وجهه حتى بديا في أكثر من مرةٍ كأنهما سيتعانقان . ربّما كانت هي راغبة في الأمر لكنّه على النقيض . لذلك ما أن يقتربا ويكاد جسدُها يلامسه حتى ينتفض العرق على جبهته وترتعش يداه . تكتشف هي ذلك فتعذره في داخلها (الخجل عند القروي سمةٌ لا تقدر فوارق المجتمعات والعادات المتوارثة أن تمحوها .. لورا تعرف ذلك) لكنها تريد . وكلما سحبها أو أبصرته يسحب الآخرين بيسر ولكن باقتدار ينمو إعجابها به ويشتد ... وكان إن إلتقت العيون حين لاحت مَنارة جامع ظفار كأنّها قامة ملاكٍ فارع تقاوم جبروت السنين وهيمنة القرون ، تحكي عصراً عبّاسياً وصل بزهوهِ وازدهاره إلى هذا الموقع اليماني الدفين . هتف الموظفُ الصومالي بجبران أن يصفَ ويشرح له كي يترجم ما يسمعه للطبيب الذي أثاره منظر المنارةِ بغتةَ كما لو أنه اكتشف ما لم يحسبه أو كأنه عثرَ على كنزٍ كان من عِداد المستحيل إدراكه .

تحدث جبران عن المكان ومن سكنه من أقوامٍ هجروا الحياة وناءوا في تلك القمة بحثاً عن أمان مفترض من غزوات كانت ستطيح بهيبتهم وتجعلهم أسرى لمن لا يستحق أن يغدوا لهم عبيدا .

شغف الطبيب بالمشهد البعيد . وبين لحظة وأخرى يلتفت لمواطنتيه المستحمتين بالدهش وهنَّ يلهثنَّ .(يسعد جبران كلّما كلّمه الطبيب . ذلك يجعله يستدير فيشبع نظره من وجه لورا وقامتها المديدة) . وهي تبتسم وتتمتم بكلمات لا يفهمها جبران .

في مدخل البناء الحجري للجامع بشكله المُثير توقفوا . ذُهِل الطبيب وهو يرى إلى جماليات الهندسة الإسلامية وعظمة البناء الذي رصف كتلاً حجرية هائلة في حجمها ودقّة اتساقها . راح يتبعه الموظف الصومالي . يقتفي خطى وهمية ربّما سمعها تدعوه للولوج فضاع في غمار العتمة داخل الممر الذي قاده إلى فناءٍ مسقَّفٍ يتسلل إليه النور من كوى دائرية أو مستطيلة فتظهر بوضوح نقوش لها ألوان طيفية : وهياكل هندسية مثمَّنة ومسدَّسة . نجوم طَعَّمت مساراتها فسيفساءٌ ما زالت بهيةً متوهجة . حروف عربية برز فيها الخط الكوفي ظاهراً متميزاً . آيات تأخذ بانتباه الرائي في حركة دائرية تصاحب حافات السقف البعيدة .

الممرضةُ فاحمةُ الشعرِ تحركت مسحوبةً بجمالية الشريط الأرضي المرصوف بحجر رمادي داكن يسوُّر بناية الجامع من الخارج ويشرف على سفوح الجبل وبطون الوديان الخضر . أحس جبران بكفٍّ لورا تطبق على كفّه فتتشابك أصابعهما ويجدا نفسيهما ينسلان خارج فضاء الفناء إلى حيث سطوع النور . تفرست فيه لورا ؛ تأملت ملامحه الفتية وسحنته السمراء . تراه جزءً مكمِّلاً لها افتقدته طيلة وجودها المقدّر . وقف إزاءها يتفرس في نظارة وجهها ولميع شعرها الذهبي . يلاحق خصلاتٍ سائبة يطيِّرها الهواء . تمدُّ له كفّاً يتناولها خجِلاً . يقترب الجسدان فتداهمه ذات الرائح التي غمرت أنفه وهي تجري له فحص العينين ، ما هيَّجت لديه اللواعج وأججت لهفةً لعناقها الذي بدا أدنى من النفَسِ إلى الصدر وأقرب من الرمش إلى العين . همَّ بتقبيل شفتيها وامتصاص شهدِ رضابهما لولا الخجل القروي الذي تراغى أمام لهفته فأعاق الفعل . استعاد رؤى تراكمت في رأسه أياماً خلت فهمس في سرّه : " آه ، أيتها الغريبة ! أنتِ تقوديننني إلى الجنون ." .. أمّا هي فداهمتها روائحٌ غريبة : رائحة بُن منعش ، ورائحة بخور نافذ ، ورائحة بهارات مثيرة ، ورائحة تاريخ عريق ، ولهاث صدور هبّت عبر قرون تبني حضارة إنسانية نشرت ضوءها على سوحٍ تاريخية نائية في القدم .. سمعها تتأوه فحسبها نزوةً . غير أنها ارتمت عليه . تضمّه وتتأوه .. تتشمّمه وتنشج . أمامه استحالت صبيةً صغيرةً تتعطف رغبته في أنْ يضمّها فما تجلّد . البراءة القروية في الاستجابة للنداء الخنوع انبثقت اللحظة فتحركت ذراعاه تطوّقان الجسد الملموم كعصفورٍ بليل . التحم الصدران ؛ واقتربَ الفم يُطعم الشفاه المرتعشة . أسمعَها بوحَ قلبهِ ؛ وسمع رجاءَ أعماقها . تعانقاً بودٍّ إنساني مشترك ومشاعر بشرية متضامّة . سمعها وأسمعها ؛ وحولهما طفقت أرواحُ مَن سكنوا هنا منذ قرون تُبارك لقاءً نفّذ ابتداءاته القدر غير المحسوب دون أن يدرك منتهاه .

أطبق الاثنان أجفانهما ، مبحرين في إغفاءةٍ لم تبارحهما إلا وهما يسمعان نداء الطبيب من داخل الفناء يبغي استفهام جبران عن زخرفةٍ لخطٍّ كوفي أثار شهيته للتعرف عليه . قليلاً وفأجأتهما الممرضةُ ذات الشعر الفاحم بوميض كاميرتها تلتقطُ مشهدَ عناقِهما .

وكان جبران يقود المجموعة بعدما زال فيضُ العناق الذي شُبّه إليه أنَّ تفاصيل حدثه وتبيان قسماته ما هي إلا ومضة حلمية لا أساس لها من الواقع ، أو أنها كذبة بيضاء صنعها فضاءُ المكان المزحوم بالأخيلة . أبصروا أحواضاً تتفاوت أعماقها وقد طليت بما يشبه الاسمنت : " الذي ترونه بُركاً حفرها ساكنوا هذا الحصن ؛ وعددها يومذاك يربو على عدد أيام السنة . تغمرها المياه في المواسم الممطرة ثم تُغطّى ليكون لكل يومٍ من أيام السنة بركة واحدة يستفاد من مائها للشرب والطبخ وما تحتاجه البيوت ؛ وما زاد يُترك للسقي . حكمتهم في هذا التوزيع أن لا تجبرهم الحاجة للنزول إلى الوديان والاختلاط أو تعريض أنفسهم للبطش والانتقام ." .. انبثقت حالةٌ من حبٍّ ارتياح أو اندهاش على وجهِ الطبيب الذي شعر أنه يحصل على معلومةٍ

معرفيةٍ تقرّبه إلى حالةٍ تشابه هؤلاء القوم مع أقوامه " الجرمان " في الحُقب القديمة ؛ مثلما اكتسحت وجهَ جبران مسحةُ قلقٍ وهو يرى إلى تجاوز انتصاف النهار وضرورة العودة بلا تأخير .

عند باب المستوصف ؛ وهو يتلقّى شكرَ المجموعة ضغطت لورا بأصابعها على كفّه ، هامسةً (هي) برجاء اللقاء قريباً ؛ وهاتفاً (هو) بنداءِ رغبته أن لا تنساه .

ذلك اليوم خُيّل لجبران أنَّ بيتَهُ استحال قصراً أثيراً تنطبع على أديمه قدما لورا ولمساتها الملائكية . صورتها صارَ يراها على الجدران : مرةً باسمة ؛ وأخرى متأوهة ؛ وأخرى غافية على سحابة لذاذة من الجذل ؛ وأخرى تفرد الذراعين برجاء اقترابه لتضمه إلى الصدر اللهيف ...

وعدته أن تلتقيه فوَفت . ظلَ يزورها في المستوصف . تستقبله بشوقِ العُشّاق ؛ يجلسان سويةً تحدّثه عن حبّها للقرية ورغبة عيشها الدائم بين جدران هذه البيوت التي تحسبها حاضنة للألفة والعيش الصدوق ... مرةً أظهرت له صورتهما وهما متعانقين بين آثار ظفار ، فوق ؛ في الأعالي . قالت أنها ستحتفظ بها ؛ وضمتها إلى صدرها للحظة ثم قبلتها وأودعتها حقيبتها .

الأيام تمر ؛ والزياراتُ تتكرر . وجبران يختلس الوقتَ ليزور لورا ؛ ولورا كأنها تعيش الهناء المبتغى فلا تَحسب لهناءٍ سينتهي ، وموعدٍ سيحين فتعود مُجبرةً إلى موطنها ألمانيا . ولم تحسب لهول الخبر الذي سترشق به مسمع جبران . صمتها الذي طال في إحدى اللقاءات حيّرهُ فانهال بالأسئلة . وما أتاه إلا جواب واحد بعد رجاءات عديدة بالرد .. أفشت له بانتهاء عقدها ، وبضرورة عودتها الإجبارية إلى عملها في وطنها . قالت : سأحتفظ بعلاقتِنا ؛ وصورتُكَ ستبقى عندي صكّاً للوفاء . سأعرضُها على أسرتي وصديقاتي ؛ وسأحكي لهم عن ودادِنا الذي لنْ تقدِر الأيامُ على فصمِ عُراه ...

لحظتها هتفَ جبران كالمعتوه : وأنا ماذا سيبقى لي منك ، يا لورا ؟! " .

غب أسبوع من حرقةِ الإفضاء وانفجارِ الخبر المدوّي سافرت لورا . وفي ومضة الوداع وضعت بكفّه ورقةً زرقاء اللون ، مطوّية . نظر في فحواها فلم يجد غيرَ حروفٍ جامدة / صامتة / غريبة .

برحيلها طفقَ جبران يقطع شوارع ذيبين المعدودات . يدور حول بيوتاتها الهائمة ؛ وحيداً مهموماً ، حسيراً ينتهي بالحجر الأسود المشكِّل سياجاً للمستوصف . تطوف عيناه على نوافذ الردهات وتستقر عند الباب العريض المُفضي إلى الصالة الواسعة حيث ستكون لورا جالسة بين شواهد غرفتها . يهمُّ بالحركة والدخول لكنه يتوقف ؛ ثم يتراجع كأنَّه يرفض أن يُجابه بمن يمنعه .. يعودُ خارجاً ، متطلعاً بعينٍ باحثة إلى الوادي الفسيح علّه يلمحها قادمة تلوّح له تلويحتها المعهودة في كل لقاء ؛ هاتفةً به : ICH LIEBE DICH فيبتسم . يرفع يداً تطوّح في الهواء . يستمر بفعل ذلك حتى تكلُّ يده فتهبط ؛ ويكتشف بعد حين عقمَ فعلته فيصرخ في سرّه صرخته المدويّة : لورا ... لو.. را .

الفصولُ تتعاقب ؛ وجبران يهرَبُ إلى داخله . يتيه في دهاليز روحهِ الغائرة ، هائماً في ضياعات الدروب . العقل يتسربُ كالدخان . الكلماتُ تتلعثم على اللسان ؛ تتفكك ثم تنفرط حروفُها . تتعثَّر فتطيرُ مع أصواتِ الزرازير السوداء فوق التلال المتناثرة ؛ أو تتهاوى مع الأوراقِ الصفر الساقطة من شجيراتِ العنب اللاهثة في المدى . يصمت بعدها جبران . ينتهي كلامُه إلى الأبد . تصبح الإشاراتُ بديلاً عن الصوت كأنَّه يتقهقر إلى تخومِ العصور البدائية ؛ يوم كانت الإشارةُ وسيلةً حضرية يتباهى إنساننا القديم باختراعها . أسابيع وتذوي الإشارة ؛ ثم تنعدم . يستعيض عنها بالهرَب بعيداً عن دروبِ القرية وبيوتاتها الوديعة ... هجرَ المدرسةَ ، وتنكّر لوجوهِ صحابه . اتَّخذ جبلَ " كحل " وسفوحَه ساحاتٍ لمتاهاته وانشطار عقله الضائع . يصعد إلى

ظفار متجولاً في آثارها سعياً لاستحضار صورةً نائية لغائبٍ حلَّ هنا يوماً . وإذْ يتسلل الليلُ يؤوب إلى مغارةٍ كانت ملاذاً لقرود اعتادت الهرب خوف الضباب الهابط من السماء على القمم ، نزولاً إلى السفوح .

× × ×

أقتربُ منه ، جالساً تحت شجرةٍ كافورٍ أراه ، مُرسلاً نظراته إلى الدرب الخارج من ذيبين .
أنده به ؛ فيهمُّ بالهرب .
أصيح به فيسعى للتلاشي ..
أقول :
_ جبران ! لا يجب أن تهرب ، فأنا أستاذك .
يتململ .. يحاور وجوده التائه . (أنا) أقترب منه . (هو) يمدُّ يده إلى جيب سترته الممزقة بحثاً عن شيء يحتفظ به . قليلاً ويُخرِج خرقةَ قماشٍ حائلة ، لُفّت بخيط صوفي بذات اللون . يقدمها لي فأجهد في فكّها . نجاح المحاولة أطلعني على ورقةٍ مجعدة ومدعوكة كأنها قُلِّبت عشرات المرّات . في داخلها قرأتُ كلمات كُتبت بحروفٍ لاتينية متقنة : WAIT AUF MICH . EINES WEDE ICH WIEDERKOMMEN
. ICH LIEBE DICH . . كلماتٌ تقذفني في بحيرةٍ غرابةٍ هائلة . وأجدني أغرق في حيرةٍ سرعان ما تبينها جبران :
_ أتدري ما مكتوب هنا ، ياجبران ؟ .. أهتف به .
_ .....
هذه الكلمات تقول بالألمانية : أنا أحبك .. انتظرني سأعود لكَ يوماً !
_ غي .. غي .. غ..غ غ غ غ !
_ نعم ، يا جبران ! تقول انتظرني !
_ غ غ غ غ غ غي !!
كان على وشكِ أنْ ينطقَ ؛ بيدَ أنَّ لسانَه خذله . تناول الورقةَ من يدي . دسَّ وجههُ في تراصفِ حروفِها يستنطق وفاءَ لورا وصدقَ عهدِها وقد غمرت عينيه الوسيعتين دموعٌ ترقرقت إلقةً . ما لبثت أنْ انسابت ترسمُ مجريين دافقين على خديه الأسمرين الموحلين .. نهضَ بعدها ، سالكاً الدرب الذي يقوده إلى مستوصفِ القرية ؛؛ هناك حيث سيشمُ رائحةَ لورا !! وربَّما سيجدها تنتظرُه ليغرقا في عناقٍ طويلٍ ؛ طويلٍ .. حميمٍ .

ذيبين / ك2 1995

احتراقات صامتة

عتمة الحوش تستحوذ على الباب الخارجي الموصد والمدخل الصغير إلى مخزن جمع الحطب والزوايا المتهالكة تحت جبروت الصمت . هذه العتمة توالدت على نحوٍ مباغت بعدما أطفأت فاطمة بنفخة هواء من فمها ذُبالة الفانوس الصفراء . قوقأت بعض الدجاجات المنكمشات على سطحِ برميلٍ مقلوب ؛ ثم استسلمت للظلمة والسكون (السكون في الخارج مطبقٌ ؛ وقرية " ذيبين " تنام على هدهدة أصوات غامضة ، غير مسموعة . ربّما هي تأوهات ساكني القبور الوفيرة لمجموعة مقابر تحيط القرية ، أو ربّما هي أصوات أجداث اليهود عتاباً لأحفادهم الذين غادروهم تاركين إرثهم وتاريخهم كيما يستحوذوا ، هناك على أرضٍ ليست لهم .) . خطت على لمسات الظلام وصولاً إلى السلّم الحجري _ البيت مشيَد من كتل أحجار مكعبة ذات أحجام كبيرة تنتشل من الجبال المتراصفة بإطلالةٍ سرمدية _ جعلت ترتقي درجاته الأربع المنحرفة يساراً إلى درجات أربع تليها . تسقط على الرقعة التي ينتهي بها السلم بقايا ضوء ؛ شريط يرسم مستطيل الباب الناضح من فانوسٍ مرتكن في الداخل على جدار الغرفة حيث طفلاها يحلّقان بأجنحة الكرى في رحلةٍ يطبعها الهناء وتُذكيها البراءة . الكبير دون الأربعة ، يصغرهُ الآخر بعام . نثرت من عينيها المتأملتين حنوّاً عليهما ؛ وتمتمت بدعاءٍ يحجبهما عن أعين الشرور . اقتربت من النافذة . فتحتها ، تاركة العينين تطالعان الليل في الخارج بكل ما يضم وما يجوس .

هذه الليلة تختلف عن سابقاتها عن سابقاتها . كانت عندما يحين هذا الوقت تكون هي قد نامت . فحهد نهار كامل في أرضٍ تستدعي سواعد رجال أشدّاء يتركها منهكةً خاوية . تُطعم الصغيرين بما أعدّتهُ من حساء وخبزٍ مُداف بالسمن . تعقبعهم بتناول ما يفضلُ منهما ، وما يتبقى في قعر القدر ؛ ثم ترمي الجسد المتعب مبحرةً في زورق النوم وحيدةً منعزلة . (السنوات الثلاث منذ رحيله قضتها لا تعرف سوى الأرض وصريف العنب ، والذرة التي تزرعها في الأرض الوسيعة ، والولدين اللذين أتعباها كثيراً بحكم حاجتهما للاهتمام) . أما الآن فلم تكن عندها رغبة في النوم . عيناها مشرعتان على سعتهما ، والتعب يتراجع مع تقدّم لحظات الليل وأذرع السكون . رأسها تقتحمه صورة مطمورة منذ أعوام تحت أديم النسيان . تعود إليها الآن ، مستبيحةً همود الذاكرة ، وعارضةً وجودها على النفس : " الزواج ! " .. ها ؛ أيصحُ هذا ؟ .. كيف خطر له ذلك ؟ لا .. لا.. . وكيف ستكون هي بعد زواجٍ تخللته الكثير من العثرات والمواقف المؤسية ، والسهر الطويل ، والدموع المسفوحة حرقةً ، والرضا بما مقسوم والندم أحياناً ، وأحياناً الحقد على الأب ، والبكاء بعيداً عن الأنظار . " أنتِ في مقدم العمر _ يأتيها صوت عمّتها _ الانسام الحيية ما زالت حولك ؛ تمرُّ على روحك فتطيبها . " .. ومررت أصابعها على رأسها مخترقةً شعرها المبعثر بفوضى على كتفيها .

نزلت على وجهها متحسسةً جفافاً جعلها تدرك تأثير لفح الشمس ، ودوامات الريح والأتربة ، وساعات الكفاح المتواصل المجهد في الأرض : " لولا ثُقل العمل والكد اليومي ما كان وجهي هكذا " . تسللت الأصابع على العنق نزولاً إلى الصدر . ما زال النهدان في ريعان فتوتهما ، محتفظين بصلابتهما . الخصر ضيّقٌ يهبط على ردفين مشدودين ، والفخذان كما هما بامتلائهما المعهود .. نعم ؛ هي في حقبة النساء اليافعات لم تتخطَّ الثانية والعشرين . هذه أعرافهم ! يزوجون البنات بعمر الخامسة عشرة أو أدنى . وتعوَّذت من الشيطان : " ما للأفكار الرمادية تتزاحم في رأسي هذين اليومين ؟ أنا ما فتحت مرّةً بابي لريح الهواجس ، فماذا دهاني اللحظة ؟ ما لخارف يعود بعد هذه الأعوام ليلاحقني بنظراته ؟!

العينان تطوفان ؛ تتابعان لألاء النجوم وديباجة الليل . الليل يهمي عتمةً شفيفة ؛ تاركةً روحها بعد نفَسٍ عميق تطفو في فيض داخلي من لحظات هدوءٍ عذب . هذا الهدوء يوازي مفازات السكينة السابحة في المدى المنفتح المتَّسع قبالتها . هدوءٌ يوحي بالقناعة في حياة قُدِّر لها أن تكون هكذا . لا تفكير مشين بعد رحيل زوجٍ قضى أيامه معها مسحوباً بتواترات ألم متواصل ، وطعن لا يعرف الرحمة ، واخزاً الرئتين الضعيفتين _ بهاتين العينين وشفرات الأسى تحز القلب كنتُ ألاحق سيل الدم يطفح على البصاق المنقذف من فمه بقسوةٍ قاهرة . أبصر ذبولَ الوجه وخنوع النظرات المستسلمة للمرض اللعين .. لا .. لا عبد الله ، لا تستسلم له . تصبّر .. تجلَّد ؛ عيناك اليائستان تخيفانني !! " .. ملتاعاً يرد : " إنّه ينهكني . يرسم غشاوةً مضببّة أمامي ، خللها أرى شبحاً مريعاً ذا وجهٍ فضيع في قباحته مطلقاً ضحكةً تشفّي كأنّه بانتظار حيان فرصة يدرك حضورها القريب : كأني أنا عدوّ لدود يقف أعزلَ بين يديه . " . تهتف إلى أعلى : " يا رب ، دع داءه لي . ارمه في فمي ، استبدله بي . إذا كان لأحدنا أن يرحل فأجعل الرحيل مرادي ! " ... ورحل هو ، مخلّفاً إيّاها والولدين .. استدارت تطالع وجهيهما المتقاربين يغطّان في أسفار الوسن الوديع .

في إحدى جلسات ما بعد الظهر أبو خارف يهمس في أذن أبيها : " ولَدي خارف بات كبيراً . التأهل هو ما أبغيه له ، وحسبي أن فاطمة تليق به مثلما يليق بها . " .. تنكمش جبهةُ الرجل ؛ القلب ينقبض . الشفتان تجفّان فتمتد اليد إلى قدح ماء يفرغه في جوفه . كل شيء ممكنٌ أن يمر في تصوّره إلا هذا . لقد تفوَّه باسم خارف . وخارف آخر ما وضعه في حسبان زواج ابنته . هذا الفتى غرٌّ ، غير مستقر . دائمُ الحركةِ بين القرية والمدن الأخرى البعيدة . يغيب لأيامٍ دون علمِ أحد به . اعتاد أبوه الشكوى منه . احتقن وجههُ واحمر . غام نظره ورحل (عبرَ مستطيل النافذة ؛ في المدى النائي تجمعت نتف غيوم رصاصية ، ما لبثت أن شرعت بالدنو كأنها ستقتحم زجاج النافذة وتدخل لتطمر كبرياءه . لمراتٍ عديدة شاهده يخطر من أمام مزرعته وقت كانت فاطمة منشغلة وأمها في العمل .) . هل ينفجر فيحيل الجلسة والحوار صخباً وثورة ليُظهر أمام الجميع رعونةً وسوء تصرف ؟ .. كلا ! لن يدع هذا يحدث . قال : أعطني الوقت ؛ فأنتَ فاجأتني . اترك لي يوماً أو يومين . " مع أن القرار ترجمَ تلك اللحظات دفقات من حنقٍ دفين ، وغضبٍ كظيم . وقفت أخته/ عمّتها تدافع ، معددة حسنات الشاب ، تحكي لباقته وذكاءه ، وسمعته التي لم يمسسها أحد بفعلٍ مشين : " تركه للقرية ونزوله لا يخلقان سبباً للرفض ." .. وفاطمة روحٌ منفعل من نار تضطرم . تخطر بين حين وحين متظاهرةً بأشغالٍ تؤديها فيما إذناها تصيخان للحديث . وإذْ تجمدت كلمات الرفض في بوتقة سمعها انقبضَ نفَسُها ؛ خنقتها عبرةٌ جارحة . ومثل مَن شاهدَ سكّيناً يُشحذ لذبحه اندفعت إلى الحوش . جعلت نظراتها تلاحق طيوراً منفضة عن سماء القرية. داخلتها أمنية أن تهرب مع السرب ؛ بعيداً عن جبروت السلاسل التي تكبّل حركتها وتشدّها إلى يم مستنقع الأعراف السوداء . لاحقت بعينين دامعتين درب القرية

الصاعد إلى مدنٍ متزاحمة ؛ هناك حيث البشر يعيشون كما يهووون . تمنّي الروح بالعدو عبر طرقاتها هروباً وإنعتاقاً .. لماذا يحرمها ؟! لِمَ لم يسألها الرأي ؟ .. توقفت فتأسّت _ وهل كان لأختيها الكبيرتين رأيٌ من قبل ؟ _ تبزغ صورةُ خارف باسماً . لقد أدهشتها ابتسامته يوم تقاطعا في درب النزول إلى أرضِ أبيها _ قبل أيام _ صاعداً هو إلى سوق ذيبين . كانت تشاهده من قبل لكنها ما طرفت عيناً لأجله . كانت قد سمعت عن طموحه الكبير ورغبته العيش في واقعٍ كغير هذا ؛ بيدَ أنَّها ما تركت للكلام رغبةَ الولوج إلى اهتماماتها . عرفت بإصراره وإلحاحه على أبيه للزواج منها ..

ماتت الأماني ، وديست بأقدام الأعراف السحيقة .

آل المآل بهِ إلى الاقتران بغيرها بعد يأسٍ يغرز حرابه في جسد الأمل الغض . يتهاوى الطموح ويدخل هو في منفى العيش مشدوداً إلى قريته وأرضه بينما ارتبطت هي بعبد الله ابن الشيخ صالح . شابٌّ يكبرها بسنوات ؛ وجدت فيه الأمواه الحيية التي تطفئ اللهب الحارق في جوفها . أنساها ملامح خارف ولهفته ، فتخلّت عن أخيلةٍ كثيراً ما رأت نفسها في منعرجاتها تقضي الأيام معه . بيتٌ صغير يضمهما ، وأرض يضربان بقبضةٍ واحدة صخرتها المتشبثة بمدخل كنز الحياة الرخيّة ... كانت السنة الأولى من زواجهما زمناً بهياً ، مزيجاً من متعةٍ وصفاء وخمائل حلمٍ سعيد . إلى أن فوجئت بإنهاكٍ وخمول وبطء حركة تساورُه : " ما بك ، عبد الله ؟! " . " لا أدري ! هي حرارة لاهبة متأججة تستعر في صدري . أحس بعض الأحيان بيدٍ تقبض أنفاسي . " . فغرت فاهاً .. آ .. أتراه مرضُ أمّها داهمَه هذه الأيام ؟! .. آآآآه ! وانكفأت _ إنَّ السعادةَ غيمةٌ بيضاء زاهية ،وثيرة ومثيرة ، وباهرة ؛ لكنها غادرة .. نعم ؛ غادرة لا تعرف الدوام . سرعان ما تتوارى مخلفةً جبالاً من الهموم ، وأثقالاً من لا قدرة لنا نحن البشر على حملها . بكت بمرارةٍ حارقة كبكائها على أمّها يوم حملوها صامتةً منطفئة ؛ لا تسمع صرخات ابنتها الطعينة ، ابنة الثانية عشرة . دفنوها في حضن الجبل . قالت لعبد الله اشتقتُ لزيارة قبر أمّي ... وأمام الأحجار المرصوفة بهيئة مستطيلٍ مهمل أطلقت لروحها الممزق عنان البوح : " أنتِ متِّ ولم أشبع منك ؛ وها هو عبد الله يضع قدمه الأولى على درب الرحيل . ! لماذا قيّضَ لي يا أمّي أن أعيش الأسى كأنني ابنته أو أنا أمّه ؟ " . أنفاسٌ غامضة تحوم فوق الوجه المنكفئ على حجارة القبر منذ وقتٍ طويل وسط الفراغ المستبيح فضاء المقبرة .

(_ ها أنتَ قد أتيت ! شعرُكَ يخضّله البياض ، والغضون بارزة في رقبتك .

_ وأنتِ كما أنتِ يوم غادرتِنا . تبدين أصغر عمراً .

_ وكيف هي فاطمة ، ابنتنا ؟

_ تحنُّ إليكِ . زوّجتها إلى عبد الله ، يا لتعاسة حضّها .

_ ماذا قلتَ ؟ عبد الله ! هذا الشاب شاهدته هنا في عالمنا . كان نحيلاً وبائساً .

_ نعم ؛ لقد خطبها خارف قبله ورفضت .

_ ولماذا رفضت ؟ كان يصلح لها تماماً . لا بدَّ هي ترغب فيه .. ومَن لها الآن ؟

_ عمّتها . هي كل ما تبقى لها هناك . تعاملُها كما لو كنتِ أنتِ .

_ آآآ ولكن عمّتها ستموت قريباً !

_ لا . لا ، كيفَ تقولين ذلك ؟ أنتِ تؤلمينني . تؤلمينني حقّاً .

_ هكذا هم البشر ؛ تعساء . يموتون بسرعةٍ فائقة .)

صحت .. لمحت دموعاً دفيقة في شقٍّ ضيّقٍ دقيق بين حجارتين . صُعِقت للحظة : " أتراني أبصر دموعَكِ ، يا أمي تشاركني محنتي ، أم هي دموعي التي أردتها ترطب ترابَ لحدِكِ ؟ .. كفكفت سيلين ما يزالان منحدرين عبر وجنتيها .

التفتت ثم خطت إلى زاويةٍ الغرفةِ . هناك توقّفت . أزالت بعضاً من أغطيةٍ مُنضّدة على شيءٍ مرتفعٍ . أزاحت قطعة قماش تغطيه لتظهره صندوقاً خشبياً حالَ لونه ، وبهتت على وجهه زهرةٌ عريضةُ الأوراق ، جفَّ لونها وشحب . الرتاج شُدَّ بسلكٍ نحاسي صدئ . بأصابع مرتعشة شرعت تفك تشابكات السلك . لحظةً ورفعت الغطاء : أثوابٌ متراكمة لها ألوان متنافرة . القطعةُ الأولى ثوبٌ حريري طري تناثرت عليه مثلثات صغيرة بخيوطٍ ذهبية لامعة . ثوبٌ آخر لازوردي محبب بنقاط بيض ثلجية ؛ وثالث أسود تداخلت فيه دوائر اشتقَّت ألوانها من أطياف الشمس .. وفجأةً تسمرت النظرات على الثوب الرابع . رفعته .. قلّبته باهتمام وتأملٍ طويل . حدّقت في كل جزءٍ منه . العطور تشيع في الأنحاء ، والنساء يتحلّقن حولها يتغنّينَ بأشعارٍ ترسم طوفان مسرّةٍ رائقة ؛ يضربن الكفوف بتآلف بهيج . أمامها وضِع إناء احتوى مزيجاً من حنّة خليطة بمسحوق " الشودر " . وامتدت يد العمّة سعياً لإنهاء اللمسات الأخيرة لهذا الخضيب الطيني ؛ ومدّت هي كفّين خضبتهما المرأة راسمةً على الساعدين نقاطاً متقاربة ومتواصلة صعوداً إلى زهرة تحيطها وريقات سيفية حادة النهايات ، ثم انتقلتا إلى القدمين ففعلت الشيء نفسه . عضلتا الساقين بضتّان تبدوان منحوتتين _ تلكما جعلت الأبصار المحدقة تفشي إعجاباً وإطالة نظر _ تذكرت أن هذا الثوب هو الذي كانت ترتديه ذلك النهار . امتدت اليد تُخرج الأثواب واحداً ، واحداً . كوّمتها في حجرها . ومعها توالت الصور البعيدة بين لذّةٍ سارية تدغدغ محفّات الأوصال بمجسّات ريشية رقيقة وألم ناري حارق للروح ، قابض للنفس . أغمضت عينيها تبغي إنهاء هذا التتابع من حشود صور استحالت مؤسية لا تطيق استعادتها (لقد امتنعت من التقرّب إلى الصندوق منذ وفاة أبيها قبل عام . كانت تلك آخر مرّة عندما جمعت ما لديها من ملابس تزينها الألوان وتحلّيها النقوش مع ثيابِ زواجها ؛ وقررت إن لا ترتدي من محتوياته فقد ذهبت الأم والزوج ولحقهما الأب ؛ ولم يعد لديها في هذه الدنيا غير عمّةٍ رءومة هي الوحيدة التي تبثّها الشكاوى وتسرّها على خزين الهموم المتوارثة في قلبها ، وولدين تجد فيهما بقايا أمل في حياة قست عليها بكل ما تمتلك من أسلحةٍ كأنها في امتحانٍ مقصود يتملّى مسار صبرها بلوغاً إلى أقصى مفازة تدركها) . الحسرات تنفلت متحررة من صدرها الغائم .

نهضت ؛ وأمام الكوّة المستديرة كنافذةٍ صغيرة توقفت . تيار هواءٍ باردٍ ورطب مرَّ على وجهها . النجوم التي كانت تتأملها عندما جلست نأت الآن غرباً . تمثّلت أمامها نجوم متهافتة ؛ والسماء بدت أكثر صفاءً بحلكتها . لاح لها أنها قضت وقتاً ممطوطاً محلّقةً بأفكارها . أرهفت السمع لأصواتٍ متقطعة لديكةٍ تتواصل بين مفارق ودروب أجواء القرية . استدارت تطالع وجهي الصبيين ، ثم تحركت إلى الفانوس فأطفأته . ووسط عتمةٍ وسكون يعلنان وجودهما المهيمن على المكان دست جسدها في الفراش . ومن بين محفات العتمة وطوايا السكون تجلّى طيف خارف . تلاه وجه عمتها : " لا يجب رفضه . إنّه الآن رجلٌ يملك أرضاً وزرعاً ومقاماً يبعث على التقدير .. ولا تنسي أنّه أرادك بقلبه ؛ وبإمكانه الزواج من بنات القرية غير المتزوجات . هو يريدُكِ يا ابنتي ففكري بعقلك . " . . " ولكن يا عمّتي أبٌ لثلاثة أطفال ؛ وعنده زوجة لم تقصّر معه ! " .. " وما الضير في ذلك ؟ ! " ".

أريدكِ ، يا فاطمة . رحم الله الذي كان السبب في فراقنا . ها أنا أعود إليكِ ثانيةً فاسمِعيني موافقتك . قولي نعم فأمتلك الدنيا بأكملها . رغبتُ العيشَ معكِ طالما عيناي تريان الشمس ، وتمنّيت قبري جوارَ قبرَكِ بعد الموت .." لا .. لا .. لا تقل ذلك ، يا خارف ." . رفعت يدها تمنع كلاماً كان سينطلق من بين شفتيه فوجدت اليد تعوم في الهواء . جعلت تبث نثار الأسئلة على صفحة أفكارٍ حاولت أن تكون جادّةً في بلوغ منتهاها . تجمع الإجابات ، وتضع الاحتمالات . تحاور ؛ تبعد أخيلةً رمادية ، وتحل محلها أخيلةً أشد إشراقاً . تقتحمها أفكارٌ ليست في حسبانها من قبل . تتراجع . تتأمل فيأتيها شيءٌ من الرد . إنَّ في رأسها أفكارٌ تنبثق للتو تجيشُ ناقصة ، مبتورة مختلطةً مع أخرى قديمة . ثم تمتزج في رؤى ليست لها : شمس ساطعة وتحليق في زمن بعيد كانت فيه صبية تلاحق يعاسيب ذهبية وفراشات مبقّعة / خراف مذبوحة ، مرمية في العراء / بكاء عند مزار / وجه أمّها محايداً / أبٌ يتألم ندماً / برك تطفو على سطحها شقائق حمر .. جهدت في مناقشة الأمر . حاولت التساؤل عن أسباب وجدوى ذلك ؛ لكن الوسن طفق يزيغ العينين مُطبِقاً الرموش ، ساحباً الروح رويداً ، رويداً على سحابة بيضاء راعشة ، وسط سديم يحبو بطيئاً ، مُصاحباً أنسام رخية شرعت تتسلل عبر النافذة المفتوحة قادمةً مع ابتداءات احتراقات فضّية تعلو من ما وراء الروابي الناهضة ، طاردةً وحشية ظلمة داجية أعلنت سطوتها لساعات على الوجود الراهن ، الوديع ، المستكين .

تشرين الثاني / نوفمبر 1996

بلسن – اليمن

تحت غيمة النسيان

لم يعد سرحان رغم خلو الجامع من المصلين ، والشِّعبُ الذي يُكنّى باسمه صار غيهباً / عتيماً . ومن داخل البيت استفهمت الأفواه بدءاً : أين يكون ؟ .. ثم انتقلت الأسئلةُ تداولاً بمفرداتِ العيون (لم يكن السائل زوجةً أو ابناً ، وابنة ، ذلك أن سرحان آثر العيش بليلٍ يغتالُ الأحلام ، واهباً المُعاندة منهما صباحاتٍ للآخرين .. يَمسكُ الشمسَ فيدحرجُها كرةً بين صغارِ قريته ، أو وجهَ لعبةٍ تُكحِّل عيونَها ظلالُ الجدران ، وتحمرُّ خدودَها ضحكاتُ الصبيّات وهو يتأملهنَّ ثمِلاتِ التطلّع إليها أو شاكراتِ المفردات لعطيته .. تلوذُ الوجوهُ الحيرى بأقواسِ الصمت وتتصالب العيونُ على البابِ الخارجي غريقُ الظلام .) .

وحين ارتفع صوتُ المؤذن من فوّهات " السماعات " أذاناً للعشاء تسترَّ الراكدون في البيت بعذرِ الصلاة بقاءَ في الجامع ، يُرتِّل الآيات ليغمرَ روحَهُ بفيضِ الأنوار الإلهية لتخومِ السماوات النائية ؛ ولم يخطر بأذهانِهم أنَّه يقعي هناك (متكئاً على صخرةٍ ترتكنُ زاويةٍ تحاذي انحدار الشِّعب .. الدموع لأولِ مرّةٍ يتحسسُّها تسيحُ على ثرى الوجنتين الضامرتين اللتين خطَّت السنون آثارَ خطاها مُخلّفةً تعرّجات ما عادت لا الرغبة ، ولا الحنين ، ولا التضرع ، ولا الخشوع قادرة على محوِها . يرفعُ يدَهُ فيُداهمُ بارتعاشِ الأصابع . يُجاهد لإيقافِها فلا يقدر .. أين الساعد المفتول ؛ يا سرحان ؟! يحاول الإمساك بمفرسهِ* ، فيتدحرج أدنى قدميه .) . والقرية إزاءه شالٌ أسود تُطعّمه لألئاتٌ متماوجةٌ ، والدروبُ بامتداد تطلّعه صمتٌ محيق .. تساءل داخلياً :

" لماذا أنا هنا ؟! .. لماذا لم أنزل ؟ لا بدَّ أنهم قلقون ؟! " ..

داهمه خارجياً صوت : " ومن يقلق عليك ، يا سرحان ؟ .. ها ؟!! " .استدار دهِشاً مفجوعاً بالسؤال .

لأجلهم أهدرَ عنفوانَ الأيام ؛ سكبَ عصارةَ القلب في بوتقةِ إسعاد الإخوان ليشبعوا نزوعاً ، ويخلقوا ذريّة ، ويرفلون خُيلاءً على قطيفةِ الذات وهو أعزب ، وحيد ، منقذِف .. ينهضُ مبكِّراً طارداً نداوةَ الفجرِ وعذوبته ليدكَّ بساعديه صخرةَ الإعاقة ، مُحيلاً إيّاها تراباً طيّعاً للزروع . يُبحر في غمار لهيب القيظ مواصلاً ؛ حتى تنادي به الشمس : كفى .. كفى !! ساعتها يعود إلى غرفته ، تعصره قبضات الإجهاد .. وحيداً يدس جسده تحت الغطاء ؛ والوسادة سريعاً تغذّيه بخدر الرحيل .

مسحت أنامله المرتعشة دفقَ السيلين .

وشعر أنَّ شيئاً كالنشيج أو النحيب شرع يتفاقم في صدره .

وجدَ أن عليه أن يرمي وجهه بين كفيه ويروح برحلة بكاءٍ لا يدري متى ستنتهي .

وهناك !.....

هناك فقط كانت الأسئلة تتهشم على جبروت الإغفاءات ، والحلم ، والنسيان .

آذار 1997

عبير الحلم

المصادفةُ الخضراء بين ثنايا الغيبِ العُشبي هي التي قادتنا إلى دفعِ الباب الخارجي والولوج داخلَ الفناء المغمور بأشداءِ عطورٍ وروائح تبثّها أقلام (الروج) وعلبُ مساحيقِ التجميل . همسَ صديقي : " لماذا دخلنا ؟! " . وكان السؤال انبثق فجأة من أمواه الذهن وجعل يخامرُني .. " لا أدري _ قلت _ المهم أننا دخلنا لنتفرج قليلاً ونبرح المكان ." .. تقدّم عاملان تحرّكا من مكانين قريبين زرعا ابتساماتِ ترحيبٍ أجبنا عليها بابتساماتٍ مقتضبة . انطلقت عيوننا تتابع علباً حمراء وزرقاء وسوداء . قرأنا كلماتٍ نُقشت حروفُها اللاتينية بلون الذهب وأخرى بلون اللازورد وأخرى بلون أعشاب البحيرات الخضراء . .. صرنا ندور مع امتدادات وانكسارات المعارض الزجاجية والرفوف المتعالية حتى السقف نطالع مهرجان المعروضات وفورانها . تهاجمُنا التماعات من واجهات وزوايا واستقامات وفيرة . شفاهُنا تهمسُ لآذاننا بـ(نوتات) الإبهار والدهَش . العيون تحاورُ شفاهٍ تنطبق بارتخاء _ لصور دعايات مُعلّقة في أكثرِ من مكان _ جمَّلتها أصباغُ " الروج " . أناملُ دقيقةٌ تطلي أظفارَها ألوانٌ دهنية لامعة . رقاب شمعية جسَّدت فتنتَها مستحضراتٌ لها أسماء غريبة . عيون تنافرت أهدابها سوداء تطوّق حدقات مستديرة ، ضاحكة ومشعّة / خدود اختطفت بعضاً من ألوانِ الشقائق . ومن بين هذه التظاهرةِ المثمرة اصطدمت أنظارنُا بوجهٍ أنثوي غمرته ابتسامةٌ ملائكيةٌ قضت بتسمّرنا وانتصابنا مشدوهين ، حائرين .

_ مرحباً بكما .

ضاع الصوت ، وتكبَّل اللسان . تفتتت الكلمات ، وارتعشت الأوصال . طالع أحدُنا الآخر قبل أنْ نتمسك بقشةِ النجاة ونحظى ببقايا وجود .

تركتُ صاحبي يتولّى مهمّة الرد . نسيتُ ماذا كان جوابُه ؛ ذلك أنني وبكتلةِ حواسي جميعاً شرعتُ أتابع القوامَ الناهض الذي حجبت نصفَه السفلي عارضةُ قناني العطور والمستحضرات الأخرى . التهبت عيوننا بمرآى العينين السوداوين الواسعتين والابتسامة المفترشة بكل اتساعها الوجه والشعر المحبوس جلّه بشالٍ أسود انسحب قليلاً إلى الوراء ليحرر خصلات زعفرانية لامعة عقصتها (رولات) لف الشعر لساعات قبل أن تمنحها هذه الفتنة البنفسجية المتزاحمة مع الزرقة الطاغية لقميصها الهابط على تنّورة سوداء بأريجٍ غامض

. طرنا في سماءٍ تنسفحُ على أديمها لذاذاتٌ دفيقةٌ تُصاحبها أنسامٌ جنائنيةٌ يغمرها السحر . وجدنا أنفسنا نطفو إزاء فنارات تودِّع سفناً تحمل أكداس هموم ثقيلة وتستقبل زوارق ثانية تزهو حمولتُها بأنفاسٍ ولهى وضحكاتٍ نهارية تغسلها شمسٌ عاشقة منبثقة من ينابيع الضوء .. آنا وأعادتنا إلى ميناءِ العطر والرحيق المنهمر والوجه الودود ؛ وكما لو أنها استدلَّت بحدسها المهني اندهاشنا رفعت كفّاً رخامية تشيرُ إلى الواجهة المزججة ، ثم الرفوف المتلاحقة :

_ تأملوا ، وسأكون رهنَ الطلب .

تحركت تستقبلُ امرأةً أجنبية بمصاحبة رجل يعلوها طولاً اقتربا من علب كريمات مرطبة ، وسمعناها تتفوّه بلغة ايطالية متقنة تعطي أسعاراً منتجات فرنسية . تأملت صاحبي فألفيت وجهَه شاحباً وعيناه تطفحان بذهولٍ عجيب . تنبّه لنظراتي فانطلق يسألني :

_ ما بكَ ، تبدو شاحباً ؟

_ أنا ؟! .. هتفتُ مستفهماً .

_ نعم ؛ ماذا قررتما ؟

بحثتُ عن بقايا ابتسامةٍ هاربة رميتها في روضِ وجهها :

_ صاحبي لمّا يزل في الثلاثين وجيوش الشيب تغزو شعر رأسه بلا شفقة .

فجّرت ضحكةً تطاير شظاها مع هواءِ العطور وعادت راسية على موانئ الوجه الوديع .

طأطأت رأسَها تحاول اختزالها خشيةَ امتعاض أحدنا . لا تدري أنَّ ضحكتها كانت كافيةً لمنحنا فرصة التقاط الأنفاس والسيطرة على أشرعةِ المشاعر التي راحت تشتعل كالهشيم .

استلَّت غُلباً ممّا وراء الواجهة الزجاجية وبعضاً من الرفوفِ عرضتها أمامنا ، ثم شرعت تعطي المواصفات الترغيبية تتابعاً مُفصحة عن ماهيّة الألوان التي يمنحها كلُّ صنفٍ ... وأمامنا عرضت أيضاً (كاتلوجاً) لنماذجَ وشعور متفاوتة توافقت مع الصبغات المحبّبة. نطقت الأسعار بابتسارٍ محاولةً التقليل من وطء ثقلها . وجدتُها باهظةً قياساً بأسعار تقدِّمُها معارضُ في الجوار .

هبَّت إلى (الكاشير) الذي ناداها بإشارةٍ من بين الجمع المحيط به .. تسللت يدُ صاحبي تقبض على كفِّي محاولاً أنْ لا يجعل الفتاة تبصر ذلك .

- كيف ترميني على طاولة الإحراج ؟!
- ولمَ الإحراج ؟! ألم تحدثني عن رغبتِك في طلاءِ شعرك الأشيب .. دعنا نخرج إذا كنت تضايقت .

رفعت رأسي وبشْيء من التودد شكرتها :

- ربما سنأتي غداً .

ظلَّ الوجهُ يحتشدُ كثافةَ الابتسام ، والملامحُ تطفو على وهجِ الشوق . سمعتها تجيب : " أرجو ذلك . " .

(هل استحسنت فكرةَ النقاء ؟ .. هل ومضت شرارةُ الحب لتلهبَ غاباتِ الروح ؟ .. هل رغبةُ الحديث تتشرَّبها القصدية أم هي من عِداد المهنة لعملٍ أساسياته اعتماد التحبّب بغيةَ الأخذ بالزبون نحو ناصية الشراء ؟!.. أسئلة قضت تتوالى وسط أمواج ذهنينا اللذين فقدا زمامَ امتلاكهما التقدير والحدس ومضينا نمضغها علناً)

خطونا إلى حديقة " التحرير " غير آبهين لمنبّهات العربات المارقة ولا لصرخات سائقيها ، المتذمرين للامبالاتنا وبلاهتنا .. انتحينا على أريكةٍ تنزوي غارقةً تحت عتمة باردة .. الوجهُ الالِق بزغَ من بين أغصان شجرة أكاسيا متزاحمة الأوراق وانبثق يواجهنا . شاهدنا الابتسامةَ مشعةً تبثُّ بهاءً عذباً ومدغدِغاً يقترب من صدرينا ويخترقانه سعياً لتوسّد شغاف القلب .

أسأله : " أرأيت الودَّ الطافح على الوجنتين التفاحتين ؟ "

ويسألني :" وأنتَ ألم تلمح الهمسَ الدفين المنسكب من شلالات الحدقتين المؤتلقتين ؟

أقول :" كانت أناملُها تضربُ بآليةٍ متناغمة زجاجَ العارضة لحظةً كانت عيناها تطوفان بأجنحةِ المسرة .

ويقول : " أحدس أنها كانت تتعمّد اسقاءنا جرعاتِ لذاذاتٍ تدرك ما سيؤول تأثيرُها وهيمنتُها على مملكة روحينا .

" ياه _ رددتُ _ أشعرُ أنَّها رمت حجراً رجّت به بحيرةَ عواطفي الساكنة ! " .

وأسمع صاحبي منتشياً يقول مستفهماً :" حقّاً ؟! .. هذا ما يعتريني الآن .. آه !

مساء اليوم التالي كنّا نسرع لبلوغِ مكان عملها . بيدَ أن خطواتنا ثقلت . رحنا نبُطئ كلّما اقتربنا . وحين صرنا أمام الواجهة الزجاجية التي دفعناها بالأمس تمثَّل لنا القوام النوراني منبثقاً خلف كرنفال العطور والأصباغ . تملّينا الوجهَ النضِر يتطلّع باهتمام إلى الأشباح المتقاطعة في الخارج وتتصالب علينا وقت وطئنا دكَّةَ الدخول (كان شعور مشوب بالشكِّ ساورنا ، إذْ قد لا نجدها كما رسمناها في لوحة المخيلة ؛ لكنَّ الابتسامة الطفولية التي نشرت مظلتها على الوجه أكَّدت أنها كانت تحسب الزمن وتتمنَّى انصرافه . استبدلت بلمحةٍ مسحةَ القلق الهاطلة بغزارةٍ واستعاضت عنها بكلمات الترحيب الهامسة متراقصةً فوق رضاب الشفتين ما غمرنا بدفقٍ من الشجاعة والاعتقاد بحسن تصرفنا .

_ كنتُ موقنةً بحضوركما .

_ لكنّنا بصراحة نخشى حسبان هذا الحضور عابراً لديك .

غيمةُ كآبة وصمتٍ غلَّفت وجهها . وشت نظراتُها بعتابٍ شفيف . حاول صاحبي تداركَ الأمر ، فقال :

_ نسعى لعدم إحراجك بحضورنا . إنَّ عملَكِ يتطلّب أن لا نثقل عليك .

_ لا تحسبا لذلك أرجوكما . حضورُكما والتحدث إليكما جزءٌ من واجبي . إنَّ العشرات يدخلون ويخرجون ، فلا يساوركما ظن ليس له وجود .

صدّق صاحبي الكلام ، لكني وقفت إزاء أصابعها التي طفقت ترتعش لتبوح رغبةً ، ولقاءً تقدِّر له ألف تقدير . كتمتُ ذلك قصداً كيما أحسسّها بعدم اكتشافنا لبؤرة الشوق المعتلجة داخل قلبها .

تحدَّثنا عن عملِنا ؛ وتحدثت هيَ عن وجودِها . صارحناها بمصادفةِ المجيء فعزت ذلك لحظِّها السعيد . أفشت بما لم نتصوَّره ، وأبحنا برغبةِ زيارتنا لها يومياً فأعلنت انتشاءها عبرَ فراشاتٍ مخملية تتطاير خلل بستان حدقتيها الليليتين .. قالت أنَّ اسمها " عبير " . فقلنا ضاحكين : " هذا يتوافق وجنَّة العطر الماثلة حولنا " .

طالبناها باللقاء فوعدتنا بالتلبية .

بعد ستة أيام كنّا على طاولةِ العشاء عند مطعمٍ عائلي . حدث كل ذلك ولم يخطر على بالِ صاحبي سؤالُ إنْ كانت ستصبح حبيبةً له أم لي . كان هذا الخاطر بعيداً عن تساؤلي أيضاَ .

صفقت طيورُ الشمس في فناءات قلبنا . ابتدأنا نُحسِّن من هندامِنا وتصفيف شعرنا وحلاقة لحانا . وكان صاحبي يسألني : " هل ثمَّة جدوى من صبغِ شعري ؟ وأجيبه :" بالتأكيد وإلاّ لِمَ أوجدوا الأصباغ وتغنوا بوسائل الدعاية لها ؟ " .

نقف أمامَها نسكب في إذنيها المرهفتين كلاماً نتوسم بنبراته الرقّة أحضرناه بعد حفظٍ وتكرار . أخذت تسلِّمنا قصاصةً مشتركة تضمُّ أسطرَ ترشحُ برحيقِ الحبِّ الفوّاح .. كنَّا وهيَ تكلمنا نجسُّ ونحدس رماديةَ عيون العاملين المحيطة وغضبها . عرفتُ ذلك . أبحنا لها همساً : " دعوهم هذا ديدنُهم ؛ حسّاد مرائون . سبعة أشهر ولم أسمع منهم كلمةً طرية ترطِّب جفافَ القلب . وأنظر إليهم ؛ فيهم الشباب الذين بالإمكان علاج الجروح العديدة المتوسدة هذا الروح ، لكن لا أحد منهم امتلك الشجاعة . ويوم جئتما لتزيلا اليباب انتفضوا جميعاً لمنع الماء ووداد الزرع . لم أعد آبه لوجودِهم . المهم أنني أؤدي واجبي وأرضي الضمير . سأكيدهم بكما .

لمحنا شراراً يتَّقد تسفحه العينان اللتان سرعان ما تخّلتا عن وداعتهما واستحالتا عيني ذئبةً جريحة !.. ندّت منّا آهةٌ حارقة سنبتعد إذاً عنكِ رغبةً لئلاّ يمسّكِ أذى . لا يجب أن نكون المتسببين لضررك يا عبير .

_ لا .. لا ...

تلألأت جمرتا شفتيها تفيضان رجاءً . شاهدنا العينين تدلقان دموعاً على روابي الوجنتين اللتين ذبلتا سريعاً . لا ندري كيف امتدت كفّاها لتمسكا كفينا وارتعاشة مربكة تحرك الأنامل .

_ كيف لا . وأنت أحوج ما تكونين إلى العمل .

_ كُفّا عن هذا الاعتقاد ، أرجوكما – هبّت نظراتها تستنجد – اذا كنتما تودّاني اصمتا وابعدا قراراً سيدمرني .

ترك العمال أماكنهم واقتربوا منّا ، وبشيء من لومٍ أقرب إلى التقريع سمعناهم يقولون : " لماذا تدفعاه بها إلى الهاوية . لقد كانت أمهر وأشطر بائعة هنا وكنا حريصين عليها كحرصنا على جوهرة غالية . من يوم دخولكما تغيَّرت طباعُها ، باتت تكثر من الشرود والذهول . هل أنتما أعداء لها تجيئان لتهدّما مصيرها . إنَّ لها أهلاً ينتظرون ومستقبلاً تبغي بناءه .

شحب الوجهُ الوديع وتفجَّرت البحيرتان الجميلتان لهباً وحقداً .ارتعشت الرموشُ وانطبقت . ساحَ من بين تشابكها سيلان صافيان كدتُ أرتمي عليها أضمّها لصدري لأمنحها طمأنينة هي أحوجُ لها الآن ؛ لكنّي تمالكتُ نفسي خشيةً من ظن .

فتحت عينيها ؛ وبلمحةٍ استدارت تتابع علب الأصباغ المتراصفة . بأنامل مرتعشة سحبت واحدةً :

_ خذ ! _ كلّمت صاحبي _ ستغدو أبهى صورة وأجمل . عُد غداً بمنظرك الجديد .. سأنتظركما .

الخطى تتعثّر خائبة / القلب كسير يستبدل حلّتهُ الفيروزية برداء رث . يزدحم الرأس بأخيلة كابوسية وأصوات اللوم يتردد صداها مدوّماً في المسامع : " لماذا فعلنا كل هذا ؟! .. وهل يصح أن تمتد يدنا لتمسك مناجل تجتث منابت الزهور وتبدد رحيقها ؟ .. هل يصح أن نعبث كالأطفال بوسائل بهجتنا غير آبهين لسوء التبعات التي ستتعرى يوماً لتوصم ضمائرنا خزياً وغدراً ؟ هل نحن مخطئون حقّاً ؟ "

قرر صاحبي أن لا يحفل برجائها . رمى العلبة جانباً واستكان لهموم آخذة بالتحشد عند مرابض روحه لتتراكم لوماً وتأنيباً .. وافقته الرأي . حزنت لحزنه .. أخيراً قررنا أن لا نلتقيها بعد اليوم . إنَّ كلام زملائها يوسمه الصدق وتبرره الواقعية .

ثلاثة أيام ونحن كامنون بين جدران غرفتنا لم نر شارعاً ، ولم نكلّم أحداً ، ولم نخرج للعمل . لكنّي بعدها وجدت من الأولى أن أحدث صاحبي عن القسوة التي ارتكبناها بحق عبير إذ لا تستحق هذه المخلوقة الرهيفة كل ذلك . وأننا بعمرنا الثلاثيني أقدر على السيطرة وامتلاك العواطف من فتاة دون العشرين . ماذا إذاً لو عدنا وفاجئناها باللون الجديد الذي سيحوّل تراكمات الشوك الكثيف غابة سوداء حييّة تعيد صاحبي عشرة أعوام إلى الوراء ، ثم نقّدم اعتذاراً لقطيعتنا معللين السبب لعملٍ اضطرّنا للسفر بعض الوقت ؟

أقنعتُ صاحبي فاستكان لرأي . انهمكنا بالطلاء ، وانتهينا . تهيأنا للخروج حسبما كنّا نذهب للقائها . تهندمنا وتعطرنا . وأمام المرآة توقَّف صاحبي يلاحق السنوات العائدة . لامَ نفسه لأنّه لم يفعل ذلك منذ زمن . بل ترك الآخرين ينظرون إليه كهلاً على نواصي الشيخوخة .

تركنا الغرفة واندفعنا عبر الشوارع ، نزهو بالأنسام الرطبة والأخيلة التي تتسارع وتتزاحم والأسئلة التي تنبثق مع وميض أضواء المحلات : " ماذا سيخامر العمال وهم ينبتون عيونهم على الوجه الذي تغيّرت قسماته بفعل مستحضر يعرضه محلّهم ؟ " .. التساؤلات والاحتمالات سارعت ببلوغنا المكان . وقفنا أمام واجهته ، متخيّلين وقفتها المعهودة تنتظرنا ... دفعنا الباب الخارجي فانقذفنا وسط حلبة الفراغ ، تحيطنا عيون نارية لاهبة . جباه متغضنة / همهمات تغيض بعضنا / كلمات توصمنا بالدعة وامتهان شرف الغير / تعنيف جاف لتسببنا في ترك الفتاة لعملها وطعن كرامتها بخنجر ريائنا وعدم حرصنا على ملاك وهبنا حبّا لا نستحقّه .

كنمرين تلاحقهما أعاصير شرسة خرجنا مندفعين . كدنا نصدم الباب الزجاجي الذي لم نره وكأننا ندخل المكان ونبرحه لأول مرّة .

أحقّاً فعلتها عبير ؟! .. أحقاً كانت فعلتنا من القباحة ما حطَّم كبرياءَها وقلبَها ومشاعرها وحياتها وصدقها وعواطفها ؟! أحقّاً تركت العمل ولن تعود ؟! وهل كان غيابُنا عنها من بابِ الغدر ؟!

ظلّت النجومُ الباكية تهشّم أنوارها الشذرية تصاحبنا أنيسةً تلك الليلة . نتحاور همساً وعتاباً ودمعاً وتأنيباً وندماً على حماقةٍ لا نعرف كيف ارتكبناها حتى سلمتنا مرافعاتُ ومحاكمات النفسِ إلى شمس الصباح .

ذلك الصباح اتخذتُ قرار البحث عن عبير بكل اتجاهات صنعاء ، تاركاً صاحبي الذي آثر أن يقبع أسير غرفته . قضيتُ أجوب الشوارع والطرقات . ادخل معارض بيع العطور ومساحيق التجميل ، وأخرج خائباً محبطاً أرمي نظراتي على الوجوه فلا أحظى بلمحة من ملامح ملاكي الضائع .. وفي المساء أعود متعباً أجرُّ الخطى فأجد صاحبي متكوراً هزيلاً . ينتابني شعور يائس فأنام على مرارة الذكرى . لكن حضور صباح اليوم التالي يمنحني طاقةً وتصميماً وحدساً بأني سأجدها ... وذلك ما حدث غب اسبوعٍ طويل .

يومذاك تركتُ " ساحة التحرير " ولوجاً إلى شارع " الزبيري " ، عبوراً إلى " عصر " ثم عودةً إلى شارع " حدّة " الرئيسي باحثاً متفحصاً ... السماءُ تحتضنُ غيوماً داكنة تتداخلُ مع ظلمة الليل وساعته

المتكئة على العاشرة .. بواكيرُ رذاذٍ يهمي خفيفاً وريحٌ نَيسانية طرية متهادية تلامسُ وجوهَ المارّة القلائل إذْ أخطو وحيداً . ضجيجُ الأفكار وزحامُها تداهمُ الرأس ، والرذاذُ يأخذُ شكلَ قطراتٍ تناهت رشقاتُها عزيفاً يعتورُهُ تحذير لهديرٍ راعدٍ ومطر غزير قادم دفع المارة لتوسيع الخطى هروباً ودفعني لتقمّص اللامبالاة والعبث عمداً أتابع حركاتهم التي تراءت لي بهلوانيةً ساذجة لموقفٍ لا يقتضيه إلا الانطلاق تحت هارموني الطبيعة الرخيم .. وهنالك / عند الرصيف البعيد / أمامَ واجهةِ عمارةٍ ناهضة اصطدمت نظراتي السائحةُ بقوامِ فتاةٍ تهافت على منتصفِ جذعها العلوي ورودٌ بنفسجية مع زرقةٍ طاغيةٍ لقميصٍ يهبط ملاصقاً تنّورة سوداء . حين استدارت بجذعها لمحتُ وجهاً نيراً يطوّقه شالٌ اسود .. هتف قلبي فجأة :" ذي هي عبير ! " .. حثثت قدميَّ جرياً لإدراكها أُمنّي النفسَ بلقائها مُقدِّماً عتاباً لابتعادِها المُدمِّر لنا ، أو اعتذاراً لسوءِ تصرفنا ، طالباً عودةَ السواقي لمنابعها .. لم تبق سوى بضعة أمتار تفصلني عنها .. بضعةُ أمتارٍ عندما رفعتْ يداً لعربةِ أجرةٍ مارقة توقفت لنقلها .. تركتْ الرصيف وراحت تفتح الباب وتدخل . صرخت بها : " عبير انتظري ! " .. ركضتُ خلفُ العربة لحظة هدر محركُها وانطلقت . أندفعتُ أعدو وراءها ملوّحاً بكلتا يدي ، صارخاً كمجنونٍ داهمته موجةُ صعقاتٍ كاوية : " عبير .. عبير ! " . تفجّرت الدموع كتلاً وأنا ألمحُ العربةَ تزدادُ سرعةً ثم تتضاءل وتغيب وسط بؤرةِ ظلامٍ فاحم .

أدرتُ مفتاح الباب ودخلت . ضغطتُ زرَّ المصباح فسقطت رشقةُ نورٍ على صاحبي الذي أبصرتُه لمّا يزل مكوَّماً تحت الغطاء . فضَّلتُ أنْ لا أوقظه .. توجَّهتُ إلى المرآة لأتفحَّص الأسى المتكّدَس في العينين والحيرة المتوسدة مساحةَ الوجه ، فهالني ما رأيت .. رأيتُ شعرَ رأسي وقد استعاد _ بكل هوسٍ وإصرار – لونَه الرمادي القاتم .

بوحٌ علّها تقرأهُ :

يتقاطر فيضُ لهاثِنا الجميل ، يا عبير .. ولذاذاتُ العمرِ الهارب تنسفحُ على مذابحِ المساءات المهاجرة .. غوايات ! .. غوايات تسلبُنا طيبَ الجلسات _ أتذكرين _ وترمي بأحلامِنا على أنقاضِ شبابٍ ذبيح وأمانٍ اكتشفناها كاذبةً كذبَ السراب .. هل ستصبح لقاءاتُنا المجنونة عابرةً لديكِ _ بعد سنين _ هل ؟

صنعاء

صيف 1996

مساء الاحتراقات

كأنَّ أعواماً عَدت ...

كأنّما الليالي حبّاتُ مسبحةٍ سوداء تتوالى ...

كأنّي شاعرٌ قديم أرخى ذاكرته واستدعى احتراقاته وتأوهاته وأمانيه على طلول عافها أهلُها ورحلوا ، تاركين آثار خطاهم على الدروب والجنبات والأفياء . أقفُ عند مصاطب لقاءاتنا الجرداء . " حدائق السبعين " أتبينها بيداء موحشة . رمال تمتد عطشى يعمُّها سرابٌ زحيم . تغريني لحظات الشرود باللهاث صوبه فتنبثق من بين لئلائه صورةٌ لوجهٍ موشوم بالوله ، ينده بي صوت أثير تعوّدتُ سماع نبراته المنغَّمة فأصرخ كعابثٍ مجنون : " منى !! .. منى !! ها أنتِ تعودين متراجعة ؛ كاسرةً قرارَ الرحيل ؟ انتظري ! ها أنا قادمٌ إليك . سنعيش صباحات الفناءات المشمسة ، ونعيد لسحر ليالينا الساعات الجذلى التي تعوَّدنا اختتامها على محفّات ابيضاض الأفق . " ... أهمُّ بالنهوض وأخطو على فيض رغبة وليدة فيقطع شرودي الجميل نفيرٌ متواتر لعربات أعاقها حادث مرور عابر .

المصاطب فارغة / الطيور هاربة / الشجيرات ظمأى تشاركني محنتي وافتقاد مرفأي . تشاركني بهتان الحلم الذي لا أدري كيف تبددَّ بهذا الخطف الفائق ، وتلك النهاية المتهالكة ، وذلك المشهد الرمادي .. الكلمات الخضر التي نطقناها في كرنفالات العشق استحضرها مبعثرةً على حجر الممرّات الأسود صفراً أحرقها الجفاف ،. ضحكات منى تتناهى ترددّات ساخرة ، وذبذبات تفتقد توازنها تتبدّى دويّاً مدوّماً .. آ .. لماذا تنفث هذي الشمس التي اعتادت إحاطتنا بحنانها فحيحاً حارقاً يلفح وجهي ويلهبه ؟ .. لماذا تُنبت نصال جمرها اللاهبة في يافوخي ؟! .. ما للهواء يستحيل سهاماً حارقة تمحق بشرتي ومساماتي مخلّفةً القسمات موحلة يحسبني الرائي مخلوقاً لا ظلاً يأوي إليه ، ولا كياناً يحتمي به من قيض هذا الصيف الطويل ؟! ..

ويأتيني الصوت الكمين حاملاً التساؤلات والدهش ، والاستغراب : هل حقّاً ذهبت منى ؟ .. هل انقضت تلك الأيام التي كانت تأتيني لتفعم القلب شهدَ الرواء ، وتغذّي الروح بترانيم صوتها الملائكي ، الموشّى بزقزقات عندليب وسط بحيرة زهور أرى لقاحها يتطاير رحيقاً فائحاً أنتشي لفعله المؤثر فأعوم مدفوعاً برغبة طاغية في

الغرق العذب والموت المستديم !.. وحين أستدير متلفتاً لمرّاتٍ ، متوقّعاً مشاهدتها ألفي نظرات المارّة ترنو تلاحقني ، ماطرة سيلاً من شفقةٍ وعطفٍ لحركات غريبة تبدر منّي .

أتحرَّك لأستعيد ذلك المساء الرطيب عند " ساحة التحرير " والخطى تقودني نحو دائرة البريد لأدفع برسالةٍ إلى صديق حميم غيَّبته المدن المتلاحقة وألقت به مغترباً بين أحياء " امستردام " يعتاش من رسائلي بأخبار الوطن ليغذي جوعَهُ بذكريات مدينته / مدينتنا المسترخية لصق الفرات ، وذلك الزقاق خزين أحلامنا الطفولية المستحمَّة بالنقاء ، مكمن عبثنا وألغازنا الصبيانية ، وتفتّح عشقنا البريء الذي إجحافاً بتنا نطلق عليه (حب المراهقة العابث) . صالة البريد تعجّ بالمراجعين المغتربين جاءوا ليتواصلوا مع أحبّاء لهم يقطنون مدناً نائية ، ممنّين النفس بوصول ألأخبار والأشواق والأماني . أبتاع طابعاً وأتحرك لإحدى المناضد المستديرة وسط الصالة ؛ ألصقه في زاوية المظروف ملقياً آخر نظرةٍ للتأكد من ضبط العنوان قبل تمرير الرسالة في فم أحد الصناديق المعلقة على الجدار . حولي أناس يفعلون مثل ما أفعل . وإذْ أنتهي من مهمّتي وأرفع الرأس تسقط عيناي على فتاةٍ تطالعني باهتمام . وجهها القمحي يهبني ابتسامة لا أعرف كيف أجبتُ عليها لأسمع بعدها الشفتين المطليتين بأحمر شفاه فائح : " مساء الخير ! " فيرد لساني المتلعثم ردَّ الود . لحظةً وتدور لتقترب منّي ، تسألني :

_ " كأننا التقينا قبلاً ! " ..

_ "وأنا كذلك .. إنني أعرفك ! " ..

تكمل إلصاق الطابع على مظروف بيدها ، ثم تزجّه في جوف الصندوق :

_ " إلى عَدن ! " ..

وأرفع مظروفي ؛ أدفعه :

_ " إلى امستردام ! " .

من جيبي أستلُّ مفتاحاً ، وإلى الصناديق المقفلة أرنو . أفتح رقماً يخصّني علّي أجد من تذكّرني ورمى لي حقائب الشوق الملأى بأخبار الأهل ولهفاتهم .

نتحرك منفضّينَ من الزحام . نطأ الدرجات الهابطة لنلفي أنفسنا نسير على الرصيف سويّةً . لم أسألها الدرب ، ولم تسألني ! .. نتخذ الطريق يساراً فندخل شارع " جمال " حيث المعارض ضاحكة تعرض مقتنياتها .. أتحسَّس لذّة اللقاء الأول وعبقه ، وأنتشي وأحسب منى (منى والسحاب .. هكذا قدَّمت نفسها ضاحكةً) هبةً تسللَّت من السماء فأمطرت القلب برذاذ الوجد وسط بهاء صنعاء الواهبة كلَّ شيء إلاّ عاطفتها الحبيسة بين أهرامات سود تتحرك بآلية وحذر ، واستحياء .

تسحبني منى من يدي لتدخلني مغارة أشذاء جدرانها مرايا وقوارير عطور شرقية قرأتُ على أحدها " خدمات معرض رياحين " .. أغرقني سديم أرائج مخدِّرة تتهافت بأجنحة رحيقية . أشارت إلى عطرٍ همدي كحلي اللون . نقَّطَ البائع على ظهرِ كفِّها بضع قطرات فغمر الجو أريجٌ عميم ، حفَّ بنا إلى فضاءات ألف ليلة وليلة حيث شهرزاد تصحب شهريار المدهوش بسيولة الكلمات وسحرها ، على غيمة مخملية من أخيلةٍ تطوف به عوالم بعيدة : غابات أماني محتشدة / جزر ربيعية لا تتوقَّع نذر أعاصير ولا رياح ولا تهجسات / محفّات نفوس غائرة ومشاعر خبيئة / ألوان لا تأتي بها سوى سهوب الحلم ... ومن هناك تعود بي مغسولاً بروائح غابات فيضية . يخاطبنا البائع مبتسماً : " إنها محبّبة لدى المتزوجين روّاد معرضي _ خمَّننا هكذا _ لم أستفهم منى عند خروجنا إنْ كانت أسيرة ذلك القفص السحري أم لا .

يستوقفني الوصول لمطعم " النورس " فأتسمّر وانتصب قبالة واجهاته الزجاجية _ خلفها أبصر مناضده وكراسيّه تزدحم بالرواد .. وأرفع بصري لأرى منى تتخذ مكاننا المعهود . تبتسم / ترفع كفّاً ريشية تومىء لي كدعوة لارتقاء صالة العوائل . هناك اعتدنا الجلوس عند منضدتنا الأثيرة . أدهش لوجودها وحيدةً . أتساءل كيف جاءت ؛ هي التي غادرت صنعاء نافرة منكسرة ! . تلقّفتُ الممر وارتقيت درجات السلم . وأمام المنضدة المحببة استقبلني الفراغ فيما رائحة منى تضوع مفعمةً المكان . أدرتُ وجهي أطالع جلوس عائلتين أفرادهما يرتشفون هناءة اللقاء ... ومثل حالم تكشَّف له زيف الآمال تهالكتُ خائباً على كرسي أطلب قدحين من عصير المانجا ، اجتراراً للذكرى . يتأملني النادل باستغراب . وإذْ يلمح بوادر امتعاض تفضح شرر حدقتي يتحرك مسرعاً . بلحظات يعود ؛ يضعهما أمامي . . متقابلين جلسنا . هذه أول مرّة أدعوها لتناول وجبة خفيفة على مناضد مُعدَّة بجاذبية واتساق ... وجه منى يزدهي وضاءً . شفتاها كفلقتي كرز محمرتين تتباعدان قليلاً لترسما ابتسامة طائرة وبهجة تتنامى ، تفيض بهما بحيرتا العينين حتى تنضحا بهاءً وتوهجات بدء ثائر . أحدّق فيها حاصداً سعادةً من رياض وجهِها الوديع فتشيحُ به وقد تبرعمت مسحةُ هناءٍ تجلل بستان الأهداب السود ... تتشاغل بالنظر إلى صحيفة جلبتها معي . ترفعها ؛ تروح تفردها متابعةً العنوانات المتناثرة ، حتى إذا أدركت الصفحة الثقافية لمحتها تطلق شهقةً مختزلة ؛ ثم تنطُّ برأسها :

_ مفارقة ! " عبير الحلم " قصة كاتبها يحمل أسمك .

ببرودٍ مقصود أتفوَّه :

_ وما المفارقة ؟ .. القصةُ لي والكاتب أنا .

تحدّق بي .. تتفرَّس بعيني إن كانتا تشيان بشيء من المزاح . وحين وجدتني صارم القول هتفت :

_ هذا يعني أنك قاص ولم أعرف ؟

نهَضَت ؛ وأراني مضموماً بذراعيها ، وخدي الأيمن يتلقى قبلةً وسط دهشة شاب وشابة اتخذا مكاناً لائذاً .

_ إذاً ستكتب قصةً تحكي حبَّنا الوليد .

_ هذا يعتمد على تفاعل الأحداث التي سنخلقها بمحضِ رؤيتنا ، أو تلك التي نواجهها بغير ذلك .

كلامٌ أقرب إلى النصيحة أو أدنى من الاحتجاج هو ما سمعته :

_ دعكَ من قصص الأفلام التي لا تنتهي إلا بالرسو عند تخوم الموت أو مرفأ الزواج ، واكتب عملاً متواصلاً تبدأهُ أنتَ وتترك للقراء مهمّة رسم الخاتمة عبر مخيلتهم الخاصة .

على رفيف انطفاء الشمس ؛ بعد التهام شرائح " الكنتاكي " وارتشاف عصير البرتقال ؛ خلل أنغام موسيقى غربية هادئة نهضنا منطلقين كبجعتين تحلقان في فيض فضاءٍ ثر . بين لحظةٍ وأختها تلتفت منى زارعة نظرات تتحرى قسمات وجهي كأنها لم تصدق كوني قاصّاً له قدرة التخيل وصناعة الأحداث ثم سكبها على ورق الكتابة سعياً لخلق عالمٍ يّلهب مخيلة المتلقّي ويأخذ به إلى دُنى المتعة والخيال حيث الزرع الناجز والحصاد المُنتظَر ... سألتني عن فحوى القصة فأدليت اختصاراً عن علاقةِ ودٍّ بين بائعة عطور ورجل قادته اللحظة غير المحسوبة للوقوف إزاءها متسمراً مذهولاً بفتنتها ونضارتها فيتفجَّر اللقاء حبّاً ناريّاً من جانبها ينتهي بتركها العمل والتواري ، واندفاع الآخر جاهداً للبحث عنها دونما أمل .

سألتني إن كان المكان حقيقياً فأتاها الرد إيجاباً ، " في لقائنا القادم سنذهب إليه " .

جاء اللقاء ووجدتني منى أصحبها لأضعها وسط " بوتيكات " أصباغ وعطور ومستحضرات تجميل مستوردة . غرقت أنظارُها في يمِّ الانبهار متمليّةً الأصناف الراقية المشتعلة باشتهاء يصل حد هوس ابتياعها جميعاً . اقتربت

البائعة الشابة من خلف معرض زجاجي . فرشت ابتسامة ناضجة وتحية استقبال أطلقتها طريةً يلفُّها الود . استقرأتُها تغمرني بابتسامة تمتزج بنظرة طويلة وغامضة . لا أدري لماذا فعلت ذلك ، ما أثار خشية اكتشافها من قبل منى . بيد أنَّ منى كانت غارقة بتفحّص ومتابعة أقلام " روج " تتفاوت ألوانها ، ثم تتحوَّل لمطالعة صف علب كريمات مُرطِّبة . رفعت رأسها مشيرةً للبائعة التي ما زالت تطيل النظر بي .

_ سجّلي لنا أصابع " الروج " الأحمر والكستنائي والماروني ، وأضيفي إلى القائمة هاتين القارورتين من سائل الشامبو .

تناولت مُنى الفاتورة وتحرّكت لدفع الحساب .. دار حديثٌ عابر كانت البائعة خلاله بوجهٍ مؤتَلِق . أبديت إعجابي بأسلوب العرض ونجاح الدعايات عبر الصور المبثوثة داخل المعرض ... عندما التفتُّ لمحتُ منى تلتفت هي الأخرى تصمّغ عينيها على البائعة وبواعث شك أو استنكار يتنامى فوق مشارف الحدقتين .

أنفاس الغروب تتكاثف فيقترب الليل بينما أقتربُ أنا من مجمع " الكميم " . وبالمباشر أذهب إلى مكتبة " الشهداء " أتأملها من على الرصيف . أستدعي منى فتأتيني أنفاسها حميمية تمس وجهي وصوت رجائها لي بالانتظار . تدخل المكتبة . تشتري ثلاث نسخ من الصحيفة الناشرة للقصّة . أسألها مستغرباً : ولماذا ثلاث ؟! .. يجيبني صوتها النغِم :

_ واحدة سأقرؤها كقارئة لا تعرف كاتبها . وثانية كقارئة تعيش التفاصيل مع الكاتب . وثالثة أتقمَّص شخصية بطلة القصة لأسبر صدى الانفعالات والاحتراقات التي تراودها .

أتوقّف محدِّقاً بها باندهاش :

_ انكِ تعرضين نظرية نقدية تكاد تكون غائبة عن النقاد ومتابعي الأدب .

_ لا تبالغ . ما أنا سوى قارئة . يوم ستكتب قصّتنا وأقرأها أعاهدك سأكون ناقدة لا تسلم من عنفي وتقريعي .

تطوي النسخ الثلاث ؛ تدفعها في جوف حقيبتها ... حولي أتشمم رائحتها التي كثيراً ما دعوتها أن لا تعكّرها بالمعطّرات المصطنعة . تضحك ! دوماً تتّهمني بغرابة أطواري . وعن رجائي بعدم استخدامِها العطور ترد محتّجة : الناس يستهلكون تلال المال لأجل عطور تبدّل روائح أجسادهم ويأتي رأيك ليهمّش مجهوداتهم .

_ ربّما أشذُّ عنهم ؛ لكن اعلمي أنني لا أشتهي إلا عطر أنفاسك . ولا أبغي ملأ صدري بغير عبير جسدك ، فعندي هو الأشهى والأعذب أبداً .

تقهقه ثم تطأطىء رأسها فتتحرر خصلةً حبيسة من حقلِ شعرها الكلبدوني المأسور بشال يعيق انطلاقته . تهبط الخصلة على عينيها فتقبضها السبابة والإبهام . وبحركةٍ رهيفة تزجّها إلى اضمامتها الكامنة .

آ.. لقد ذهبت منى !..

آ.. مَن مثلها يخلع عليَّ هناءة العيش ويدثرني برداء رموشها الدفيئة ؟.. مَن مثل قلبها يدخلني بستان البهجة ويغدق أبهاءه ولئلاءه وأمانيه ؟

في واحدة من لقاءاتنا المتكررة داخل حديقة السبعين جالسين كنّا تضمّنا مصطبة تنتصب تحت شجرة كالبتوس معرّشة تطلّعتُ إلى شفتيها المتبرعمتين ؛ وفي أذنها سكبتُ همسي : موفّقة زيارتنا لـ " عبير الحلم " . إنها تقدّم لي الآن ثمرة كستناء شهية .

كركرت مُنى ! .. كركرت مثل تلميذةٍ يثني عليها معلمُها . قرَّبت وجهَها من وجهي لتردَّ على همسي . تحسستُ أنفاسَها العابقة . دنوت منها . وكان علّيَ أن أقضم الثمرة الناضجة المتأهبة للقطاف باشتهاء جنوني عابث عندما انسحبت لتدرس تأثيرَ اللحظة على صفحة تأججّي وتوهجي ولظاي . سمعتُ عينيها تنطقان : " ليس الآن ! اتركها

لوقتٍ آخر . " . تفجّرت مراجلُ الشوق داخلي . ارتفعت حمّى صاخبة . لمحَت منى ضجيج الاعتلاج والتشظّي عبر شاشةِ عينيَّ فقفزت هاربة . رحت أتبعها / راحت تعدو ؛ تختفي وراء أجمّة خضراء لتجد ذراعيَّ يحتويانها من الخلف ، حتّى إذا استدارت انقضضتُ على الثمرة أمتصُ شهدَها الجنائني ثم ألتهمها وسط استرخاء ظبيتي واستسلامها ... يصدمني شخصٌ بغفلةٍ . أواجَه بصديقٍ يعيب عليَّ انقطاعي عن لقائي به والأصدقاء ، يستنكر عليَّ مظهري ، مُذكِّراً إيّاي بترافةِ ملبسي وذوقي اللذين كانا محطَّ إطراءِ أقراني .

أخطو عبر دروب الروح فألمح ذلك الشاب الذي أهرقَ سنيّه بين خوالجِ الكتب ودهاليزِ المكتبات ويافطاتِ معارض الفنون وقاعاتِ المسارح المنبثّة في اختلافات المدن . ألمحهُ في جانب آخر يتنقّل من فتاة لأخرى : فتاة مراهقة لعوب / فتاة تجهل فنون الحب / فتاة قررت إحراق نفسها إنْ لم يرد على رسالةٍ كتبتها إليه ؛ وحين لم يفعل أبصرها في اليوم التالي تُسلِّم رسالةً لغيره / فتاة تركت آخرَ ليقطف بكارتها وجاءته هو ليرمِّم حُطام السفينة / فتاة بكت على تجاهلِه لها وانكفأت حاسرةً ، منهزمةً تقترن برجلٍ آخر لا تحبُّه / فتاة عاشرته لأشهرٍ طوال ثم فضّلت سيارةَ السوبر على السير خطواً / فتاة قال لها أحبّك فاعتذرت ساخرةً ؛ إذْ علَّمتها التجارب أنَّ الحبَّ مفردةٌ أستُهلِكَت نغمتها / وأخيراً وجدَ مُنى واحدة من اللائي ستُضاف لقائمة الأسماء ، لهذا قررَّ أن يعيش الساعة ؛ يعبُّ نشوتَها وينهل بكل اندفاع من فيضِ غدائرها غير عابىء بادراك المرافىء ... تكررت زيارتنا لعبير الحلم ؛ ومعها رحتُ ألمس امتعاض منى كلّما اقترحتُ رغبةً لشراء بعض الهدايا .. وأخيراً جاء الانفجار : " لماذا تُصِر على ارتياد هذا المعرض كلَّ مرّة ؛ يمكننا زيارةَ معارضَ أخرى تبيع أشياءَ أجملَ وأفخر فصنعاء مدينةٌ زاهية تستطيب العطور وتستعذبها ؟! " . تحدِّجُني بنظرةِ استفهامٍ وعتب : " أيكون لهذا المكان سحر مهيمن عليكَ إلى درجة لا تستطيع إزالة مؤثراته عن نفسِك ؟ " .. أقول محاولاً إظهار استنكاري : " لِمَ يملأ الغيظُ وجهَكِ ، ويطفح بمجرد ذكرِ هذا المكان ؟ " .. تصمت / تُطأطىء رأسها تاركةً أناملها تعبث بابزيم حقيبتها ، تفتحه ثم تغلقة .. تفتحه وتغلقه . ترفع رأسها فتصدمني سيول الدمع الهادئة تنساب على صفاء الوجنتين السمراوين .. أصرخ بها : " منى ! ألهذا الحد تتألمين وتزعجُكِ زيارة المكان ؟! لماذا تبدين عاطفيةً بهذا الشكل المدَّمِر ؟ لماذا تضخّمين الأمر جاعلةً منه هولاً لا تطيقينه ؟ لماذا تعتبرين قصةً جّلها خيال صادقة بأحداثها ؟ ما عبير سوى شخصية وهمية ارتأيتُها بطلةً قصةٍ ليس غير .. مُنى ، أنا لكِ وحدك بكل صدقي ورغبتي ، وعبثي وانسحاقي ووجدي . أنتِ البهاء الوضّاء الذي أرشق وجودي على أمواه فيضه . أريدك عالمي المكتشَف لا تكوني كَوني المفقود وانسانيتي المُستلَبة ، بل صيري شِعريَ العذب الذي أطلقهُ في وِهاد الروح كيما أحيله أفقاً من فاكهة وخضار ومنبع خِصب وماء عذب .. آ .. لأولَّ مرّة تُفصِح منى عن جانبها المُحاط بالظل . تُضيئه / تفتح لي أبوابَ ألمها دونما سيطرة أو استحواذ يكبح عواطفها المتهالكة ... عبرَ نافذة روحها التي واربتها شاهدتُ أقبيةً دفينة وأبصرتُ ممرات زاخرة وفضاءات متقاطعة ‘، جدرانها تُعلِّق لوحات تُغرقها الكآبة ويفعمها اليأس _ جهِدَ آلهةُ السريالية ومبتكروها بعرضها أنموذجاً للإنسان المُرهَق المتعب المغدور ، المغلوب على ذاكرته ، المأسور بهواجسه الفضيعة مُحتشِدة _ حاجبةً عيون الشمس .. آ .. منى إنّي أقفُ عند " سوبر ماركت الهدى " . ألجُه وحيداً وأخرُج معكِ بعدما ابتعتِ قارورةَ عسلٍ قُلتِ أنكِ تفضّلين ثلاث ملاعق منها كوجبة عشاء تمنحكِ صفاء الذهن مُبعِدةً عن لياليك هجوم الأفكار الرمادية ودنو الكوابيس قبل رحيلك الليلكي فوق محفّات الوسن . أنا أصغي طافياً مع مدِّ السعادة ، مبثوثاً مع موج الألفة أستدعي الكلمات تتوالى شعراً تضمخها موسيقى روحية شفيفة تنبثق من بؤر الرغبة ، ساريةً خلل الأوصال التي أحسُّها طافيةً وسط إصرار مُنى بأنها ستحرص على حبّنا باقيةً لي أبداً ، أبداً . لن يمنعها عائق .. حدّثتني برموزٍ وكلمات عن غيوم داكنة طردَتها ، وأخرى عنيدة تشاهدها تتقدَّم شطرها حاملةً نُذر أعاصير تتنبأ بتدمير

حياتها وتهرس وردة الجذل النديّة ، ماحيةً فنارات الحلم / اللذة التي شيَّدتها بدءاً من أول لقاء لها بي ... أطمئِنُها : أوهام ! .. ما يعتريكِ محضُ أوهام ، تداهمُكِ مثلما تتلبّس الكثيرين من حَمَلَة تراكمات العواطف وجيشان الأحاسيس المُرهَقة ، القلِقة (لكنها كما يبدو سليلة أولئكَ المتنبئين بالكوارث قبل استحالتها واقعاً .!) ..

جاء اليوم الذي لم أُبصر منى تجلس على مصطبةٍ اتخذناها موقعاً للقاء عند أحد أركان حديقة " السبعين " حسبما الاتّفاق . انتظرتها حتى أهرقت الشمس بهاءها الذهبي وتسربلت بلون الزعفران . ثم جاء اليوم التالي وأعقبه اثنان .. هل مرِضَت منى ؟ هل تعرضت لحادثٍ ألزمها دخول المستشفى ؛ وأي سرير يضمها الآن ؟ هل ولَّد دمعها الذي سكبته آخر لقاءٍ لنا كآبةً أقعدتها منكمشة لصيقة أثاث غرفتها ؟! ..

تذكّرت أننا اتفقنا أنها ستخبرني عن طريق صندوق البريد لو حدثَ طارئٌ يعيق اللقاء .. حثثتُ الخطى إلى بريد التحرير ؛ وبكفٍّ مرتعشة فتحتُ الصندوق . تشبَّثت أصابعي بمظروفٍ لا يحمل طابعاً ، ميّزتُ كلمات منى سريعاً ... فضضتهُ :

العزيز مُراد :

إذا كانَ لكلِّ قصّة _ كما علَّمتني _ بداية يتخللها حدث وشخصية فإنَّ لها نهاية حتماً . وها هي قصة حبِّنا تدرك كلماتها الختامية . ودخولاً إلى الفحوى أقول : لم أعُد أُطيق متابعة قصة " عبير الحلم " وهي تنتفض على الورق لتستحيل قبالتي حقيقةً ناجزة .. لم تكن عبير شخصية مُختلَقة كما ادَّعيت .. كلاّ . رأيتُكَ في عديد زياراتنا للمكان تغرز عينيك في عينيها كأنها صومعتك الروحية ، وتتملّى خارطة وجهها كأنها ربوعَك المبتغاة بينما هي تبعث إليك ابتسامةً خفية من وراء حجب عينيها كأنها تتقصَّد العبث بأعصابي .. تتبادلان رسائلَ ورموزاً لا تخفى على امرأةٍ طُعِنت يوماً من زوجٍ كان يمارس فعلَ ارسال شفرات الوله لفتاةٍ كانت تعمل معه في أحد أقسام عمله .. رأيتُكَ تُعيد خطيئة زوجي لترسم لوحةً تتنافر ألوانُها وتسيل لتفتح نافذةً قاتمة تقتل بؤرَ الضوء المنبعثة من حبِّ زرعته لكَ على تخوم القلب ؛ تُعتِم الطرقات التي ارتأيت لها النور الدائم . لقد أوصلتني مُجبَرةً إلى نهايةٍ لم أكن أتوقّعها .. أدري أنكَ ستكتب قصّةَ حبّنا ومساءات احتراقاتنا ، وستنهيها بهذه النهاية التراجيدية بينما تمنّيتها مفتوحةً بهيجة . وبهذا أثبتت الأيام خطأ نظرتي .. أدري أنكَ ستعود إلى أماكن حلمنا الجميل تبكي أطلاله ، معيداً حوارات قلناها ونحن عائمان بزورق الرفاه والشَّمل .

إذا شئت البقاء داخل حلبة ذلك السِفر المنتهي _ وهذا ما لا أتمنّاه لكّ كي تتعذَّب ولكن مع ذلك _ عُد إلى أغانٍ ردّدناها ، وأماكن زرناها . وسأعود أنا لأحيا بين تفاصيل حياة زوجٍ لا يكف عن ارتكاب الأخطاء وصورة حبيب اغتال سعادة حبيبته ليلة كرنفال حبِّهما الجميل .. ستبقى تعيش لذّة الذكرى وعذوبتها . أمّا أنا فسأبقى أتلظّى فوق جمر الخيبة والألم صاغرةً خاسرة ... إنني عائدة إليه ! إلى عدن اضطراراً .. وداعاً ! .. وداعاً !

منى

صنعاء _ يونيو / 1996

زيد الشهيد

زيـد الشـهيد

مدينـة الحجر

مجموعة قصصية

صدرت طبعتها الأولى عن (إصدارات اتحاد الأدباء والكتاب في العراق) في بغداد عام **2004**

المحتويـات

(**1**) مدينة الحجر

(2) نحن والزورق والعم كسّار

(3) القرار

(4) بقايا حلم

(5) الوباء

(6) تبّون والحصان

(7) طيور سعد

(8) رحيق الهمس

(9) ذاكرة الأرض

(10) آه ، نجاة

مدينة الحجر(*)

كتلالٍ لم تطأها قدمٌ من قبل تبدو المدينةُ من بعيد .. وفي المدى المنظور تتناثر أحجارٌ ترتفع عن الأرض المنبسطة بارتفاعاتٍ متفاوتة .. هناك بقايا بركٍ نضبُ ماؤها فتشققّت ؛ واستحالت الشقوقُ الكبيرة مآويَ لديدانٍ سود كبيرة ، تدخل وتخرج بحركةٍ جنونية ... ولأنَّ الشتاءَ قد أنهزم ولم يتبقَّ منه إلاّ أنسام باردة ولجت من أبواب الربيع المُشرعة في ظهيرة هذا اليوم فأنَّ أجمّات من نباتات صحراوية شرعت تخطف لونَ الخضرة الفتية وتصطبغ بها موحية باستمرار عطاء الحياة ؛ نافيةً الجدبَ التي تلوِّح به مقابض الصحراء .. لم نأتِ إلى هذه التلال إلاّ بعدَ تصميمٍ واتفاق على طمر الهواجس في نفوسنا ، والانعتاق من كلمات الخوف والتحذير المنسكبين من أفواه الكبار في مسامعنا .. سنواجه البشر الذين صبَّ الله عليهم غضبه فأحالهم حجراً . سندخل مدينتَهم الحجرية . لن تخيفنا أنفاسُهم وتأوهاتُهم الصادرة من ثقوبِ محاجرهم وأنوفهم وأفواههم . لن نأبه للطيور الجارحة ومناقيرها المعقوفة ، ومخالبها الخنجرية المتربصة التي سنشاهدها فوقَ الجثث المتحجّرة ... هكذا كان تصميمُنا ، وهكذا كانت كلمتنا واحدة / صلبة . لكن هذه الصلابة وذلك التصميم سرعان ما تلبّسا بلبوس التردد والوجل ؛ وكادت أسوارهُما تتفتّت كلّما اقتربنا من المدينة ، وكلّما اكتشفنا بعدنا عن قريتنا . صار بعضُنا يبطئ في حركته تاركاً من كانوا متخلّفين يتقدّمون . وما جعلنا على وشك العودة والانسحاب مدحورين هو النعيبُ الذي انطلق بغتةً من غربان كانت تطير فوقنا ولم نتبيّن وجودها .. يلزمنا الكثيرُ من العزيمة كي نقطع الأمتار القليلة المتبقية لنغدو بمواجهة تلك الهياكل المطمور جلّها تحت رمال كلّستها تعاقبات القرون ... خمسةً كنّا بعد تخلّف اثنين من صحبنا حنثا بوعدهما وبقيا في القرية ؛ وبالتأكيد كان الخوف سبباً في إحجامهما عن المجيء ... توقّفنا للحظات . رمقَ بعضنا البعض . قرأ كلٌ منّا سورَ الخوف من المجهول في عيون الآخرين . لكنَّ ثمّةَ بقايا للتحدّي ما تزال عالقةً في " سبّاحات " نفوسنا الوجلة ؛ وهذه البقايا هي التي انشطرت مراراً مزيحةً عن طريقها مطبّات الخشية والتردّد ... خطونا مقتربين ؛ وكلّما اقتربنا ارتفعت نواصي البناء وبانت أسوارُ المدينة ناهضةً من بضعة تلال متجاورة ... وحين اقتربنا أكثر صرنا نرى لافتةً حديدية مائلة زالَ بعضُ طلائها ؛ استطعنا من خلال التفرّس بها تجميع حروفها المجتزأة ، فقرأنا (مدينة الوركاء) ، وتغافلنا عن الحروف المتجاورة (**uruk**) . قلنا هذا أول أثر يوحي لامتداد يدِ عصرنا ؛ ولم نرَ غير ذلك .

اقتربنا من سورٍ متهشّم الحواف ، متباين الارتفاعات ؛ يهبط جزءٌ منه حتى يصبح قريباً من رؤوسِنا . رفع أطولنا قامةً رأسه وأطلَّ على ما وراء السور .. همسَ يطلعنا على ما رأى ؛ قال : " إنها مدينة تلال وجدران من " اللِبن" توشك على الانهيار .. هيّا دعونا نتسلّق السور ونهبط ؛ ولكن بحذر ." ... شرع يرفعنا واحداً اثر

الآخر . بعد لحظات خيّلَ إلينا أنّنا قطعنا آلاف الأعوام عائدين إلى زمنٍ غائرٍ بعيد .. وقفنا نتطلّع بتوجّسٍ تبررّه طبيعةُ موقفٍ لا يمت إلى الألفة بشيء .

_ ماذا تفعلون هنا يا صغار ؟

هاجمنا صوتٌ من خلفنا .. تجمّدت أوصالنا ، وسرى تيّارٌ من الرعب اغتال بقايا طمأنينةٍ تضمّها جوانحنا . هذا واحدٌ من أصوات الموتى أيقظه وطء أقدامنا ؛ أو أنّه مَلَكٌ سيتولّى استجوابنا ، وأنّها ليست إلاّ لحظات تسبق تحنيطنا واستحالتنا حجراً .. ستتجمّد عيوننا ، وتجف قلوبنا ، وتتجلّمد أوصالنا . سنغدو كتلاً حجرية لا ملامحَ لها .. لم نجد فرصةً تتيح لنا النظر في ما بيننا . عادت صورة قريتنا / أمهاتنا / آبائنا / نعاجنا / مواسم الزرع وسواقي المياه . دعونا الأئمةَ والأولياء والسادة الميتين منهم والأحياء . دعونا شيخَ القرية وكلماتٍ تقول أنَّ رحمةَ الله واسعة ولكن ويل لمن يشرك به فلا يطيع أولياءه ويسترشد بنصائح الكبار وبركاتهم ... اختلجت حناجرُنا ، وتلاشت بواعثُ النطق . تسللَّ إلى آذاننا صوتُ أقدامٍ بخطوات قصيرة . وحين التفتنا مستعينين بما تبقّى لدينا من شجاعةٍ ألفينا أنفسنا أمام عجوزٍ ملتحٍ ، له ملامحُ أهلنا وسحنتهم . يعتمر كوفيّةً ألقى طرفيها فوق رأسهِ ؛ مستنداً على عصا من جريّد النخل .. اقترب منّا راسماً ملامح ودود كأنّه يستنطق وجوهنا المتّشحة بصفرةٍ صارخة .. تلعثمَ أحدنا وتفوّهَ بصوتٍ متقطّع : هاه....

_" كيفَ وصلتم إلى هنا ، يا أولاد ؟"

_" المكـ.....اااان " .. قالها أكبرنا مرتعشاً .

– "ما به المكان ؟"

_ "جئـ....نا لنشاهد مَن غضبَ الله عليهم فأحالَهم حجراً ." .. نطق آخر كما لو كان سيقع أرضاً ويغمى عليه .. افترَّ فمُ الرجل عن ابتسامةٍ مقتضبة . رفع يده الطليقة يعدّل بها كوفيته المنسحبة عن رأسه قبل أن يسألنا :

_ هذا ما سمعتموه من أفواهِ الكبار ؛ وهذا ما يدور في أذهانكم .

منحنا كلامُه ثقةً وشجاعةً أعادتا شيئاً من توازننا . صحنا معاً : " نعم ." .. خطا تسبقه عصاه فتبعناه حذرين . كان واثقاً في سيره .. لم تغُر قدماه ؛ ولم يسقط في حفرةٍ تأخذ به إلى أقبية لا نفاذ منها كما خيّل لنا .

_ حسناً فعلتم بمجيئكم . لقد كسرتم حاجزَ الخوف الذي زرعَهُ أمامكم محذّريكم . سأكون سعيداً معكم ؛ وسأُطلعكم على بعضِ مّما في المدينة .

تملكتنا الشجاعةُ ، وتبدّدَ الكثير من وتائرِ الخوفِ القابع في نفوسنا . شعرنا أنّنا إزاء رجل يحمل ما يُشبِع فضولَنا ، ويحل رموزاً متشابكة في عقولنا .

قال أحدُنا : نريد أن نرى .. وقال آخر : نريد أن نسمع .. وقال آخر: نريد أن نطّلع .

ضحك وقال : سيكون لكم ما تريدون .

صهل حصانٌ من خارج السور فابتسم الرجل لسماعِه . خمّنا أنَّ أحداً قد جاء ، بيد أنّه نظر في وجوهنا ، ثم قال :

–" هذا حصاني الذي أتيت به ، ينقلني كل يوم إلى هنا . فأنا يا أولاد أعمل حارساً لهذه المدينة عينتني الحكومة منذ أربعين عاماً . وما ترونه الآن كان مدينةً حضرية ؛ أُناسها بشر مثلنا ؛ رسموا بوسائلهم البسيطة ما أذهلَ الكثيرين ممَّن قدموا باحثين ومنقبّين . أولئك القوم كانوا ينعمون بماءِ الفرات ، وكان الفراتُ

لهم ماءً مقدساً وشرياناً يهبهم الحياة والبقاء . وحينما غيّرَ هذا النهر مجراه نعبَ نذيرُ الشؤم ، ودقَّ ناقوس الفناء فهجروا المدينةَ وتفرقوا أشتاتاً . ضاع بعضُهم في شعابِ الأرض وبطونِ الصحارى فيما رحلَ آخرون إلى الجنوب تاركين مدينتهم تتلقّى غزوَ الرمال وعواصفَ الصحراء المتقادمة بكلَّ قسوةٍ وجفاء . ولم يدر بخلدِهم أنَّ بشراً سيأتون بعد آلاف السنين ليطأوا مدينتهم ، وينبشوا قبورَ موتاهم ، كاشفين أسراراً أودعوها رحمَ الأرض وأهالوا فوقها دموعَهم ومراثيَهم وأحزانهم . "

شدّتنا خيوطٌ من الانتباه لكل كلمةٍ تفوّه بها . كان كلامه مشوّقاً وجديداً علينا . إنّه يمنحنا ثقةً ، ويبددّ هواجسَ ، ويكسبنا نوراً ، ويمحو أوهاماً ضبّبت الأشياءَ وخلطت تخيّلاتنا بتهويماتٍ لا أساس لها . لماذا ظلَّ أهلونا بعيدين عن الحقيقة ؛ متوجّسين من ضوء المعرفة الماثلة التي لا تحتاج إلى جهدٍ كبير ..؟! لماذا خذلتهم الشجاعةُ وأعماهم الزيف فابتعدوا عن أنوار الحياة الساطعة وانكبّوا يحرثون في ثرى الظلام ؟! ...

بعدما قرأ هذه التساؤلات في عيوننا ؛ وبعدما حصدَ الشوقَ المحتشد في حدقاتِنا ، قال :

_ " لقد رافقتُ من حفروا ونقّبوا فأزالوا تراكماتِ الحجارة وتكلّساتِ الرمال ، مظهرين الأسوارَ والمعابد وهياكل البيوت . وما يساوركم الآن من ترددٍّ هو ذاته كان يساورني وأنا أراهم منهمكين ، متفحصين . عدّتهم مساطر خشبية ومطارق مطّاطية ، وأزاميل دقيقة ، مزيحين الرمال والأتربة بفرشٍ رقيقة ناعمة . كنت أقفُ خلف ظهورِهم متوجّساً ، خائفاً محتاطاً من مجهول اعتقده سيشقذ الأرضَ في أية لحظة فيصب لعناتِه وبطشَه فوق رؤوسِ أولئك الدخلاء العابثين . كانت عيونُهم تلتمع دهشةً وسحراً وهم يُظهِرون من بين الرمال أشياءً أضجرها تراكمُ الأعوام .. لقد أخرجوا هياكلَ حجرية لملوكٍ وآلهةٍ . عِدداً ولوازم بيتية ؛ منها أوانٍ وأباريق ، وألواحاً مفخورةً ، وأختاماً نُقشت عليها رموزٌ محزّزة ، ورسوم حيوانات ولوازم صيد ، ورؤوس وحوشٍ بريّة .. أخرجوا حلياً ذهبيةً حَوت قلائدَ وأساورَ وأقراطاً . كما أخرجوا من بين ما أخرجوا رأسَ فتاةٍ نُحتت من الرخامِ الأبيض الناصع ... ما زلت أتذكّر ذلك الوجه الأحمر المحتّقن والجسد العاري ساعةَ اكتشافِه الرأس الرخامي مَطموراً . أتذكّرهُ الآن وكأنَّ صورته حدثت بالأمس . شاهدته يتركَ صحبه ويعدو ذاهلاً ، هائماً ، مهووساً . يرطن كلماتٍ لا أفهمها ؛ مطلقاً صيحاتٍ حادّةً في الهواء كأن عقرباً لسعته أو مديةً طعنته .. وفي تلك الليلة جعل المصباحَ محاذياً الرأس المنتصب الذي يتوسط منضدة خشبية . راح يتأمله . ظلَّ مستيقظاً طوالَ الليل ؛ ناهضاً بين لحظةٍ وأخرى ، فاحصاً ملامح الوجه بمكبّرٍ زجاجي ... لا أخفي عليكم أنّ هؤلاء وغيرهم ممّن جاءوا قبلهم أثاروا لديَّ حافز اكتساب المعرفة فتعلّمتُ جاهداً القراءةَ والكتابة . ساعدتني في ذلك اندفاعاتُ الشباب حيث كنت أخوضُ في هيجانه .. تابعتهم ، خالطتهم . درستُ كلَّ خطوةٍ يخطونها . تعلمتُ لغاتهم وفهمتها ؛ اطّلعت على فحوى كتبٍ كانوا يأتون بها فأُعجبتُ وتأسّيت . كيفَ نملك كل هذا التاريخ ولم ينل غير الإهمال واللامبالاة ؟!! "

" على امتداد أعوام كان غيرُهم يأتون. لهم شعور شقر مشعثة ، وقمصان متهرئة ، وسراويل قصيرة ؛ حاملين حقائبَ من القماش يستلون من داخلها خرائطَ يفرشونها أرضاً ، ثم تروح أصابعهم تتابع خطوطاً حمر حتّى تصل نقطةً عندها فينقرون فوقها وألسنتهم الثقيلة تلوك : أوروك .. أوروك ." ..

توقّف الرجل يستقرىء وجوهنا إنْ كانت تشي باهتمامٍ ورغبةٍ في ما يقول ، وما قاله لا يدنو إليه الشك . فكثيراً ما كنّا نرى أولئك الغرباء ذوي العيون الزجاجية الزرقاء والبشرة المحتقنة يقطعون قريتنا أنصاف عراة ، مترجّلين في طريقهم إلى هذا المكان .

_ " انظروا هناك . " ... قالها الرجل الحارس .

تطلّعنا جنوباً . ثمّة جدرانٌ من " اللِبن " المتماسك ، دّقّت فيه كتل اسطوانية من الحجر الأزرق المفخور تشبه مسامير ضخمة تساقطَ بعضها أرضاً ، تاركةً ثقوباً فاغرة كأنّها تترصّد خطى الغرباء المتطفّلين .

_ " تلك هي بيوتهم ؛ وهذه دروبهم . وما تحتها تقبع كنوزهم ومخلّفاتهم . "

خطا قليلاً فتبعناه . قادنا عبرَ دربٍ صخري . صرنا بمواجهةِ بناءٍ عالٍ ذي مدخل مستطيل يرتفع فوقه طوق من "اللِبن" المفخور ، تطليه زرقةٌ لامعة ، وتطعّمه فسيفساء تبرق مشعَّةً بصفرةٍ شابها الغبارُ المتكلّسُ منذ قرون ... وقبل أن نسأله من يكون هذا البناء بادرنا بالكلام :

_ " نحن على أعتاب معبد آنو إله السماء عندهم ، وأنانا آلهة المدينة ."

دلفنا إلى رواق تتسيّده العتمة ، ويغفو على حيطانه هواءٌ يفشي سرَّ قرونٍ مبعثرة .. تسللّت أشرطةٌ من ضوءٍ كابٍ خلال كوى قوسية صغيرة تحاذي السقف فتتّبدد في فضاء الرواق والمعبد قبل ملامستِها الأرض .

– " هنا اعتاد أهل الوركاء تأدية طقوسهم وممارسة شعائرهم مجتمعين ، متوحّدين . ".. قالها الرجل وقد تغيّرت نبرات صوته ؛ مُبدياً مهابةً وتبجيلاً ، متقمّصاً روح إنسان آخر . " وهنا كان الخطباء والشعراء والمنادون يتبارون . تدور حواراتهم ، وتلقى أشعارُهم من أفواهٍ صادقةٍ ونفوسٍ ساميةٍ متضرِّعة ، وأمانيَ تبحثُ عن سماءٍ وحيها وديمومتها . " ... يأتي الجميع مرتدين ملابسَ مزركشة ؛ معتمرين عمائمَ نُسجت من خيوطٍ صوفيةٍ دقيقة يحيطها صفٌ من ريش الهداهد وقوادمَ أجنحةِ العصافير .. رأيناهم ينتصبون صامتين ؛ لا تبدر منهم نأمةٌ ولا يرمش لهم طرف . نساؤهم ترفلُ بثيابٍ توشّيها زهيرات بريّة لها لون الزنابقَ والبنفسج . تُحلّي معاصمهن أساور ذهبيةٌ مطعّمة بالشذر الأزرق والأحمر والأخضر . تحيط رقابهن قلائد من ذهبٍ وفضّة تتدلّى منها رقائق تأخذ شكلَ وريقات التوت .. بينهن كانت الحواري نصفَ عاريات ، يرششن ماءَ الورد ويبخِّرنَ الهواءَ بأبخرةٍ مستخلصةٍ من أعشابٍ تُزرع في بقعٍ تباركها وتحميها الآلهة وتسهر عليها عيونُ القدّيسين .. وعلى شريطٍ من أرضٍ مرمرية خطا كهنةٌ عراة الصدور ، حليقو الرؤوس ؛ رافعين بأيادٍ ريشية الملمس سلالاً تملؤها فاكهةٌ اختلط ضوعُها بالأبخرةِ المتصاعدة ؛ وجراراً طافحة بنبيذِ الخلود والديمومة ؛ وصحوناً حوت رزّاً جنوبياً تعلوه أفخاذ غزلان وضباء وأيائل تفوح منها رائحةُ الشواء ... يتقدّم كلُّ هؤلاء ليضعوا ذلك على قاعدةٍ مرمرية مستطيلة أمام الإله " آنو " الجالس بوقارٍ يبعث على الرهبة والخشوع . إلى جواره جلست الملكة " أنانا " حارسةُ المدينة ومانحةُ الخصب ؛ رافلةً بزهو الشباب وطاعة الإله وحب الرعية ... تطلّعنا بوجوه بعضنا . نظرنا إلى الحارس العجوز ، ألفيناه مواصلاً حديثه كأنّه ليس معنا ، أو كأننّا لسنا معه . تصاحب صوته أنغامٌ ابتهالية كما لو كان يُرتّل موشحاً دينياً أو حداءً في مفازات مترامية ... بصوتٍ واحدٍ هتفَ الكهنة :

_ يا آنو العظيم . ها نحنُ نعلن ولاءنا وقدسيتنا لبركاتكم ، ونريد لمدينتنا مثلما نريدها لكم خلوداً أبديّاً .

تردَّد من الجمع المحتشد وقوفاً بمحاذاة الجدران وممّن اتخذوا هيئة الخشوع صدى أصواتٍ رخيمة ، متآلفةٍ هابطة تارةً ثم صاعدة .. تناغمّ تعيدهُ الجدرانُ والسقوفُ فيلتقي ، ويمتزج ، ويذوب ؛ مستحيلاً سحابة غفرانٍ وتطهُّر وبركات ؛ تهبط بأنّاة هاميةً رذاذاً من الطمأنينة على الرموش المُطبقة ، والشفاه المتمتمة ، والرقاب المتصلّبة ؛ والجةً النفوس المستلقية على راحات الأكف المنبسطة ، آخذةً إيّاها بعيداً إلى عالمٍ سديمي ، تمر عبر أجواءٍ عاصفة ورياحٍ ممطرة ، وأعاصيرَ مجنونة . ثم تأخذها أيادٍ حانية فترسيها على مرافىء آمنةٍ تحدّها مروجٌ خضر تحتشد فيها الزروعُ ويتنامى فيها الثمر ، وتندلق المياهُ بلّورية لاصفة .. أيادٍ تتيح لها الاستلقاء على الندى العذب المتشبّث بأحضان العشب الأخضر اليانع ، فتغسل تلك النفوس بطهارةٍ أبدية

وتعود على جناحِ الحلم ورذاذِ الغيمة إلى العالم الأرضي فتثوب تلك الأصوات الرخيمة المتآلفة تردّد في فناء معبدِها ، وحضرةِ آلهتها :

_ نعلن يا آنو العظيم ؛ يا قاهر الأعداء وحامي حمى الوركاء ولاءنا المطلق .. ويا أنانا ؛ يا آلهة الخصب والنماء ارضعي الأرضَ ديمومةً وعشباً تضيعُ فيه قامةُ إنسان ؛ وابعدي عنّا زحفَ الرمال التي يرميها الأعداء في وجوهنا . أبعديه .. أبعديه .

انحنى الكهنةُ أولاً وسجدوا برؤوسٍ مطأطئة فانكمشت أرديتُهم وسحبتها أكتافُهم العريضة فبانت ظهورُهم بيضاءَ ، ملساء تتكدّس تحت سطحها طبقاتٌ من شحومٍ رخوة . تبعتهم بذات الحركة بقايا الجموع المحتشدة ، المتلاصقة .. ساد بعدها هدوءٌ ثقيل قبل أن ينهض الكهنةُ وتنتصب أجسادُهم فتحاكيهم الجموع ؛ مستديرين يميناً ، متخطّين دربا معاكساً لدربٍ سلكوه عند دخولهم . كانت الرؤوسُ قد اتّخذت هيئة الخشوع وأطبقت الأيادي على الصدور ، وراحت العيونُ تحدِّق في قاعِ الأرض متلاحقةً مع حركةِ الأقدام المتتابعة وحفيفِ أذيال الأردية الهابطة بتماسٍّ مع صلابةِ الدرب دون الالتفات يميناً أو شمالاً ... هوّمت سطوةُ الصمت علينا فألفينا ألفنا نسيرُ مع الركب الوئيد حتّى انتهينا إلى بابٍ يعلوه طوقٌ صخري شبيه بالباب الذي اجتزناه .

خرجنا لتسقط أنظارنا على ذيولِ الشمس المنكمشة ، ورعاة من بعيد يقودون حيواناتهم صوب قراهم ، وغيوم تزحف غرباً تسبقها أرتالُ طيورٍ راحلة .. نظرنا إلى وجه الحارس فأنبأتنا عيناه مبحراً في زورق التاريخ الغائر بعيداً في أعماقِ الزمن السحيق ... تنبّه لوجودِنا إلى جانبه . تطلّع فينا ، ثم ترك عينيه تنتقلان باتجاه الأفق . قال :

_ " فاتكم الوقت ، وقريتُكم تبعد كثيراً . عليكم بالعودةِ قبل أن يدركم الظلام . "

صهلَ حصانُه صهيلاً متقطّعاً إيذاناً بالعودةِ وترك المدينة تحرس نفسَها بنفسِها .

انطلقت ألسنتُنا تتفوّه بالشكر والعرفان ... شددّنا على يده ، وقلنا : إلى اللقاء .. تحركنا مبتعدين حتى أدركنا اللافتة الحديدية المائلة . وقفنا عندها .. تناول أحدُنا حجراً وكتب : ذكرى علي وجواد وطاهر وكامل وقاسم .

شتاء – 1992

السماوة

(*) فازت بالمرتبة الأولى في مسابقة القصة القصيرة التي أقامتها جريدة (الجمهورية) العراقية عام 1993

نحنُ والزورق والعم كسّار

لم تكُن المدرسةُ لتبعد عن بيوتِنا المتناثرة على قِفرٍ من خلاءٍ مترامٍ لولا النهر الذي يفصلُها عنّا .. تتهاوى أحلامُنا وتنطفىء كلّما تذكّرنا ورؤوسُنا على الوسائد المواسية أنَّ علينا اجتيازُه في اليوم التالي ، فنتساءل بالتياع : " ماذا لو كانت المدرسةُ على مشارفَ بيوتنا ؟ أو كنّا على مرمى حجرٍ منها ؟" .. لكننّا نتذكّر أنَّ الجانبَ الذي تقع فيه المدرسةُ يقع فيه طريقٌ معبّد ومرورٌ سهل ، ومركباتٌ كثيرة تجري ؛ فتندحرُ أسئلتُنا وتلوذُ منكمشةً في خبايا النفس .

لا جسر يربطُ ضفتي النهر .. وليس لنا لكي ندرك الجانب الآخر سوى الزوارق .. صغارٌ نحن وأهلونا لا يساورُهم الأمانُ إلاّ مع العم كسّار . والعم كسار لديه زورق هو الوحيد القادر على احتوائنا والأخذ بنا إلى الشريط الرملي .. يدفعُ الماءَ بمجدافه فيتهادى الزورق .. قليلاً وتتسلّق أقدامُنا السلَّم الصخري ، المتآكل (يجهد العم كسار في تعديل هذا السلَّم ، وإدامته من وقتٍ لآخر حبّاً بنا ، وعطفاً علينا .) ، وحين ندركُ آخرَ درْجةٍ فيه ندرك أيضاً أننا بلغنا الأمان ، فننفضُ عنّا غبارَ الخوفِ ونجد أنفسنا على خطواتٍ من الطريق المعبّد .

أصيحُ :

_ يا للطريقِ الجميل !

ويصيح شاكر :

_ آه ، لو استلقينا عليه !

يعقبه كامل متحسراً :

_ لو كان قريباً من بيوتنا !

_ نعم .. نعم ! نهتف بصوتٍ واحد .

_ وهل نسيتم الصيفَ ؟ والصهدَ المخبوء في أسفلتِه اللاهب !.. يقاطعنا عدنان ... فنتمتم :

_ آه .. الصيف ! .. الصيف . العرقُ النازفُ من أجسادِنا المتفجّرة باللعب والنزق !! .. اللهاثُ الطافحُ من صدرِ الأرض ؟! ..الزنخُ المتبخّر من روثِ الأبقار المعمول أقراصاً تترصدنا كعيونٍ مطفأةٍ أنّى خطونا ؟!

_ الصيف .. ؟

_ الصيف ..؟

وبكلمةِ الصيف نتذكّر العطش فنحسُّ بالظمأ ونتساءل لماذا لم نشرب من ماءِ النهر ؟ ! لكنَّ خزّانّ الماء الماثل أمام أنظارنا _ عند مدخلِ المسار المُفضي إلى بابِ المدرسة العريض _ يقطع علينا عتابَ أنفسِنا ..

نتقافزُ كالقطط ، ونعدو للظفرِ بصنابيرِه الثلاثة .. نفتحُها لنملأ أفواهَنا من دفقِها المنهمر (ترك مديرُ المدرسة الشابُ مدرستنا بعد الحصة الثانية . رأيناه من شبّاك صفّنا ينتظر مركبةً نازلةً إلى المدينة . ورأيناه وهو يصعد باصَ القرية الخشبي ويختفي . وغب مرور يوم أو يومين جيء بخزّانٍ كبير . قام كبارُ التلاميذ بنصبه وإسناده . وفي اليوم التالي قدِمت سيارةٌ حوضية ، توقّفت قريباً من الخزّان . نزل منها رجلٌ يرتدي بدلةَ عملٍ زرقاء . ومن خلفِ المركبة سحب خرطوماً طويلاً أمسكَ بطرفه ، وبلحظاتٍ تدفّق – مثل حبّات اللؤلؤ _ ماءٌ رائق .. قليلاً وامتلأ الخزان .. في الفرصةِ التالية كنّا نتسابق فنتحلّق حوله ونملأ أفواهَنا بماءٍ لم نعرف له طعم من قبل .) ونلمح وراءَ شبّاك إدارةِ المدرسة المديرَ الشاب يتطلّع ، وابتسامة رضا يبوحُ بها وجهُه الأسمر . وحين اقتربنا ، سمعنا صوتاً فيه رقّةُ الأبِ وحنانُ الأم ، يسألنا :

_ هل ارتويتم ؟

نلوذُ ببعضِنا خجلين .. تهربُ سورُ العرفانِ والبوحِ بالشكر . لكنَّ عدنان بجرأةِ المجيب الواثق ، يردُّ :

_ نعم ؛ أستاذ .

ذات يوم ، بعد أنْ قذفَ بنا الزورق ، وودّعنا العم كسار بنظراتٍ ودود حانية اتّقدت الشقاوةُ في نفوسنا .. تصارعنا على أرضٍ ترابية هشّة . تقافزنا .. ضحكنا .. صرخنا ، إلاّ عدنان ! كان هو والصمتُ توأمين .. توقّفنا نرمقُه بارتياب . عرفنا أنَّ وراء صمتِه رأياً مغايراً ، فيه لومٌ صادق وكلامٌ مسموع .. هو يكبرُ أكبرَنا بسنتين أو ثلاث .. نتلمَّس في خطواتِه شجاعةَ الواثق وعينَ المتبصِّر . منه نستمدُ قوتَنا ؛ محاولين مجابهة أشباح الخوف الكامنة في أعماقنا .. مقارعين عواقبَ التحذيرات التي تصبّها هواجسُ أهلينا في مسامعنا كلّما خرجنا أو ابتعدنا عن دائرةِ أنظارهم .

نصاحبُ عدنان وهو يهاجمُ بنات آوى في أوجارِها ؛ ويطاردها واثقاً منتصراً .

ونصاحبه وهو ينصبُ الكمائن والشِّراك للأرانبَ السمر ، فيمسكها ويعلّقها من آذانِها على غصن شجرةِ النبق المنتصبة في العراء ؛ بعيداً عن بيوتنا مستأنساً بصوتها الرفيع . ونصاحبه وهو يقودنا إلى فرادى النخيل المتناثرة هنا وهناك .. يحتضن جذوعَها ويتسلقّها حتى يدرك تيجانَها فيرمي بالرطب الناضج المعسول .

_ عدنان ؛ ماذا دهاك ؟!

يصمت عدنان .. نقول :

_ نراك ساهماً ؛ يطوِّح بك الصمت كلّما قدِمنا صباحاً ، أو رجعنا عائدين إلى بيوتنا .

_ العم كسّار . . يجيبُ عدنان ؛ وعيناه تنتقلان من وجهٍ لآخر .. العم كسّار يكبر . لم يعُد يقوى على نقلنا . وأمس ، سمعته يكلّم المدير حين جاءَ لاستلام المكافأة المخصصة له جرّاء نقلنا يومياً ، فيقول : لقد تعبت يا أستاذ . يلحُّ أهلي وأبناء قريتي أن أتركَ الزورق ، لكنّه يعزُّ عليَّ ترك التلاميذ . مَن سيجيء بهم إلى المدرسة ، ومن سيعيدهم إلى أهليهم ؟

وتنقضُّ سياطُ الحزنِ علينا كلّما شاهدنا العم كسّار وأيامَه تذوي ، وتتهاوى مثلَ ثمارٍ ذابلة . يتباطأ في مشيتِه وصولاً إلى الزورق .. يلهثُ بعد كلِّ ضربةِ مجداف ،، العم كسّار كريمُ النفسِ ، طيّبُ القلب ، حلوُ اللسان . نقرأ نقاءَ روحِه وخصبَها عندما تمسُّ يدُه الحانية رؤوسَنا ، أو يضمّنا إلى صدره .. وحين يكلّمنا نكتشفُ فيه خزينَ الحكايات ، وتراكم الأمثال . يحكي لنا عن سفرِه وارتحالاته .. حكاياته مع النهر / الماء / الزوارق / المشاحيف / أهوار الجنوب / مواطير النهر الكبيرة / سفن الصيد / سفره إلى الخليج ؛ هناك حيث الماءُ المالح يحاور الرمالَ الصفراء ؛ وحيث اللآلىء تقبعُ سجينةَ القواقع الصُّلبة القاسية .. ونروح نسأله :

_ هل شربتَ الماءَ المالح من البحر ؟

_ وهل للبحرِ حدودٌ ينتهي إليها ؟

_ وهل رأيتَ جنيّة البحر ، والعروسَ ذات الذيل السمكي ؟

_ وهل ... وهل .....

والعم كسّار لا يضيق ذرعاً بأسئلتنا .

يجيبنا مرةً باهتمام ؛ ومرّةً يبتسمُ أو يفجّر ضحكةً تدمعُ لها عيناه الضيّقتان ، وهو يستقرىء لهفةَ الانتظار، وقلقَ التوجس على وجوهِنا المستفهمة ، أو ربّما على غرابةِ أسئلتنا وبلادتِها (حكى لنا عن العواصفَ التي تتصارع في البحر فتطولُ راكبيه : الصمودُ في وجِه الريحِ يمنحُ السفنَ الأمان . هكذا كان يردد متحمّساً ، مشدوداً . نلمحُ في عينيه شرراً يتّقد كأنه يستحضر أيامَه السالفة . حكى عن شبابِه ونوادره " للشباب طقوسٌ من لا يتقنها يلفظه الشباب فيهرم سريعاً " . ويوم أبِحنا له بعيونٍ تفيض أسفاً عن حزنِنا وخوفنا عليه ؛ أجابنا وعيناه تلتمعان بابتسامةٍ هي مزيج من الأسى على نفسه ، والشفقة علينا :

_ هل تريدون للحياة أن تدوم للجميع ؟ سيأكل أحدُنا الآخر لو صارت كما تتصورون .

هي الأسئلةُ المؤلمةُ ، المتوارَثةُ مَن يقدِر على خنقِها ورميها إلى العبث واللامبالاة ؟!

أسئلةٌ :

_ أطلقتُها على جدّي ، فهزَّ رأسَه مرات عديدة قبل أن يجيب : ما زلت صغيراً على الإجابةِ يا ولدي .

_ وأطلقها شاكر على أبيه . فتحسّر ولم يجبه .

_ وأطلقها كامل على أمّه . فبكت وضمّته إلى صدرها .

ونبقى نطلقها على أنفسنا ...

ويبقى النهر يسير ...

ويبقى الزورقُ ينقلنا باستمرار ..

وتبقى الريحُ تارةً معنا ، وأخرى عكسنا . وقد ازدادت هذه الأيام ففجّرت الخوفَ والهواجسَ لدى أهلنا وجعلت المديرَ الشاب ومعلمينا يبوحون علانيةً بقلقٍ ممضٍّ علينا . تشرّبت مسامعُنا بتحذيراتِهم وخشيتهم من أنْ يصيبنا سوء . صرنا نتساءل حيارى ، مرتابين ، هل يعقل أن نترك المدرسة وراءنا فنقطع آخرَ حلمٍ نحتفظ به في حدقاتنا ؟!

ذلك الصباح أنبأني سعفُ النخلة المنتصبة في حوش الدار عن ريحٍ خفيفةٍ تهزّه . فتحتُ البابَ وخرجت ، شاهدتُ عدنان من بعيدٍ يخرج أيضاً . أومأ لي واستدار جانباً ينتظر شاكر وكامل اللذين كانا على مقربةٍ منه ، مخلّفين وراءهم بيوتاً لا تُرى .

الهواءُ يطير ، ينقلُ غباراً وذرّاتٍ باردة غريبةٍ آتية من أماكنَ نائية :

- أرضُها بيضاء كالقطن .
- سماؤها داكنةٌ كالرصاص .
- هواؤها يهمي ضباباً كالدخان .

صاحت بي أمّي للمرّة الأخيرة :

_ تخلّف هذا اليوم ، فقد تكون ثمّة عاصفة ربّما تطوّح بكم في وسط النهر وتغرقكم .

التفتُّ لأودّعها ، رأيتُ أبي يتطلّع إليَّ من خلف الموقد المشتعل بنظراتٍ محايدةٍ ، ولم أسمع منه كلاماً .

كنّا نمشي فنبتعد ، وكلّما ابتعدنا اكتشفنا هبوباً متزايداً للهواء ، وتياراتٍ من سهامٍ باردةٍ تندفع لاذعةً أجسامنا ، مثيرةً القشعريرة .. تمنينا الدفء . افتقدنا المواقد ، حنيناً إلى ألسنة النار المتفجّرة .. تذكّرنا الفراش ، ودفء الأغطية السميكة وأحضان جدّاتنا وأمهاتنا وأخواتنا الكبار ونحن نتكوَّر فيها احتماءً بها من البردِ وأشباحِ الخوف الراقصة في عتمةِ الليل .. وفكّرنا بالعبور ، وبالعم كسّار (لم يظن أحدُنا أنّه سيتركنا في موقفٍ كهذا) لكنَّ الهواء شرع يستحيل تياراً متواصلاً من الهوجِ والاندفاع . واصلنا السير في وجهِ الريح ، حتى وجدنا أنفسَنا على أعتابِ النهر . بدأ النهر واسعاً ، عريضاً ؛ والضفة الأخرى تبتعد ، كأنَّ يداً خارقة تنأى بها . ووراءها احتشد الضبابُ فحجبَ رؤى موجوداتٍ اعتدنا رؤيتَها كلَّ يومٍ شاخصةً تسقيها الشمسُ دفقاً من دفئِها وضوئِها ولمعانِها . وعند الجرف ونحن فوق أبصرنا العم كسّار يلوذ بصخرةٍ كبيرة . نهض إذْ رآنا .. صاح بصوتٍ وصلنا سريعاً :

_ هيّا انزلوا . يجب أن أوصلكم .. هيا ؛ تشجّعوا .

وطىء عدنان درباً ترابياً منسرحاً فتبعناه .. قرَّبَ العم كسّار الزورقَ ناحيتنا . صعدنا واحداً إثر الآخر . كانت قدم العم آخر قدم تترك الجرف . أمسك المجداف ، غرزه في الأرض الطينية ودفعَ فاندفعَ الزورق ... برقَ في السماء ضوءٌ منكسر . تهاوت علينا قطراتُ مطرٍ رشقت وجوهَنا أولاً ؛ ثم بوقتٍ لا يُصدَّق استحالت مطراً غزيراً ، زوابعَ ورعوداً .. حشودٌ من غيوم تسلّقت الهواءَ وتوقّفت فوق زورقنا ، نازفةً شلاّلاً يرمي مياهاً لا تنقطع .. تلاطمَ الموجُ فأهتزَّ الزورق . تمايلت أجسامُنا الصغيرة .. تشبّثت أكفّنا بحافاتِ التقاطعات الخشبية الممتدّة بين كتفي الزورق حيث نجلس ، بينما أكفّنا الثانية تُطبق بشدّةٍ على حِزمِ الكتب التي أخفيناها تحت ملابسنا .

صاح العم كسّار وهو يطعن الماءَ المجنون بمجدافه :

_ اتركوا التقاطعات ، واجلسوا في جوف الزورق . العاصفة تزداد جنوناً .

تقتربُ أجسامُنا بعضها من بعض . نسعى لاتّقاءِ هوجِ التيار وعصفه المُثلِج .. نتكوَّر ، نحتك فنبدو كجراءٍ داهمتها أخطارٌ مباغتة .. نتطلّع إلى العم كسّار ، نراه يحني جسدَه إلى أمام في محاولةِ مجابهةِ الريح ، وسعياً لدفع الزورق الذي بدا كأنَّ قوّةً جبروتية تسحبه من جوفِ النهر فتسمّره في مكانه .. خُيّلَ لنا أنَّ هبّةً مفاجئة من الهواءِ العاصف ستُسقطه وترمي بالمجداف بعيداً ، لا تلبث أيادي الهواء المجنون أن تمتدَّ فتقلب الزورق فيبتلعنا النهر ويأخذ بنثارِ كتبنا بعيداً عن أيادينا .

هتف عدنان :

_ لا يجب ترك العم هكذا . ستضمحل قواه وترتخي ؛ ويسقط .

دفع كتبَه إلى تلميذٍ يتقرفص مرتجفاً ، ونهض . صحنا به مرعوبين ، غير أنّه لم يأبه . بدا واثقاً مصممًا .. صاح :

_ عمّي ، دعني أساعدك .

_ .....

_ عمّي ، لقد تعبت أعطني المجداف .

بفزعٍ صرخَ العم كسّار :

_ ابقَ مكانك ، ستقذفك الريح .

كنّا وسط النهر ، وما زالت الضفةُ الثانية بعيدة ، بل تنأى بعد كلِّ ضربةِ مجداف .

اندفعَ عدنان .. دفعَه الريحُ . كاد يسقطه . تشبَّثَ في وقفته . قليلاً ورفع قدماً كي يخطو إلى العم كسّار . صاح به العم مرةً ثانية .. صاح . ولمّا وجده لا يأبه لتحذيراته ، هتف :

_ هناك مجداف في زاوية الزورق .

_ أين ؟

_ خلفك .

استدار عدنان . جسدٌ يتوثّب وعينان تتّقدان . انحنى .. أمسك بمجدافٍ تغطيه قطعة قماش سميكة .. خارت قوى العم كسّار . ترنّح قليلاً ثم هوى إلى النهر . التهبت عيونُنا شرراً . بصوتٍ واحد صرخنا :

_آآآآه .

نهضتُ من مكاني . كان المجداف قد سقطَ في جوف الزورق .. أمسكتُ به . دفعته إليه . حاولَ الإمساك .. تشبّث .. اقترب .. حاول . عام قليلاً ، لكنَّ قوة التيار وتلاطم الموج كبّلت حركته .. صحنا بصوتٍ عالٍ :

_ حاول .

فصاح بصوتٍ واهن :

_ لا أستطيع .

_ تماسك .

_ انتهى كلُّ شيء ، تماسكوا أنتم . لا تدعو الزورق يتمايل . سينقلب .. سينقلـ.....

ابتعد عنّا .. صار علوُ الموج يحجبُه عن أنظارِنا .. يظهر قليلاً ويختفي .. يظهر ويختفي .. لم نعد نراه / لم يعد يرانا . لم تبقّ إلاّ اليدان مشرعتين . راحتا تهبطان .. لقد اختفتا .

صرختُ .. صرخَ غيري . زاد الصراخ . كدنا ننسى أنفسنا وسط :

- ريح تتفاقم .
- وموج يعلو .
- ومطر يشتد .
- وزورق يتمايل .

لكنَّ عدنان صرخ بنا .. صاح بي :

_ لا تدع المجدافَ يهوي من يديك . امسكه جيداً . علينا أنْ نصمد .

- صمدنا .
- وتماسكنا .
- وصارعنا .
- وتصالبت أذرُعنا ؛ حتى أدركنا الضفةَ الأخرى .

في اليوم التالي هدأ كلُّ شيء . وفي الصباح خرجنا مخلفين وراءنا البيوتَ والشجيرات ، وبنات آوى ، والأرانب السمر . التقينا جميعاً بينما تخلّفَ عدنان . اعتقدنا أنَّ جهدَ اليوم الفائت والأسى المتراكم لفقدان العم كسّار سبباً في ذلك .

عند وصولِنا إلى النهر ، ونحنُ فوق أبصرنا _ ويا لدهشتنا _ عدنان . كان قريباً من الزورق بانتظارنا . نهض إذْ شاهدنا .. هتف :

_ تعالوا .

تقدمنا .. وطئنا درباً ترابياً منسرحاً .. صعدنا إلى الزورق . تناول هو المجداف فيما تناولتُ المجداف الثاني . بضربةٍ واحدة كان المجدافان يدفعان ، وكان الزورقُ يندفع هادئاً واثقاً ، ينساب فتنسابُ على وجوهِ التلاميذ نشوةٌ نَمَت وكبُرت واستمرت حتى وطئنا الشاطىء الرملي وارتقينا السلّم الصخري ؛ وأدركنا الطريق المعبَّد . لحظتها وقفنا مُنتصبين . تطلّعنا صوبَ النهر . كان الزورقُ يتكىء عندَ حافةِ الجرف والنهرُ كعادتِه يجري .

وحين استدرنا رأينا وراءَ شبّاك إدارة المدرسة ثمّةَ عينين تسكبان دهشةً ، وتتابعنا بارتياح .

شباط 1993

السماوة

القـرار

حُلكةُ الليلِ ترتفعُ كدخانٍ أسودٍ كثيف لتوشّح وجهَ الأثير ، صاعدةً نحو السماء . وليست السماء إلاّ محاكاة لهذا الوشاح وتطابق للونِه لولا الأنجم البيض اللاهثة على أديمِها . الدربُ ترابيٌّ ومتعثِّر ، فيه التواءاتٌ وانحرافات ، هبوطٌ وصعود .. إذاً عليك باليقظةِ والتحسُّب للمفاجأة . قد لا تُسعفكَ عيناك ، ولا ينفعك التمعُّن في الموجودات ؛ فالظلمةُ تمارس اغتيالَها لمنابتِ الضوء . لهذا ينبغي اعتماد بصيرتك في تلمّس خطاك .. خُطاك واسعةٌ ، وأنفاسُك لاهثة ، والصوتُ يتفجّر داخلك كل لحظة : " الرحمة . افعل شيئاً .. إنني أموت ." . تنقبضُ نفسُك وتسري ارتعاشةُ خوفٍ مجتاحةً أوصالك . تتذكَّر أنّكَ تركته يتوجَّع متقلباً ؛ تفتكُ بخاصرتِه سهامُ الألم ؛ وتبضّع كليتَه مشارطُ المغص الحاد . تتمثَّل صورتَه : يدٌ تقبض على مكامن الألم ؛

ويدٌ مُشرعة تستغيث ، وسخامُ الفانوس يُطبق على ذُبالةٍ باهتة تلقي ضوءً شاحباً يركد على قسمات وجهِه المنكمِش .. أُختاك في زاويةِ الغرفة متكورتان ، لا تعرفان ما تفعلان سوى استجداءِ الدموع والبكاء الذي يخترق بعضُه الصمتَ (هذا الصمت هو في الحقيقةِ ذهولٌ مهيمن) . خرجتَ إلى وسط الحوش وتطلّعتَ ؛ اكتشفتَ بيتكم منعزلاً وكل ما حوله فراغٌ حالك .. عليك إذاً ركوب أجنحةِ الريح كي تقف على عتبةِ بيت الطبيب ، المجاور لمستوصف القرية .. تضرب جرسَ الباب وتنتظر . بعد وقت يخرج إليك متباطئاً . يداه تدعكان عينيه .. ربّما كان نائماً ، أو ربما كانت عيناه تطوفان سائحتين في تأملٍ فكري تتابعان حركةَ الكواكب ، ولألاءَ النجوم ، ولهيبَ النيازك المحترقة . تقف إزاءه متضرعاً : " أبي ، يا دكتور ، تركته يتمرغ كالملدوغ . لا أحد لنا ، وليس عندنا غيرك . " . تتلقّف قدماك الدربَ بقلبٍ واجف وأعصابٍ مشدودة فيما يدُك تمسك عصا غليظةً ذات طرف تعممّه كتلة قار متحجّر في تحسّبٍ متوقّع لأيّ ما طارىء معيق . أمّا هذه العتمة وهذا السكون فلن يخيفاك . أنتَ وليدُ هذه الأرض : البساتين / الأشجار / الأخاديد / الأجمّات / الأكواخ / تفرعات السواقي ؛ صورٌ تملَّتها عيناك واستقرَّت في يمِّ ذاكرتك .. بعد قليل سينحرف بك الدربُ شرقاً ؛ خذه حتى تبلغ البستان الكبير _ هذه الكثافة الداجية بنخيلها المتطاول وتشابك أشجارها المحتشدة _ ومدخله المحصور بين عمودين حديديين ينشدُّ في طرفيهما سورٌ معمول من أسلاك متوازية وسعف نخيل متعامد . يركبه الخوفُ ويحاصره الرعبُ مَن يبغي اجتياز البستان في هذا الوقت الداجي إذْ ربّما يكتشفه المزارعون صباح اليوم التالي جثّة هامدة ، أو جذعاً متخشّباً أو هيكلاً فقرياً تبخرت أنسجته .. مسلك مخيف / دربُ متاهة بلا شك . لكنك لن تهابه بالتأكيد ، فقد تخطّيته من قبل .

* * * * *

كانت لحظاتُ غروبِ ذلك اليوم منذ ثلاثة أعوام خلت شاحبةً / كئيبة . هناك ريحٌ مغبرّة تضرب بإطنابها على الموجودات وأسرابُ طيورٍ تدفعها الريحُ غرباً ، ثم تغوصُ مع شتات غيوم يمغنطها الأفقُ الغسقي . لم يكن أبي قد عاد من زيارةِ قريب له كان يعمل في دولةٍ خليجية عندما تركت أمّي الخبز يتفحّم في " التنّور " المشتعل والعجين في الإناء وارتمت تتلوّى ممسكةً أسفل خاصرتها اليمنى .. وجهُها الحنطي امتقعَ فجأةً ، واستبدَّ به شحوبٌ قاهر . هرعت أختي الكبرى إليها تسألها بارتباك عمّا جرى وما يجري .. تستدعي صورةُ أمّي معرفة السبب ، فالملامحُ الغريبة التي وشّحت وجهها تُفصح بصورةٍ جلية تردّي حالتِها (هي المرأةُ عندنا تكتمُ وتكبت ، وتتغاضى قبل أن تنفجر . وانفجارُها يعني الموت صامتةً ، متحاملة . أمّا شكواها / أوجاعها / أحزانها فتحملها في جبِّ قلبها الدفين لتتوسّد مع جسدِها الضامر النحيل حجارةَ القبر .) . نادت عليّ أختي . نقلناها والخوفُ كابوس ينقضُّ بأجنحتِه السود ، والنفوس تتصحّر بظمأ جفاف قاهر .. موقفٌ غريب ؛ غريبٌ في تصوره / غريبٌ في معالجته / غريبٌ في حسمه . يا لبؤسِ أمّي ، ويا لحزننا نحن المشدودين إليها ، المتعلّقين بها . أطلّت أختي التي تصغرني من الباب وصرخت !! .. ارتمت عند قدميها تنتحب . كانت ذيولُ النهار المبتورة تتلاشى ؛ وألمُ أمّي يزداد ؛ وأبي يقيناً الآن يرتشف فناجينَ القهوة ويحرق لفافاتِ التبغ مستأنساً لحكاياتٍ يحكيها قريبُه عن ذلك البلد المرابط بين بحرين : بحر من المياه الزرقاء ، وبحر من الرمال الصفراء .

– " اذهب ! استدع أباك . " .. قالتها عيناها المتضرعتان .
– " حالاً كالبرق . " .. هتفَ قلبي المُختلج .

* * * * *

ذهبتَ .. ما أشبه اليوم بالبارحة .. هيَ ؛ هيَ . تلك الدموع وحرارتها .. هوَ ؛ هوَ . ذلك القلب ولوعته .. ما رفَّ لكَ جفنٌ وأنت تخلّف البستان وراءكَ . تقدّمتَ ؛ تطفو فوقَ مداد من سكونٍ مُنتَهَك . هذا الانتهاك يأتي من صفيرٍ مألوف لحشراتٍ تكمُن في ثقوبٍ تحتويها جذوعُ النخيل ؛ أو من متاهاتِ شقوقٍ تضمّها جدرانٌ طينية لأكواخٍ مهجورة . خشخشةٌ مكتومة تثيرها حركةُ عضايا بين الحلفاء والدغل المتيبّس . نجومٌ تتبعثر سافحةً ضوءها في صيرورةِ رفضِ الظلمة . ومجرّاتٌ تترامى آلفها ضعفُها وتقهقرُها سعياً للتوقّد المستديم .. هذه المكونات وغيرها تتابع خطواتك ؛ تراقبكَ تتغلغل في تخومِ روحك المستلَبة قسراً ، وعصف أفكارك المبتلاة بالقلق . ولولا الأنسام الباردة التي تتعطّف عليك كلَّ حين لتفاقمت الحرقة في صدرك ، ولوجدتَ الطريقَ متاهةً بلا طائل .. سرْ بمحاذاة مزارع الشلب (الرز) السابح في الماء ريثما تبلغ الدربَ المسفلت الراحل إلى المدينة . اقطعهُ ، ثم غذْ السير أكثر ؛ فالليلُ يقترب من الانتصاف والطبيبُ قد يرفض ركوبَ المغامرة في هذا الوقت الملغوم بالمجاهيل والاحتمالات .. أيقظتكَ صرختُه الغريبة فزِعاً . سلبتك من حلمٍ كنتَ سادراً فيه .(في هذا الحلم وجدتُ نفسي على زورقٍ أبيض أنشر شباكاً خيوطُها حريرٌ لامعٌ وسطَ نهر عريض ، ثم أجمعها .. صيدي : أسماكٌ بلّوريّة تتلاصف / كائناتٌ خيطية تتلوى كأنها تؤدي رقصاتٍ بكائيةً / طيورٌ تنفضُ عنها شمعاً كانت غارقةً في تحنيطه / زهورٌ تطفو سابحةً على رغوةٍ بنفسجية / وجوهٌ لها ملامح مألوفة أجاهدُ في تذكّرِها . بينها يلوح وجهٌ أبهتْ لرؤيته : جبهةٌ منكمشة ، عينان ذاويتان ، خدّان ذابلان ، شفتان ترسو عليهما كلمات مثل : اللهفة / اللقاء / الشوق / البعد / كيفَ أنتَ / أحنُّ إليكم / أُختاك / أبوك / شاقني البيت / الألم / التحمّل / السماحة / الغفران / ما زلتَ صغيراً في عيني / الدموع / الفراق / امسكْ الدفّة / الزورقُ يتمايل .. صرخةٌ تشقُّ الصمت .) . عيناك تنقذفان في لُجّةِ الظُلمة . كان قد عادَ من الزرع يضربُ التعبُ أزاميلَه الحادّة في وجهه المتغضّن . قضى النصفَ الثاني من النهار يفرّغ المروز من ماءٍ يركد في مسارِها منذ أيام ؛ مستبدلاً إيّاه بآخر أكثر عذوبة . كان الوجعُ يعاوده بين وقتٍ وآخر ؛ لكنّه لم يأبه له . يحسبه آتٍ جرّاء الإجهاد وزائلٍ بعد راحة .. هذه الليلة باغتَهُ على نحوٍ أشد . ألفى نفسه منقذفاً في جحرِ ثعابين يتلقّى لدغاتها اللاهبة .. أبوكَ مكابرٌ عنيد . كبرياؤه تلجم بواعثَ النصح الآتية من الغير سيما لو جاءت ممّن هم أصغر عمراً .. شحوبُ وجهِه ، وذبولُ عينيه جعلت أختك تبوحُ إليه بضرورةِ مراجعة طبيبِ القرية أو النزول إلى المدينة كي يعرض نفسه .. يضحك ، ومستخفّاً يجيب : " لو كان دواؤهم نافعاً لما رماه المراجعون عند جدارِ المستوصف حال خروجهم ." . وحين تفوّهتْ قائلةً : " ولكن أمّي ماتت لأنّها لم تُعالَج . " امتقع وجهُه ، وجحظت عيناه فيما تطاير الرذاذُ من فمه وهو ينهرُها بعنف .

* * * * *

تحركتُ على عجلٍ .. قدماي تتعثران وسطَ ارتباكٍ مهيمن . الخشيةُ في أنْ لا أجده فيتعسر الحال . ضروبٌ من الهواجس المروّعة كانت تستبيحني وتزيد إلى الظلمةِ الماثلة ظلمةً أشد . سؤالٌ شرع ينمو وينشطر في متاهات الروح : هل ستموت أمّي فتنطفىء الشمسُ ، ويموت الزرعُ ، ويجفُّ النهرُ ، ويحتضرُ الصباحُ ، ويعطشُ البحرُ ، وتنسفحُ الدموعُ ، ويتشظّى القلبُ ، ويهرمُ الزمنُ فتتفكّك مفاصلُ الفصول ، وتغور الأماني في قاع المستحيل . وقتها ستتهاوى طيورُ الرغباتِ المضرَّجة باليأس عندما لمحتُ قامتَه في العتمة مقترباً .. هرعتُ إليه منتحباً / منكمشاً . فوجىء لرؤيتي . أسمعتُه ما جرى تفصيلاً . سقطت لُفافةُ التبغِ من بين شفتيه . داست إحدى قدميه جمرةَ اللفافة المتدحرجة أمامه (جمرةُ قلبي التي تكبُر وتتضخّم وتستحيلُ كتلةَ نارٍ تشقُّ صدري وتخرج ، تحرقُ ما تمرّ به ، وما تمسّه بلوغاً إلى النهر ؛ لحظتها توش .. شش.. شش ؛ لكنَّ النهرَ يستحيل إلى مجرىً مُنحسِر . ماؤه دفقٌ من سائلٍ نافذِ الرائحةِ ، سرعان ما يشتعل فتستطيلُ ألسنةً تبلغ حدودَ الغيوم النائية .. آه ، يا حسرتي .) . أحسستُ بارتباكِه . الأسئلةُ تنقذفُ مشوّشةً من فمه وأجدني أجيب ، وأعيد ما حصل ، وهو كالذاهل يردد : " نعم .. نعم ؛ وماذا بعد ذلك ؟ ! " حتّى إذا وصلنا اندفعَ إلى حيثُ أمّي الممددّة . ألقت عيناهُ المرتبكتان نظراتِهما على وجهِها الشاحب وعينيها المستجيرتين ، محاولاً تمالكَ نفسِه المضطربة ، ويديه المرتعشتين . سمعَها تُردّد بخفوتٍ :" سأموت .. سأموت .".. يسألها :" ماذا أفعل ؛ إنّه الليل !!".

والليلُ في نظرِ الجميعِ يعني الجمودَ / التوقّفَ / المشاريعَ المؤجّلة / الأيادي المغلولة . إنَّ نقلَها إلى مستوصفِ القريةِ النائي يُعَد ضرباً من المستحيل ، ومحاولةً تدنو من الجنون . ثمَّ أنَّ طبيبةَ المستوصف وممرضتَه هما الآن تحت أضويةِ " النيون " الفضّيّة وأمام الشاشات البيضاء ؛ على الأفرشةِ الوثيرة في المدينة التي تنقطعُ وشيجتُها مع الأريافِ في هذا الوقت الثقيل .. لأولِ مرّة أكتشفُ عجزَ أبي وتخاذله ؛ وافتقادَه لخيوط الحسم ... إذاً هي المغامرةُ التي عليَّ الشروع بها . لن أحسب للعواقب .. علاجُ أمّي وشفاؤها ينبغي إتمامَهما . يجب أنْ أخرج الآن .

****

ها أنتَ في مواصلةِ السير . وها هوَ الطريقُ ما يزالُ طويلاً مليئاً بالمفاجآت .. السكونُ يفتضّهُ نقيقُ ضفادعٍ آتٍ من بُركةِ ماءٍ على يمين الدرب حيث سيقانُ القصب تنهضُ كقامات رجالٍ يافعين متلفّعين دروعاً سود .. تلفّتَ شمالاً . ليس غير زروعٍ غافيةٍ وأضواءٍ كامدةٍ قادمةٍ من كوى أكواخٍ بعيدة .. الطريقُ أمامَك غائرٌ تُذكيه ظلمةٌ قاهرة (ما لهذه الحياة ترمي بهذا الفتى الغض في مسالكِ القسوةِ الموغلةِ في التجنّي ؟! .. ما لها تمتصُّ ظلامَ الدنيا فتنفثُه في وجهِه ؟).. لن يبقى حتى الصباح . سيصرعه الألم . وإذا كان ذلك المغصُ المتجبِّر قد مررَّ عليه تلكَ الأشهر والأيام وتركَه بسلامٍ فالمرّة هذه لن تشفع له قوّةُ تحمّله . لو كان الألمُ في إصبعٍ لبتَره أو في يدٍ لقطعَها لكنّه متفشٍّ في جوفِه ؛ ينشرُ شِباكَ سطوتِه فوقَ مسالكِ الجسد المُنتهَك . لقد قرأتَ تخاذله عندما التقت عيناك بعينيه البائستين . شاهدتَ البريقَ وهو ينحسر / تذكّرتهُ ! . ذلك البريق الراشح من عينيها : العينان الكسيرتان المستنجدتان / الشفتان اليابستان المتقشرتان / اليدان المرتعشتان . ضغطتَ يدها .. هيَ .. هيَ ذات اليد أخذتكَ إلى الفرات ، وإلى جانبها تلكَ المرأة ذات الوشم التاجي المتسلسل من أدنى شفتها السفلى حتى قعرِ الحنك الملموم . تتلو بعضاً من سوَرِ الرحمن ، وتردّد

أسماءَه الحسنى تتابعاً وهي تخلع ثوبَك ؛ تُعرّيك دافعةً بجسدِك الصغير إلى الماءِ كأنّها تُعمّدك ، فيما نظراتُ أمّك راعشةٌ حانية تلاحقك ، تحتضنك خشيةَ أنْ تفلت من يدِها ويأخذُك النهرُ . تسمع صوتَ المرأة ذات الوشم التاجي : " سيكون نقيّاً طهوراً طيّعاً لكِ ولأبيه ". تعجُّ دموعُ البهجةِ طافحةً في الحدقتين متّخذةً مسارين على الخدّين الأسمرين .(نعم ، دموع الأم لآلىء تتفصّدُ على صحائفَ الطهرِ .. رسالةٌ تخترقُ فضاءاتِ العمرِ العابر من محفّات الطفولة / الفتوّة / الشباب / الكهولة / الشيخوخة دائرةً في فَلك هناءة البراءة / لذّة الحديث / سلامة اليقين / راحة البال / دوّامة الأسى والذبول .) . أردتَ القول أعرفتَ قسوةَ الألم يا أبي ؟ هل تبيّنتَ انقضاضَ العارضِ غير المحسوب ؟ ألم يطرق ذاكرتَك شبحُ أمّي ؟!؛ دموعُها وتوسّلاتها ؛ رجاؤها لفعل شيء ينتشلها من جنونِ الأوجاع التي مارست استباحتها في دائرة التجبّر والاستحواذ ؟ .. لابدَّ أنّه فهمَ نظراتِك المصوّبة على منافذ ندمهِ . لابدَّ أنَّ السنوات الثقيلة بعد موتِها تمخّضت عن زمنِ عذابٍ واحتراقٍ ؛ تكفيرٍ عن ذنب ، استماحةٍ على جهل .. خفّت إلى مسامعكَ من بين ثنايا السكونِ وسطوةِ الصمت لطمةُ موجةٍ على كتفٍ رملي فأدركتَ اقترابَ الفرات من عينيك .

****

تكاثفت العتمة ، واحتشدت أسرار الطريق . لكنَّ منابت الثقة في الوصول تجذَّرت .. لا تخيفني وحوش الأرض ، والمجهول لا أهابه (من يراه تلك الليلة يظنّه فتى ركبَ رأسه جنّي ، أو جنّي تلبَّسَ بلبوس فتى) . قطعتُ الطريق واجتزتُ البستان ، ومررتُ بمزارع الشلب / الرز ، ثم بركة القصب حتى دستُ أرضاً رمليّة هشّة ؛ عندها تبيّنت الفرات قدّامي .. الموج نستثار ، مُستفَز من هبّات ريح متذبذبة .. هرولت إلى قاربنا الموثوق إلى الأرض ؛ دفعته إلى النهر . سحبتُ المجدافَ المربوطَ في جوفِه وجدفت أبغي الضفة الأخرى .. عبرتُ النهر ؛ أرسيتُ الزورقَ، ربطته إلى وتدٍ غائرٍ في الرمل ثم صعدت . لحظتها دقَّ الإنهاكُ طبولَه في أوصالي المشدودة ؛ بيدَ أنّي تحاملتُ . سرتُ قاطعاً أرضاً مزروعة ؛ خلّفتها مقترباً من الروف المرتفع .. صعدتُ إليه ورحت أتطلّع .. يفترض من وقفتي هذهِ رؤية بناية المستوصف وإلى جوارِه بيت الطبيب ، لكنّي لم أبصر غيرَ مصباحٍ أصفر على لافتةٍ مستطيلة بينما هناك ضوء " نيون " في واجهة البيت .. هبطتُ خلالَ دربٍ منسرح أخذني إلى الباب الرئيس . ضغطتُ على زرِّ الجرس .. لحظات مُربكة تمخّضت عن شاب طويل لم أستجلِ ملامحَه . تفرّسَ في وجهي ، ثم سمعته يسألني عمّا بي .. استجمعتُ قواي ولملمتُ شتاتَ الأحرفِ الهاربة ، وهتفتُ :" أمّي .. أمّي ! " بينما عيناي تطفحان بالدمع وقدماي تعجزان عن حملي فأخورُ متعباً منهكاً عند قدميه .

****

استجدَّت هالةٌ مُضببّةٌ ساعةَ انفراجِ الرموش وابتعادِها فانجلت عن مصباحٍ حليبي متدلٍّ من سقفٍ تبني الطلاء ، ووجهين مدوّرين لطفلين يتفرسان بحذر . تفوّه أحدهما : " إنّه يفتح عينيه ، يا أبي ! " فابتسم الوجهُ الذي ظهر بغتةً ، وقال " ها ، يا بطل . لقد اختزنّ جسدُك الكثيرَ من التعب . قُل لي ما بك ؟ "

بعد قليل كنّا نقطع الطريقَ سالكين ذات الدرب الذي اتخّذتهُ . اعتلينا الزورقَ وكنا نُبحر في ظُلمات الليل . وكان هو بين لحظةٍ وأخرى يمارس فعلَ الإنصات أو يرفع رأسَه كأنّه في رحلةِ استكناهِ النجوم . يلتفت إلى الجانبين ربّما ليكتشف من هذا المكان تغيّر حركةِ الريح التي بدأنا نسمع تأثيرَها على أوراقِ صفِّ الأشجارِ المحاذية للشاطىء .. لم يسألني إنْ كانت المسافةُ طويلةً إلى البيت . كان جُلُّ همّه أنْ يصل ؛ يفحص ويعالج ، ويفتي ؛ فقد خمّنَ خطورةَ حالةِ أمّي وضرورة معالجتِها سريعاً ... تركنا بركةَ الماءِ والقصبِ الطالع ولم نأبه للضفادع التي زاد نقيقُها وراح ينتهك أستارَ السكون المضروب على الأشياء .. وصلنا البستانَ واجتزناه ؛ وأخذنا الطريقَ صوب البيت . أقول ذاك هو بيتنا ، إنّه هناك لكنّه لا يتّفق معي ؛ فكل ما أمامه عباءةٌ سوداء . أقول لو كان القمرُ طالعاً لشاهدنا البيت ، وشاهدنا شجرةَ التوت التي زرعتها أمّي علامةً لبيتنا عندما يزورنا أقرباؤنا الآتونَ من أريافٍ بعيدة .. فاجأني أنينٌ متواصل ، وصرخاتٌ مبتورة .. تبعثرت سنواتي الأربع عشرة حين رأيتُ أمّي يائسةً خائرة ، وأُختيَّ قطّتين لائبتين . كانت ثمّة امرأتان تسكنان على مبعدةٍ منّا لا أعرف كيف حضرتا . : " تماسكي ، يا أمّي . جئتُكِ بمن يُشفيك ؛ إنّه الطبيب .. أينَ أبي ؟! " .. أبي يقبعُ في الغرفةِ الثانية قانطاً . يدُه تعبثُ بحبّاتِ مسبحتِه السوداء ، ولُفافةُ التبغِ تنفث دخاناً يمور عند تخوم السقف :

_ " أين كنت ؟" هتفَ بي ناهضاً " ظننتُكَ همتَ مجنوناً .

_ " لن تموت أمّي . لقد جاء معي ؛ إنّه ينتظر . "

_ " مَن ؟ ! "

_ " الطبيب ."

لم أفهم لماذا لم يهبَّ لاستقبالَه . وحينما دلفَ الرجلُ المنقذُ واقتربَ من بابِ الغرفة اعترضه .. قال الطبيب في استقراء نظرات أبي : " يجبُ فحصها سريعاً فهي في خطر . " . تجهّمَ وجهُ أبي واستدارَ داخلاً الغرفة .. وقف إزاء أمّي المنهكة :" هل تريدين أن يتفحصكِ رجلٌ غريب فأصيرُ عاراً وعلكةً تمضغها الأفواه ؟! " .. كانت أمّي أتعبَ من أنْ تجيب ، لكنَّ المرأةَ الجالسةَ عند رأسِها هي التي قالت : " الطبيب كرجل الدين ، مثل الملائكة أعمالُهم لا يرقى إليها الشك ، ولا هيَ مَجلبة للعار . تعوَّذ بالله يا رجل ودعه يدخل . " .. رمقَ المرأةَ بنظراتٍ حازمةٍ واستدار خارجاً .. إزاء الطبيب قال بجفاءٍ : أفضّلها تموت على أنْ لا تمسّها يدُ غريب . أعرافُنا لا تسمح بذلك يا دكتور . تفضّل نعمل لكَ شاياً ونعدُّ فراشاً للنوم إذا رغبت . " . ارتميتُ على يده أُقبّلها ؛ بكيتُ . تناثرت دموعي على ظاهرِ كفّه . دفعني كالغريب وخطا .(لم أرَ رجلاً أقسى قلباً وأجهلَ معرفةً وأبعدَ ديناً كهذا . أي جحود هذا الذي يمسخُ الإنسانيةَ من أجلِ أهراماتٍ من أعرافٍ صفرٍ متوارَثة !!) ، قالها الطبيب كأنّه يحدّث نفسه ، أو ربّما كان يخاطبني .. أسيرُ إلى جانبه صامتاً . أفكارٌ سود تعصف في داخلي ؛ وأسئلةٌ تغرز حرابَها في رأسي : ألهذا الحد يرتكبُ أبي هذا الفعل المريع ؟ ألهذا الحد يرفضُ أن تُعالج أمّي وهو أدرى بنقائِها وصفاءِ عفّتها ؟! . لماذا ارتكبَ كل ذلك ؟ لماذا .. لماذا ؟! "

لم يسحبني من هوجِ التخيّلات القاتمة سوى صوتُ الطبيب :" دعنا ندفع الزورق إلى الماء " .. دفعناه .. نعم دفعناه . وما كُدنا ندرُك الضفةَ الثانية حتى نقلت الريحُ القادمةُ من خلفِنا صراخاً حادّاً آتٍ من ما وراء البستان .

****

في لُجّة الذكرى وتواليها يتوهجُ وجُه أمّي .. الشمسُ المنتفضةُ تلفح خدِّيها ؛ والشمسُ نفسها تلفحُ خدّيَّ لكنّها تصيح بي أنْ ألوذَ تحت فيءِ شجرة توت بينما هي تقطعُ العرد والعاقول ، وتجمعه أكواماً . وحينما نعود ، وحيثما ترميه قرب التنّور تصعقني قطراتُ الدمِ الناضحة بعد كلِّ شوكةٍ تستلّها من يديها . أحزن لأنَّ أمّي ستتألم . ستموت أمّي لو انغرزت أشواكُ الكومةِ الكبيرةِ في جسدها .. ولكن آه ؛ لقد ماتت أمّي . وخزتها أشواكُ الأرضِ جميعها .. أجل / كلاّ .. أشواكُ الأرض أهونُ عليها من أشواكِ أبي . لم يغرزها في جسدِها ، بل مزّق روحَها ونثرها هباءً بكلِّ إصرار . ينتابني فزعٌ قاهر الآن . أرى وجَه أبي يستعير ملامحَ الجلاّدين العتاة ، وكفّاه قبضتان فولاذيّتان تنقضّان على رقبةِ أمّي السمراء لتستلبَ منها ما يحرصُ الآخرون عليه بكلِّ ما يملكون . مِنجلٌ يحصد سنواتٍ لم تبلغ الأربعين .. أربعون يوماً وأنا أبكي ، وأختاي تبكيان ، وأنتَ تضمّنا إلى صدرِك . تنتحب ، ثم تكابر ، تحبس دمعَك ، تطمر ندمَك .. توقّفتُ عند حافةِ الشريط الرملي . كان الزورق في امتدادِ الأرض مثل شقٍّ غائرٍ يفتحُ شدقيه لابتلاعِ مَن يقترب . لا أدري لماذا أراك مُلقى فيه ويداك تلوّحان : أغيثوني إنّي أغرق ، أحترق ، أغوص .. شاهدتُكَ متقرفصاً تارةً ، ومنكفئاً أخرى . وشاهدت ذلك العذاب المحفور على مسامات جبهتكَ وخدّيكَ . وفي العينين صورةُ القهرِ الذي لا يزول ، والتشفّعُ الذي لا يُقبل ، والدموعُ التي لا تجف ؛ وصوتٌ مدوٍّ لا أدري هل هو آتٍ من جوفِ الشقِّ الذي تقترب حافاتُه كما لو كانت ستنطبق بعد حين ، أم من اصطفاقِ منافذَ روحي الحزينة على ضياعِ أمّي ؟! .. صدى أسمعه يقول : تجرّع من نفسِ ما شربت تلك النقيّة .. ذُقْ وتشمّم ، واغترف من دفقِ الألمِ والعذابِ والموت .، وأجدني أبغي مصممّاً العودةَ من حيثُ أتيت لأُشفي سقمَ هذا النابت في صدري ، المُبتلى بمرضِ الحقدِ وأصداءِ المعذبين ، المقهورين الذين رحلوا مستلبي الحقوق مُكممّي الأفواه ، مذبوحين من الوريد إلى الوريد كي ما يبقى الآخرون / المتشفّون يشربونها تُرّعاً ودهاقاً .. أنتَ تستنشقُ الهواء ، وأنا وأختاي نغترف الهمَّ والحزنَ والشقاء . وأمّي !! أمّي ، ملامحُ لا تضببّها الأيام (الجنّة تحت أقدام الأمهات) . أراها هناك عند جدولٍ خضيب ، تحت وارفاتِ الشجر : تينٌ وزيتونٌ وماءٌ سلسبيل وأقداحُ ديمومةٍ وهناءٍ أبدي ؛ وأنتَ في خواءِ الدنيا ، جنّةَ المخدوعين : عبيدو المال / محبّو الجاه / متبلدو العقول ، سليلو الأعراف المتعفّنة الخاوية .. نعم سأعود .. سأعود ، وليمُت .

****

إلى أين تدفع خطاك أيها المتّشحُ بالغضب / الموهومُ بالتطيّر . لو انكفأت ستكتشف نفسَك في تلك البركة الضَّحِلة من الذنوبِ والخطايا والضياع . ذات البركة التي خاضَ فيها أبوك وجدُّك وأسلافُك دون هدى .. انحرف عنها . اتركها جانباً . أزحْ من صدرِك غماماتِ الظلمة واجعلها بؤرةَ نورٍ تبعث إشعاعاً وضّاءً . أنتَ الشهمُ الصابرُ الواثق . لقد قطعتَ الكثيرَ فلا تنكفىء .. عُد إلى زورقِك ، زورق اليقين والقرار السابح صوبَ مجرّات السماحةِ والعفوِ والحكمة . ادفعه إلى عرضِ النهر واجذف . إنّ أصواتاً احتفائيةً من جموعٍ لا تُحصى تحتشدُ عند بوابةِ المستقبل قادمةً تحييك ؛ وعيوناً ترهص حدقاتُها بتطلعاتٍ أكثر إشراقاً تصبو إليك ؛ وأرواحاً تمور بالحياةِ الطريّة الغضّةِ تتأمل فيك الانعتاقَ من رداءِ البُلى .. جميع هؤلاء يباركون فيك اندفاعَك ؛ يشاركونك أنفاسَك اللاهثة ؛ يشدّون على يدِك مع كلِّ ضربةِ مجداف .. اجذف ، واجذف حتّى تُدرك الضفةَ

التالية ؛ عندها اركن زورقَك واعتلي حافةَ الروف ، ثم تطلّع ستجد مصباحاً يسكبَ ضوءً أصفر على لافتةٍ مستطيلة ، وثمّةَ ضوءٌ مبهجٌ يجسدُ صورةَ الأملِ يأتيك من وراء نافذةٍ مسدلةِ الأستار ... وهناك في الأفق البعيد سيطالعُك مخاضُ هالةٍ فضيّة تُبرز هامةَ قرصٍ بلون الثلج .

حزيران / يونيو 1994
السماوة

بقايـا حُلـم

يقفُ الباصُ الخشبي في المرآب الصغير المحاط بأسلاكٍ مشبّكة وسطَ هجيرٍ لافح بينما تتحرك العيونُ في متابعة مستمرّةٍ تبتدئُ به وتنتهي بالمقهى المرتكن في طرف الشارع حيث السائقُ باستلقائِه على تختٍ خشبي يسرق لحظاتِ نومٍ يسيرة من قيلولة هذا اليوم الحزيراني .. تلك العيون لنسوةٍ يلُذنَ بظلِّ دكاكينٍ مغلقةٍ وقد تكوَّمت أمامهنَّ صررٌ حوت ما تبضّعنَ من سوقِ المدينة . هؤلاء النسوة ضجرات / ملولات / صامتات على غير عادتهن ، يستلبهنَّ ثقلُ الانتظارِ وتضرب وجوههنَّ سياطُ الهواءِ اللاهب . أكثرهنَّ ضجراً تلك التي تجلس على يمينهنَّ بصرَّتِها الصغيرة وولدها الصبي . هذا الولد أسمه أحمد ؛ وأحمد يلتصقُ بها كما لو أنَّ أحداً سيختطفه منها أو يسلبها منه .. له الحقُّ في ذلك ؛ فالذي حدثَ لهما هذا الصباح يجعله في حِلٍّ من الطمأنينة ، ويخلِّف في نفسِه شعوراً بالخوف .. لذا كان بين لحظة وأخرى يتطلع في أشياءٍ ثلاثة : الباص المتوقف ، والسائق المستلقي ، ووجه أمه . هو يُحسُّ بهيمنةِ العطشِ ويريدُ إخمادَ النار المشتعلة في جوفه ، لكنه لن يفعلها ثانيةً ويطلب الماء . فقد يكون ثمّة موقفٌ آخر يتربَّص لهما . لقد تهاوت أحلامٌ نمت كثيراً في مخيّلته وشاء لها أن تُصار على أرضِ الواقع . بيدَ أنَّها صيرورةٌ كلَّفته الكثيرَ من الدموع والأسى والقلق .. دسَّ وجهَه في حجرِ أمِّه لعلَّه يُبعد الصور الرمادية التي توالت طافيةً على سطح ذاكرتِه ، ولم يجد لها فِكاكاً . مسّدت الأمُّ شعرَه بحنوٍّ وضمَّته إليها أكثر ، فأحسَّ بها تتغلغل في مسالِك روحِه الجزعة لتجتثَّ بعضَ ما يؤسّيه .. سمعها تهمسُ في أذنه : لن يطول بقاؤنا . بعد قليل سيأخذُنا الباص إلى القرية . لا بد أنَّ فاطمة وزينب وناصر بانتظارنا .

****

طالَ الليلُ ، والكلُّ نيامٌ : أبوكَ وأمُّك وأخوك الصغير وكذلك أختاك ؛ إلا أنت كنت عيناً صاحيةً وأحاسيسَ لا تنام . وكان الليلُ معتماً ، وأصواتٌ تحملها أجنحةُ النسائم الباردة مخترقةً السكون المضروب على القرية . بعضُ هذه الأصوات نباحُ كلابٍ ، ونقيقُ ضفادعٍ ، وصياحَ ديكة (صيحةُ الديكةِ الأولى انتهت. فقلتَ في نفسِك إنَّ مَن انتظرتْ بعلَها كي يعيدها من زعَلها قد خاب ظنها ، فلن يأتي بعد الآن . وحين صاحت الديكةُ ذاتها ثانيةً في هزيعِ الليلِ الأخير قلتَ لقد انصرفَ الليلُ وها نحن على أعتابِ صبحٍ جديد) . صرفتَ الساعات الماضية مُبحراً في رؤىً وتخيلاتٍ متزاحمةً مُستعيداً كلاماً توالدَ على شفتي أمِّكَ المبتسمة وهي تزفُّ خبرَ اصطحابِك معها إلى المدينة صباحاً .. غَسَلت ثوبَك الوحيد ، ونشرَته بمواجهةِ الشمس على شجيرةٍ من صفِّ شجيراتِ الرمان الناهضة خلف الدار بينما مكثت عارٍ تحتمي بالجدار ، مُحترِساً خشية أن يلمحَكَ أحدٌ من أقرانِك فيسخر منك .

****

هدر محركُ الباص بعد أنْ صعدَ فتىً تلقّى أمراً من السائق الذي نهض من نومه لاعناً الحرَّ والذبابَ اللذين تناهشاه وأقضّا نومه .. بدرت هنّات وهمهمات من جوقةِ النسوة المنكمشة بانكماشِ الفيء .. نهضنَ تُساعد إحداهُنَّ الأخرى في وضعِ الصرر على الرؤوس ، وتسرَّبن متفرقات نحو الباص . وهناك من جوف المقهى نهضَ الرجالُ المنتظرون . ارتدى بعضُهم "ستراً " كانت مرمية على مساند التخوت الخشبية غير آبهين

لعواقبِ الحر الذي ينتظرهم داخل الباص ، تحركوا خلف آخرين سبقوهم للحصول على مقاعدَ مناسبةٍ . ولكن أحمد سبق الجميع واقتعد مكاناً مجاوراً للنافذةِ فيما حجزَ آخرٌ لأمه .. وكان ينتظر الحركةَ .

****

يتحرك الباصُ الخشبي على الطريق الترابي وتجد نفسَك على أعتابِ حُلمٍ يتحقَّق . سترى ما ترى في المدينة : الشوارع العريضة المعبدة ، السيارات المارقة التي لا توقفها سوى إشارات ضوئية تبثّها عيونٌ سحرية يحدِّقُ فيها السائق بانتباه قبل البدء بانطلاقته الجديدة ، بنايات عالية تنهض ، بيوت ذات جدران تلتمع ، دكاكين كثيرة لا تمُت لدكاكين القرية البائسة .

_ تركنا أخاك ناصر يبكي . قلبي عليه .

هكذا تقولُ أمك بحسرة ، فتجيبُها بأنَّ المرةَ القادمة ستكون له . ثم تصمت ، وترى الصمتَ على وجوهِ الرجال وتسمع بسملاتٍ تتفوه بها عجائزُ مسنّات . وعندما رفعتَ بصرَك وقعت نظراتك على وجه أمّك .. امتلأت عيناك بملامح أعجبَك فيها العينان السوداوان ، المحفوفتان بأهدابٍ نافرة ، الحاجبان المعقودان ، الخدّان الطريان ، الشفتان الحمراوان ، اللامعتان . هتف الذي في داخلك " ما أجملُك يا أمي ! ". قالت أمُّك وهي تتملاّك بلهفةٍ " إذا بقي لنا وقتٌ سنزور خالتَك في المدينة . تسألها مُستفسراً : لماذا لا يكون بيتنا هناك ؟ فترد " زوجُ خالتِك يعملُ عند الحكومة ، والحكومة لا تريده بعيداً عنها ؟. " . تصمتْ تستدير مولياً وجهك شطرَ النافذة تحدِّث نفسَك : كم أحسدكم يا أبناء خالتي ؟

******

صعد السائقُ من بابٍ جانبي ، وانتظرَ إيعازاً من الفتى الذي كان نصفُه الأعلى يتدلّى من بابِ الباص الوسطى مُستطلعاً الشارعَ للمرَّةِ الأخيرة .. علتْ فورةُ غبارٍ لحظة استدارة الباص واتخاذِه دربا يوصلُه إلى الطريق المعبَّد . اندفع الهواءُ ساخناً إلى جوف السيارة فاستنشقه الركابُ المحشورون كفراخِ دجاجٍ بتقبُّلٍ ورضاء . أفردت عجوزُ عباءتها " هواؤك يا رب " . همسَت تحدِّثُ طفلةً انحشرت بينها وبين عجوزٍ أخرى : " انهضي يا صغيرتي . دعي الهواءَ يلعبُ بجديلتيك ، ويجفف العرق من رقبتك " . جفَّفَ أحمد آخرَ دمعةٍ انسكبت على خدِّه واستبدلَها بابتسامةٍ زرعها على وجهِه وهو يطالع وجهَ أمه ، متسائلاً إنْ كانت في توقٍ لنواصي القرية ودروبِها ؟ " أيعقل أن نجد أعشاشاً أجملَ من أعشاشِنا التي هناك ؟! " .. لم يمضِ وقتٌ طويل حتى صار الباص يزيد من سرعته ثم ينحرف سالكاً درباً ترابياً عرفه أحمد سريعاً فقال في سرِّه هذا هو الدرب الذي جئنا فيه هذا الصباح ..

التفتَ ليلقي آخر نظرة على ما يُشير إلى المدينة ..

******

كان مدخلُ المدينة جميلاً بحق . وكلَّما تلقَّف الباصُ شارعاً زادت حفاوةُ الإعجابِ في روحِك المتشوِّقة .. فرحتَ وأنت ترى الشريطَ الأخضرَ المُتَّسِق الممتد مع امتدادِ الطريق ، وفرحتَ وأنتَ ترى السيارات الصغيرة اللامعة تمرقُ مسرعة ، وهتفتَ بجذلٍ " ياه " عندما فاجأت عينيك قامةُ امرأةٍ سافرةِ الرأس زاهيةَ الملبس " لقد نسيتْ هذه المرأة عباءتَها في البيت ولم تنتبه لنفسها " هكذا فسَّرتَ ذلك . لكنَّك بعد قليلٍ شاهدتَ الصورة تتكرر. صُرنَ كُثراً ، يضربن رصيفَ الشارعِ بأقدامٍ واثقةٍ وأجسامٍ منتصبة . وحين توقَّفَ الباصُ وغادره الركابُ متفرقين أمسكت أمُّك يدَك بشدَّةٍ خِشيةَ أن تفلت من يدِها وتضيع .. سلكتما درباً قادكما إلى السوق فوجدتماه على أشُدّه ... الأصوات تتعالى والموسيقى إيقاعات منغَّمةٌ في أماكنَ متنوعة ، يتشرّبها فضاءُ السوق . إنَّ كلَّ شيءٍ يبدو غريباً لديك . مشهدٌ لم ترهُ من قبل .. ثمَّة تباينٌ كبير مع أجواءِ قريتك ، ومن العسيرِ لعينيكَ متابعة التفاصيل أجمعها ، فالماثلُ أمامَك ليس بحجمِ تخيلاتِك التي حشدتها في حيّزٍ من ذاكرتِك . ذلك الحيّز تكتشفه الآن محدوداً / قاصراً . لهذا اقرعْ طبولَ دهشتِك ، وانثر أحلامَك في فضاءِ التحليق البعيد واغترفْ أكثر فأكثر .. دَعْ عصافيرَ الروح تأخذ حقّها فتمتلئ دون مواربةٍ من النزق ومناهلَ الحبورِ لتغذّي أعشاشَها بدفءِ الرغبات الناجزة . الأنوارُ تكتسحُ فضاءَ السوق ؛ ووميضٌ صاخبٌ تفجّره مصابيحُ اتخذّت أشكالاً كروية / أسطوانية / مكعبة أو صورة سنبلة نافرة أو نخلة فارعة أو هيكل دبٍّ منتصب أو حصان واثب .. تطرق مسمعَك أغانٍ صادحةٌ لمغنّين لم تسمعهم سابقاً . تسرقُك أنغامُها فتسقيكَ دفقاً من الهيام تُطرب لها روحُك الفتيّة ؛ ثم تأتي أخرى فتلطمُ أذنيك بدوّامة النشاز ، ويستفزّك عواؤها تحاول غلقهما بيديك تجنّباً وابتعاداً . غير أنَّ أنغاماً جديدة _ هي الأمتع والأشهى _ تنبثقُ من أعماقِ الروح ، تعلو وتهمي رذاذاً وعذوبةً يبتهج القلبُ وتهفو النفسُ ؛ تستمرُّ صاعدةً في فضاء تحليقها السحري ... في هذا المشهد الغريب الذي يجمع التطلّع / الاستماع / الدهشة / التساؤلات امتدّت يدٌ مررَّت باطن كفّها على رموشك فكحَّلتها برؤى مهاجرة من بحيرات عوالم عُليا . وشممّتَ رائحةً تعبقُ بأريجٍ ملائكي غريب ، له هيمنةُ وسطوةُ التخدير .. ساحت روحُك على أكفِّ عينيك تتابع ما معروض وراء واجهات زجاجيّة لمحلاّت مقدِّماتها تسكبُ شلالاتٍ ضوئيةً من مصابيحَ عليا . ومن صفٍّ آخر تسقطُ أشرطةٌ متوهجة / راعشة على بدلات فُصّلت لتناسب أعماراً وأحجاماً تُقارب سنّك وقامتك ، عُلِّقت على جدار فلّيني وثُبِّتت بدبابيس لامعة الرؤوس . مددتَ يدَك مخترقةً الزجاج . بدا الزجاجُ ستاراً من هواء . تناولتَ بدلةً بلونِ الرغبةِ المتأججّة فيك . وبومضةِ حُلمٍ أو اغماضة عين رأيتَ إلى نفسك . ألفيت قوامَك ومظهرَك يستعير صورةَ البهاءِ والترف . خطفت أنظارَكَ قواريرُ عطرٍ لها هياكل كائنات حيّوانية حملها لوحٌ زجاجي شفّاف .. رفعتَ واحدةً هي بهيئة فيل . ضغطتَ بإبهامك على رأسه فنثَّ خرطومُه الكريستالي رذاذاً بارداً داعب وجهَك المعروق فانتعش ؛ وسرت قشعريرة استباحت أوصالَك فابتسمتَ . ردَّ ابتسامتَك وجهٌ من زاويةِ المعرض . لمحته بطرفِ عينيك .. وحين استدرت تحدّق فيه مدهوشاً ومفتتناً . أمام واجهة مزججّة تالية ألقت عيناك مراسيها على تشكيلات أحذية وأخفاف وصنادل صنِعت من جلودٍ طريّة وأخرى من الكتّان الناصع . طرازات مثيرة وألوان جذّابة ما أن تستقر العينُ على إحداها حتى تكتشف إن ما يليها أفضل وأجمل . ترمي نعليكَ المطاطيين المُتربين وتأخذ زوجَ حذاءٍ جلدي . تدسُّ قدميك فيكتمل مظهرُ الفتى سيد الأناقة وانموذج العرض .. تدور حول نفسك مرّاتٍ مرحاً / مختالاً . ترفع يديك كأنك ستطير . يُصاحب ذلك توقّف حركة الناس فتنشدُّ العيون تُطالعك . تدور حوارات هامسة وأخرى مسموعة : " كم يبدو هذا الفتى القروي جميلاً !! " " آه .. ؛ من أينَ له كل هذا الجمال ؟! " " في القرى يولدُ الجمالُ نقيّاً " . تدور حولك فتياتٌ يقاربنك العمر ، ذوات شعور سود وشقر ، تؤطِّر رؤوسهنَّ أطواقٌ من زهورِ

الياسمين ، يحملنَ أطباقاً نُسِّقت فيها شموعٌ تعجُّ ذُبالاتها بأنوارٍ متراقصة وأوراقِ " آسٍ " غمرَت السطح . تناثرت شقائقُ وزنابق وزهيرات رمّان حمراء .. كل ذلك يحصل لك وأنتَ تخطو فتزيد من دهشتِك معارضُ أشدّ جمالاً وأبهى صورة . تقف عند إحداها فتواجهُك مصوغاتٌ ذهبية تطفو على سحابة أنوار مُبهرة تنبعث من جوف قاعدة _ موَّهتها أغلفةٌ ملوّنة _ لهيكل المعرض الزاحف قليلاً إلى الخارج ، فيما تنثال أنوارٌ راعشة / متوهِّجة تندفع من زوايا المعرض العليا . أمّا في داخل ذلك الذي يُسمّى دكاناً أم جنّةً أم مهرجاناً ترمُق جدراناً تضمُّ مزجّجاتٍ مستطيلة ذات بطانة من قطيفةٍ طُحلبية اللون عُرضت عليها : قلائد وأقراط وجناجل ومعاضد وخواتم تباينت نقوشها وتنوّع لون وحجم الشذر المزروع في نتوءاتها .. تدلف إلى هناك وتتوقّف مُتابعاً المعروضات بانتباه . تتناول خاتماً بشذرةٍ حمراء لامعة . تدسُّ بنصرك الدقيق فيه وتتمعّنه بإعجاب ؛ ثم تلتقط من مزجّجاتٍ مجاورة ما تكتشفه لائقاً / محبّباً . تقول هاتان القلادتان لأختيَّ فاطمة وزينب ؛ وهذا الخاتم لأخي الصغير ناصر ؛ وهذا الطوق والأقراط والأساور لأمّي . أما لأبي فأفضّل لبسَ هذا الخاتم الفضّي الخالص بشذرته اليمانيّة الزرقاء فأبي متديّن يرفض أي معدنٍ لامعٍ يطوّق أصابعه .. تجمع كل هذه الحلي في يدك ثم تضمّها في جيبك وتخرج .. تتمثّل حركة الناس داخل السوق في أوج نشاطها .. محلاّت تعرض مقدّماتها بضائع شتّى ، عيون أصحابها متحفّزةً وألسنتهم تلوكُ أسماءَ المعروضات واحدةً بعد واحدة : قمّاشون وخيّاطون وعطّارون .. باعةُ كتب وصحف ومجلات .. باعةُ لوازمَ شخصيّة .. مناديل وأمشاط وفرش : فرش أسنان / فرش تصفيف الشعر / فرش تلميع الأحذية .. ملاقط وأصباغ ودهون ودبابيس .. باعة متجوّلون يدفعون عربات تمتلئ بمعجّنات وحلويات . تهفو نفسك وتريد لكنّها تعف .. تروحُ تتابعُ تحت سطوةِ الرغبة في التملّي والاكتشاف .. هل لك أنْ تعُبَّ كلَّ ذلك في حضورٍ واحد؟ هل بإمكانك أن تنهل كل ما تراه ؟! ... لو قُدِّرَ لك فعلَ ذلك لفعلتَ ؛ لكنكَ على يقين من أنّه لن يتأتى مرةً واحدةً . إنَّ للعينِ مدىً محدود ؛ وللقلب مُتّسعق مُقدَّر . والأماني مهما اتخذت لها من مفازات ومديات فلن تجد لها قَدَراً يُرسيها كاملةً على مرافىء التحقيق الناجز .. وها أنتَ تنأى . تنأى بعيداً ؛؛ ولخيالِك الحقُّ في ركوبِ جناح الانعتاق من قيود الواقع ؛ لكنك تشعر أنَّ حبالاً تجرُّك من فضائك المُحلِّق في سديمه . وكلما هربت أو سعيتَ للتخلّص من أسرِها ازدادت قوّتُها واشتدّت خيوطُها .. ذلك يجعل قواكَ تضعف بالتأكيد ، ثم تخور فُيسرع تنفّسُكَ ويزداد نبضك ، وتحس بالعطش مُحرقاً / لاهباً له سطوة الجلاد وجبروته .. عطشٌ يشتد ويهيمن حتى يُدخِلُك دائرةَ اللهاث . هذا اللهاث هو الذي يسحبُك بعنف . لا رجاء / لا تشبّث / لا تذلل ينفع في إدامة التحليق .. ومثلما رفعتكَ يدُ الدهشة إلى سديم الحُلم تجرُّكَ يدُ العطشِ إلى أديم اللحظة فيتبدد كلُّ شيء ويزول ؛ وتشعر أنَّ سببَ العودةِ هذا الاكتظاظ المتوالد من سخونةِ الهواء وازدحام المتسوّقين المنشغلين بالحملقةِ والتعامل والشراء ، وتصحو على يدٍ قوية تقبضُ بيدك خوفاً من أن يأخذُ بك الزحامُ وتنفصل عن صاحبتها التي تراها الآن وكأنك تكتشفها لأول مرّة . " أمّي .. أمّي " . تهزُّ يدَها ، تسحبها ربّما من حُلمٍ كانت سادرةً فيه . تُسمعها همسَك الخجول : " أنا عطشان ! " . إنها لحظات الانكفاء والتقهقر واستلاب متعةِ البحث والتطلّع اللتين يشغلان أمّك في شراء حاجيات جئتما من أجلها . إنّكَ تُثقلها بطلبِك وتضطرّها للتطلّع في ما حولكما ثم تنحني إليك وتقول أننا شارفنا على نهاية السوق ، سأطلب لك الماء حال خروجنا . " لو كنتَ ما تزال فوقَ كفِّ الدهشة لشربت ماء دجلةَ والفرات وأكملتَ حاجة التروّي . " .. وتلمح بعينيك الحزينة على ضياعِ الحلم خاناً . باباه العريضتان مشرعتان . وتبصر كوزَ ماءٍ هناك في داخله . تنخز خاصرةَ أمّك ، تُريها إيّاه . تدلفان . تُلقي هي تحيةً ريفية على رجلٍ أسبغت عليه سنواتُه الخمسون وقاراً واتزاناً ، يجلس خلفَ منضدةٍ عريضةٍ تعلوها أوراقٌ

وسجلات منضَّدة ومصباحُ مكتب مُضاء . ابتسم الرجلُ ابتسامةً عريضة ونهض .. خطوتَ مُسرعاً نحو الكوز لتُنهي سطوةَ الظمأ في جوفِك المحترق . توغِل يدَك في الكوز . تملأ " طاسة " ، تكرعها سريعاً . لا يُحسسّكَ امتلاؤها بالارتواء .. تذكّرتَ إنّكَ وأمّك لم تشربا الماء منذ غادرتما القرية . هممتّ بملأ الطاسة مجدداً كي تقدّمها إليها ؛ غير أنك لم تجدها إلى جانبك . التفتَّ . أبصرتَ الرجل الوقور يكلّمها باهتمام مُبالغٍ به ، طالباً منها الدخول إلى مكتبِه فيما هي تشكره بخجلٍ وامتنان ريفي . كان المشهدُ عاديّاً لديك . ملأتَ " الطاسة " ثانيةً وشربت .. نزَّ عرقٌ حثيثٌ على جسدِك وشعرت أنّ بطنّك سينفجر . تطلّعتَ إلى أمّك فلم تجدها . ساورك ظنٌّ أنها ربّما سبقتك للخروج . خطوتَ مسرعاً . اقتربتَ من بابِ المكتب وكنتَ على وشكِ اجتيازه لولا الصرخة المفزعة ، وكلمات الاستغاثة المنبعثة من هناك .. سقطت بقايا الصورِ العالقة في ذاكرتك ؛ احترقت ذيولُ الأنوار وتشظّت الألوان فاستحالت جميعها جحيماً وسهاماً ساخنة تنغرز نصالها في نقائكَ المُنتهَك . لمحتَ الرجلَ الوقورَ متخلّياً عن قِناعه ، متشبثاً برعونةٍ واستهتار بذراعي أمّك . وأمّكَ تجاهد محاولةً الابتعاد . ورأيتَ أيضاً كيف هجمَ عليها بغريزةِ وحشٍ هائج ؛ وهي بكبرياءِ القريةِ ونقاءِ الزروعِ ودفقِ السواقي تُدافع عن عفّتِها مستغيثةً ، مستنجدة .. هرعتَ إليها إذْ امتلأتَ حنقاً وحقداً . رفعتَ مكعّباً أسودَ يستوي على سطح المنضدة . لا تدري إنْ كان حجراً أم زجاجاً أج خنجراً . وبكل ما اختزنَ ساعدك الصغير من قوّةٍ هويت بها على جبهته ، فتعالت بغتةً أنّة مكتومة انبثقت إثرها نافورةٌ تتدفق سائلَ أحمر ؛ تقاطرَ على وجهه فلوثّه .. بهتت أمّكَ لما فعلت . اكتسحها طوفانُ صدمةٍ لا تُصدَّق . " لا بدَّ أنَّ فعلتَكَ أثلجت قلبها المُحاصر . " . سحبتكَ على عجلٍ وخرجت ... كانت دمعتان كحبّتي لؤلؤ تطفوان في حدقتيك ؛ ما لبثتا أن ارتعشتا وانسابتا فوق خديك ، مسحتهما أمُكَ بطرفِ أصابعها ، وهي تقول : " ها قد صرنا على مشارف القرية ؛ إنّي ألمح فاطمة وزينب وناصر . إنّهم بانتظارنا .

أيلول / سبتمبر 1992

السماوة

الوبـاء

_ لقد حلّوا هنا .

هكذا نزل الخبر كبيراً ، مهولاً ، صاعقاً ؛ فسرى تيّارُه بسرعةِ البرق .. هيأ البعضُ البنادقَ الملفوفة بخرقٍ نضحت ببقعِ الزيت ؛ واستلَّ آخرون خناجرَ كانوا يخفونها تحت أفرشتِهم ، فيما صممَّ آخرون على استخدامِ المناجل كوسيلةٍ هجوميةٍ لا يُستهان بها .. النسوةُ احمرّت وجوهُهنَّ احتقاناً ، وسكبت عيونُهن شرراً وهنَّ يتمتمنَ ويتصايحن : لا يمكن أنْ يحدث هذا حتى لو طلّقنا الرجال أو صرنا أراملَ .

- **في الديوان أطلقَ شيخُ العشيرة يؤيده الكثيرون تهديداً مزبداً ، راعداً ، صارخاً : أنَّ عشيرتَنا في خطر .**
- **في المدرسةِ عقد المديرُ اجتماعاً مع هيئته التعليمية ، وأعطى لاجتماعِه عنوان " الوباء " .**
- **وفي مكتبهِ أحسَّ مديرُ الناحيةِ بأنه إزاء موقفٍ لم يدُر بخلده أنْ سيحصل يوماً .**

أمّا نحنُ الفتيةَ الصغار فقد ألفينا أنفسنا في زاويةِ تصوُّرٍ حرجة ؛ مأسورين محاصرين . خصوصاً وقد تردّدت كلمة " وباء " كثيراً في مدرستنا ، وسقطت على مسامِعنا كالرصاص الثقيل من أفواه معلمينا .. داهمتنا شتّى الصور الدامية المرعبة .. خُيّلَ لنا أننا واقعون في بُركٍ لا قرار لها ، ستأخذنا أعماقُها البعيدة بعيداً فنغوصُ في غياهب الخطر الداجي ، أو محاطون وسط أتونٍ لاهبٍ لنار لاحدود لها وليس لنا سوى انتظار النهاية المتجبّرة ، أو أنَّ مرضاً ينفث مخلوقاتٍ متناهيةَ الصِّغر ، سارية مع الهواء وبالتأكيد ستكون رئاتُنا مُجبرةً على أن تصبح بؤراً أو مكامنَ لها .

لقد تغيّرت معالم القرية فجأة .. فالحقول التي تعج كلَّ صباح بأهلينا من الفلاحين رأيناها خالية . وسوق القرية الذي يخلو في هذا الوقت من الضحى صار يمور بخطى الرجال الغاضبين الموتورين ، يلتقون حلقات ، ثم تنفرط لتتشكّل حلقات أُخر . صار مدخل المركز يحتشد بالمجتمعين بانتظار خروج مدير الناحية لتدارس

وتدارك الأمر . لن تُعطى لهذا الوباء ضريبة البقاء .. ساعات ثقيلة صرمناها واقعين تحت هيمنة الحيرة واتخاذ القرار. (وهل لنا قرار نحن الذين لم نفقه سر هذا الارتباك وفقدان التوازن وسط هياج كالدخان يُعلن سطوته فوق سماء قريتنا ؟!) .. قيل انهم الغجر .مفردة لم نسمع بها من قبل . حتى أنَّ ألسنتنا استهلكت الكثير من الوقت كي تتمكن من لفظ الأحرف الثلاثة المتنافرة : غ غ ج ج ررر .. تساءلنا والحيرة الطافحة على وجوهنا تثير مَن نستفهمه السخرية منّا أو ربّما التأسي علينا : أليسوا هُم " معدانا " جُدد اتّخذوا ذلك المكان(1) ؟! .. وجاءنا الجواب : كلاّ .. كلاّ . فعلمنا أنَّ للغجرِ مهنةٌ غريبة هي في الأساس الرقص . هذا العمل الشائن المريع حيث عرفنا ممّن كلّمونا أنَّ من يمارسه ناقص الحياء ، فاقد الكرامة ، وطيء الشأن .. رقصٌ تمارسه النساء ، فيما رجالهنَّ تضرب لهنَّ على الدفوف وتنقر على الطبلات وتمرر الأوتار المشدودة على ربابة مصنوعة من صفيحة وقود مستطيلة . أمّا المتفرجون وجلُّهم يأتون من المدينة فهم سقطة القوم / شاربو الخمور / لاعبو القمار / شُذّاذ الآفاق .. وهؤلاء جميعاً في حلٍّ من الأخلاق . وما داموا هكذا فلا مندوحة من ممارسة أفعال شائنة قبيحة ، مستهجَنة أقلّها مضاجعتهم النساء الغجريات . لم نكن في توق واندفاع لملئ قلوبنا بالدماء السوداء ، وشحذ عقولنا بالحقد الطاعن عليهم لولا الأخبار التي شاعت سريعاً بيننا .. قال أحدنا أنّه سمع أمّه تتحدّث مع جارة لها عن ممارسة هؤلاء لفعل السرقة : أنّهم يخطفون البنات ليجعلوا منهنَّ راقصات ، داعرات عندما يكبرن (داهمتنا صور كابوسيّة كأنها تحدُث لأخواتنا فعلاً) ؛ ويسرقون الأولاد الصغار ليجعلوا منهم ضاربي دفوف ، وناقري طبلات (فتخيّلنا أنفسنا في ذلك المشهد الوضيع) ؛ أغمض كلٌّ منا عينيه كي يطرد ذيول التخيّلات العالقة في أذهاننا .

بعد صمتٍ تمطّت فيه اللحظات ، واستحالت الدقائق سلاحف عمياء تنوء بأرجل مهشّمة أطلَّ مدير الناحية فبان لنا قصيراً / ثخيناً / مترفاً / ذا وجه مدوَّر وخدّين حمراوين لم تلفحهما شمس ، ولم يمسسهما غبار . تكاد بدلته الحضرية وربطة العنق المتدلّية من رقبته تضيقان لفرط بدانته . مسح بعينين جوّالتين طافحتين بألسنة الشرر الجمع المحتشد . على يمينه وقف شيخ العشيرة محمّر الوجه ، يندفع كرشه المكوّر خارج جسده

بينما انتصب مدير مدرستنا على يساره وقد اخفت عدستا نظّارته السوداء عينيه المتّقدتين غضباً ... تحدّث المدير وتحدّث . تحركت يداه صعوداً وهبوطاً . انفرجت أصابعه وتشنّجت بحركات عصبية ، مُظهرةً عزمه الأكيد وتصميمه الذي لا يعرف التردد . أشهد شيخ العشيرة ؛ وأشار على مدير المدرسة . فراحت الرؤوس المحتشدة تهتز توافقاً واتّفاقاً بعد كل جملة مشحونة بالحماس والوعيد . هللّت الأفواه ؛ واستبشرت النفوس . سمعنا البعض يتفوّهون : رجلٌ بحق . وآخرون يواجه بعضهم البعض : ثقتنا بكلامهم كثقتنا بنسائنا .. وعاد الحشد منفرطاً ؛ وعادت النفوس راضية / مطمئِنة . ليست سوى أيام وستعود القرية كما كانت : بلا وباء ، ولا استنفار ، ولا أطياف كابوسية تعكّر ليل الصفاء .

غير أن القرية ظلّت تعيش حالة الترقب على الرغم من عودة الفلاحين لأعمالهم في الحقول . فالمضارب الآخذة لون جذوع النخيل التي نراها على البعد شاخصة مثل مثلثات هرمية مجسّمة كانت تبدو كأنها تعد العدّة للانقضاض على القرية واستباحتها .. وحين مرّت الأيام تتوالى خامر البعض شك في استمرار ذلك الحماس ، وتلك الفورة من الغضب لدى شيخ العشيرة ومدير المدرسة . أمّا مدير الناحية فلم يعد الكلام الحاد بشأنهم يصل منه . كل ما يصل إلينا هو خبر توجّه مفوّض شرطة المركز مبعوثاً منه إلى مضاربهم حاملاً أمر ترحيلهم الإجباري ثم عودته ليُعلم المدير بما لم نعرفه . والذي نعرفه هو ما ولّدَ التوجس والخشية من

الأيام .. وجاء من يطمئن أهلنا : دعوهم يتصرفون بحلم الكبار العارفين ؛ فموقفٍ كهذا لا يجب النظر إليه بيسر .. أولئك قوم هذه مهنتهم ، وهذا عُرفهم وليس من الحكمة مواجهتهم بالعداء ؛ واليد القويّة لا تأخذ اليد الضعيفة بغفلة . فالمرونة هي واحدة من أوجه الحكمة ولا بدَّ سيرحلون حالما ترسو أفكارهم على وجهةٍ يتّخذونها .. أويّد هذا الكلام بكلام آخر يقول : لماذا هذا الاكتئاب ؟ الكل مؤمنون ، والقرية تنام وتستيقظ مطمئنة / آمنة . لا سرقة ، لا اختطاف ، لا تعدّي .. (للحق نقول : لم نر أحداً منهم يطأ حدود القرية . فالشوارع ما برحت نظيفة من أقدامهم ؛ ومرايا البيوت / الجدران لم ترتسم عليها ملامح وجوههم المريبة . وأفياء النخيل لم تشهد حرارة أجسامهم وأنفاسهم اللاهثة بعدوى الوباء .) . وهكذا انبثق في صدور الناس يقين يُعلن عن فحواه : غيمة سوداء ، بقليل من الصبر وحفنة من الأيام ستتعدّى وترحل .(2) بينما ظلَّ هاجس الخوف يتسلق سفوح أذهاننا التي تأججت في شريط من صورٍ مُضبّبة ، وأصوات غريبة مبهمة .. لكنَّ! هاجساً شرع ينمو ويكبر مُزيحاً كل ما يُعزى إلى الاستكانة أو الرضوخ . ذلك هو الذهاب إلى هناك حيث المضارب الآخذة لون جذوع النخيل .. ما ضرّنا لو تعرّفنا على أولئك الوافدين ، المُستهجَنين ؟ . تشاطرنا الرأي ونشرنا الأسئلة ، وجمعنا الاحتمالات . استثنى بعضهم المجيء بينما تحمّس له آخرون .. صرنا أربعة ، وقلنا بكلامٍ واحدٍ : سيكون لقاؤنا تحت شجرة التوت الكبيرة ، ما قبل "الروف" . وقلنا للآخرين انتظرونا عند مغيب الشمس سنكون قد عدنا لنعرض لكم شريط المشاهدات التي سحبتها عيوننا وألصقتها على جدران الذاكرة .. الوصول قد يبدو عسيراً ، لكننّا على أي حال سنصل ؛ سنتملّى وجوههم / خطاهم / أفعالهم .. لا ندري أن كانت ثمّة شارات على جباههم ، او على خدودهم مثلاً تفصح عن هويتهم كغجر !! . هل هم طوال أم متقزّمون ؟ ينطقون بلغتنا أم ألسنتهم تلوك لغة ثانية ؟ . قال أحدنا : ولماذا نبقى حيارى الأفكار ، فالساعات القليلة القادمة كفيلة بفض غشاء الألغاز المشتبكة في رؤوسنا .

ومثلما تسللّنا ذات يوم وانحدرنا تاركين القرية والزروع في قيلولة ظهيرة خريفية ، متّخذين درباً يجعلنا غير منظورين من قبل " المعدان " السائحين بجواميسهم قرب النهر تحركنا هذه الظهيرة تحت شمس نيسان الدافئة . سرنا عبر درب تتعالى فيه الأرض تارةً وتنخفض أخرى فنضطر عند ارتفاعها إلى الانبطاح والزحف لئلاّ نُكتشَف فيُضرب حولنا طوق السرقة والاختطاف فيما نلتقط الأنفاس بعد تدحرجنا في المنخفضات فننفض عن ثيابنا الغبار ، ثم نروح صاعدين من جديد تسعفنا أحيانا بعض الأجمات الناهضة جاعلين منها ملاذات تبين من خلالها مواقعنا ، مخمّنين المسافة المتبقيّة للاقتراب من خيامهم .. سرّنا أننا رأينا بعض الصغار من قرى بعيدة يقتربون بأغنامهم . فسّرنا ذلك على أنه فضول لا يختلف عن الفضول الطافح في نفوسنا .. خففَّ ذلك شيئاً من قلقٍ بداخلنا فيتركنا نكتشف ثقل خطواتنا ، وجفاف حلوقنا ، وتيبّس شفاهنا . حتى إذا اقتربنا وصرنا نميّز رجالاً نبصرهم مرتدين دشاديش بيضاً عن نساءٍ داخل ثياب طويلة ذات ألوان برّاقة فاقعة وهم يتنقلون من خيمة لخيمة .. تناهبتنا الهواجس ، وتفاقمت الأسئلة غير المحسوبة طافحة فوق أمواه قلقنا : ماذا سيفعلون بنا لحظة اكتشافهم لنا ؟ .. أنقول أننا رعاة ؟ سنُسأل : أين هي أغنامكم .. تائهون ؟ وهل يتيه أحد في أرضه ؟!.. فكرة استحسنها الجميع ألقى بها أحدنا . هي أن نختفي في أخدود أو خلف أجمّة لا يلمحنا معها أحد ؛ ثم نندفع واحداً تلو الآخر .. قال أكبرنا عمراً سأسبقكم إلى مكانٍ قريب منهم ، وحالما أكتشفه آمناً أومئ إليكم فتأتون تباعاً .. ساورتنا الخشية ، وسادنا الارتباك ونحن نبصره يقترب من الخيام . تساءلنا : ماذا لو انقضّوا عليه ؟ كيف السبيل لإنقاذه ؟ .. تداولنا في ذلك مراراً . قال أحدنا سأعود بلمحة بصر لأخبر أهلنا في القرية بينما تندفعون أنتم لملاقاتهم وتحذيرهم بسوء المصير ووخمة العواقب إن مسّوه بأذى .. وفيما

نحن نخوض في لُجج الاحتمالات والصور الرمادية طالعنا بإيماءةٍ من بعيد فاندفعنا حسبما خططّنا .. لكنَّ شيئاً ما ولّدَ دهشةً ، وبرزَ قلقاً كان يفرض سطوته على أعطاف أذهاننا المشوّشة ، حين رأينا أعداداً كثيرة منهم لم نضعهم في الحسبان . رجال يتنقّلون من خيمةٍ لأخرى كما لو أنَّ أمراً غير اعتيادي يستدعي تفجير هذه الحركة الصاخبة . شاهدنا فتاة سمراء كحيلة العينين ، ضامرة الخدّين تخرج من خيمةٍ وتقف متطلّعة باهتمام لرجلين مسرعين يتداولان لحسم أمر يبدو جسيماً ، جليلاً لديهما . كما شاهدنا فتاة ثانية تقاربها عمراً تخطو باتجاهها . حتى إذا توقف إلى جانبها وأسقطت الشمس شيئاً من أشعتها الصفراء على وجهها الأسمر الداكن استطعنا تبيّن وشماً أخضر مزرقّاً ، نازلاً من خط الشفة السفلى حتى نقرة الحنك المدبّب . وفي غفلة هتف أصغرنا بدهشة : انظروا يميناً .. هناك تخطر فتاة ممتلئة آتية من وراء خيمة صغيرة بتكلّفٍ ومجون . تتناثر على ثوبها الأزرق اللامع وحزامها الضيق المشدود على ردفيها شرائط من ضوء الشمس مستحيلاً بريقاً متشظّياً في اتجاهات شتّى ؛ ضارباً على وجهها الموشّى بابتسامة باهتة ، مفشياً أصباغاً متناثرة : أحمر يصبغ خدّيها ؛ أسود يتشبّث برموشها ؛ أصفر يطفح من تحت بشرتها . خطت صوبَ خيمة مستطيلة كبيرة ، تأخذ طرفاً قصيّاً من صف خيمٍ صغيرة متجاورة . تفجّرت بواعث الفضول لدينا ، وتأججّت نوازع نزقة كانت تلوذ هاربة جرّاء احتمالات عديدة توالدت إزاء وجودنا في هذا الموقف الغريب . زاد في ذلك ما وصل مسامعنا من أصوات تبيّناها على الفور نقرات طبلة وعزف ربابة تتعالى في الهواء تتخللها همهمات وصرخات بشرية كأنها صادرة من أفواه تُضرب ظهور أصحابها بسياطٍ لاهبة .. قفز إلى أذهاننا كلام شيخ العشيرة وارتسمت ملامح وجهه الغضوب . تذكّرنا صورة مدير المدرسة ونظّارته السوداء وهي تحجب أو تخفف الشرر الطافح من عينيه الخرزيتين ، كما تذكّرنا مدير الناحية وقراره الحاسم القاطع . قلنا بلسان العرفان والود والاحترام : كم كانوا حكماء في تصرّفهم ؟!. وكم كان لأهلنا الحق في ايلائهم الثقة المطلقة . إنَّ زهواً بسعة الأثير غمر قلوبنا ، وأراح أعصابنا المشدودة . فالتآلف هو واحدٌ من خصال بيض تشدُّ قلوب أُناس القرية وتجمع وشيجتها .. اقترح أحدنا أنم ننهض ونقترب من الخيمة . لكنَّ أكبرنا هتفَ في وجوهنا : لا تكونوا حمقى ! سننال غضبهم لو اكتشفونا . الأفضل أن ندع الشمس تغيب ، والظلام يهبط قليلاً . نحنُ وصلنا ولا يمكننا العودة دون الاغتراف من موار هذا العالم المغلّف بالأحاجي والأسرار . لقد نسينا أهلاً لنا ينتظرون . سيقلقون لتأخرنا بالتأكيد .. نسينا مَن ينتظرنا عند شجرة السدر الكبيرة ، ولا بدَّ هم الآن في توق متفاقم لسماع ما سنحكيه لهم .... بعد حين صارت الشمس قرصاً برتقالياً طفق يغور في الأفق ساحباً ذيول الضوء الباهتة من دروب القرية وظلال البساتين ، وقيعان السواقي المتشابكة هناك . ونحن هنا ننتظر ؛ وكلّما انتظرنا وأمسكنا قلوبنا المأسورة بالحذر والترقّب تعالت ضربات الطبلة ونغمات الربابة ، واستحالت أشرعة الظلمة رديفاً لهما ؛ تظاهيهما في الصعود . وحين أدركنا أن ليس بمقدور أحد إبصارنا " هيّا ! " قلناها بصوتٍ واحد .تسللنا كالقطط حتى وصلنا الخيمة الكبيرة . توزّعنا على ثقوب ينضح منها وهج ضوء " لوكس " في الداخل . تركنا لعيوننا حريّة التحديق عبر فضائها .. ضحك أحدنا عندما سبقنا بمشاهدة الفتاة ذات الوجه المطلي بالألوان التي شاهدناها تخطر من قبل وهي تتلوّى كالأفعى على إيقاع الطبلة المتواتر ، وغناء سمعناه ينبعث من فم غجرية كالحة الوجه متربّعة جوار عازف الربابة ؛ غالقة إذنيها بباطن كفّيها الأعجفين . على جانبيها جلس رجال بملابس حضرية وأخرى قروية . وآخرون بملابس عمل انتشرت عليها بقع الزيت الأسود ، وآخرون اختفت أنصاف جباههم بطاقيّاتٍ بيض وضعوها بطريقةٍ مائلة على رؤوسهم فيما شواربهم معقوفة تطوِّق شفاهاً مزرقّة ووشم بشكل أفاع وعقارب وأسماء وعبارات مناجاة خضراء حُفرت على سواعدهم .. الجميع

يتمايلون جلوساً . في حين ترتفع أيادي بعضهم مطوّحة في الهواء كأنها تؤدي مراسيم توديع أشخاص وهميين ؛ لكن في الواقع _ حيث سادنا الاعتقاد _ تلوّح معبّرةً عن هيام أطبق على القلوب . إزاءهم لمحت عيوننا المستوفزة زجاجات حمراً وأقداحا يملأها سائل حليبي لاصف (3) . راحت الأيادي ترفعها لتفرغها في أفواه شفاهها سائبة ، متدليّة كأنها تسابق ذبول العيون واقتراب رموشها الآيلة إلى الانطباق والركود . تطلّعنا وهمسّ تصاحبه كركرات مكبوتة تطلقها أفواهنا التي تركتها الدهشة فاغرة حيرى تتساءل عن جدوى ما يدور ..... فجأةً ، وعلى نحوٍ غير متوقَّع إطلاقا تصالبت عيوننا على وجوه أسقطتنا في هول وذهول كاد يسلبنا وعينا ويرمينا جثثاً متبلّدة في شريط الظلام المتكئ على جدار الخيمة لولا العناد الذي فزَّ بغتةً في دواخلنا ، وجعلَنا نصرُّ بإلحاح شديد على الاكتشاف الناجز لنقطع شكّ العقل ويقين العين . وذلك ما حصل ، إذْ لمحنا بعين اليقين رجلاً قروياً أكرش ليس غريباً يخلع عقاله وكوفيته من رأسه ويرميهما عند قدمي الغجرية الراقصة وسط قهقهات الرجال الذين انبرى منهم اثنان حضريان يرتديان بدلتين مهندمتين . نهضا وبحركةٍ راقصة وميوعة ماجنة . خلع الأول جاكيتاً كانت تخفي عيوب جسده الثخين ورباط عنق يتدلى من رقبته ورماهما إلى حيث رما الرجل الذي نعرفه حقّاً هيبته ووشاح كرامته . تبعه الثاني خالعاً نظّارةً سوداء من على جدار أنفه ليرميها بشدّةٍ على الأرض التي تعالى من تحت بساطها غبار رمادي ارتفع وعلا حتى ضببَّ المشهد الغريب فأزاد هياج الجُلاّس وصرخاتهم وبواعث جنونهم ، ودفعنا نحنُ إلى الارتداد مذعورين كأنَّ كلَّ ذرّةٍ داهمت عيوننا عبر الثقوب الصغيرة نصال موجهة بدقّةٍ نافذة : " هل رأيتموهم ؟! هل تصدّقون أنهم ..... " . سؤالان خرج صداهما من ذهولنا المرتمي في وحل الرياء والدجل .. نهضنا من مكاننا مأخوذين ، محبطين يكتسحنا ذعرٌ متجبّر . لا ندري كيف جعلنا نترك المضارب الهجينة مندفعين باتجاه القرية المسترخية ، بعد نهارِ تعبٍ طويل ، وعرق عمل أزلي لنوقظها بصرخاتنا الفزعة المعلنِة عن هجوم الوباء الذي كانت مخلوقاته المتناهية الصغر تتحيَّن غفوة الدروب وغفلة العيون بانتظار اكتساح البيوت الوديعة ، المطمئنة ، الآمنة .

تموز / يوليو 1993
السماوة

---

(1) نتذكّر وسط تصالب عيوننا في السماء مقدم أنفار يربون على العشرين ، مرتدين دشاديش وكوفيات موحلة تتقدّدمهم نسوة لا يختلفنَّ عن أمهاتنا بأزيائهن وسحنات وجوههنَّ السمر يتابعن هياكل مخلوقات سود ، ضخمة لها قرون هلالية اعتلى بعض ظهرها أطفالٌ عراة ، هودروا جنوب القرية ، جوار الفرات . بنوا لهم غرفاً طينية . نظر لهم أهلنا بمنظار الضيوف .. استقروا أياماً ولم يحسبوا لسوءة الحظ التي تعرّت فداهمتهم فجر أحد الأيام وهم نيام ؛ نافثة مخلوقات لا مرئية نزلت فتكاً بالجواميس المنهمكة باجترار الأعلاف ، تاركةً إيّاها تمارس فعل الصرع المباغت . يومها انفجر صوت الرعب نزيفاً في القرية وسمع الجميع كلمة " وباء " ،

فهبّوا بسكاكينهم الباشطة ، وخناجرهم المشحوذة اللامعة ، منهالين على الرقاب الصلبة المكتسية شحوماً سميكة نحراً ؛ قاطعين دابر ذلك المرض الدخيل وسط عويل نسوة " المعدان " وهنَّ يبكينَ ويصرخنّ كأنَّ الجواميس المنحورة أو المصروعة اخوة لهنَّ أو أخوات .

(2) يوم انحدر ركب المعدان صوب قريتنا لأولِ مرّة ساور الجميع إحساس مشوب بالترقّب والخوف من المجهول .. حضور الغرباء دائماً يثير في الأذهان غبار التوجّس . لكن اللحظات التي ما نسيها رجال القرية هي لحظات تاريخية / الساعة السادسة عصراً ، والديوان يعج بالجالسين المتحدثين وفناجين القهوة تُدار عندما دخل ثلاثة " أزلام " بأزياء كالتي يرتديها الجالسون ، وقالوا : السلام عليكم . فردَّ الجميع تحيتهم . رُفعت الدلال من جديد ؛ وأُديرت الفناجين . تناولتها الأيادي وأفرغتها في الأفواه المتحفّزة . وسمع المتطلّعون المنصتون بعد صمت قصير ما قاله الغرباء .. كان في كلمهم مودّ' واستماحة ، ورجاء . تلك الليلة عاد الجميع مطمئنين إلى بيوتهم ، صار حديث الغرباء الودّي حديث كل بيت فتكحّلت العيون قريرةً برؤى الطمأنينة ، وتلاشى الشك من الصدور نهائياً .

(3) في صبيحة يومٍ ما قدمت من دروب المعدان ثلاث نساء يحملنَ أوانٍ من الألمنيوم البرّاق ؛ تعلوها طبقات من القشطة المُعَدة باعتناء ، تغطّيها قطع قماش بيض ويحملنَ زجاجات مُلِئت بالحليب المُركّز ، تفرقنَ عند مدخل القرية ، ورحنَ يخطونَ .. الأولى اتخذت طرقاً يفضي لبيت شيخ العشيرة ؛ والثانية أسرعت بخطى حثيثة صوب بيت مدير الناحية ؛ ومثلها فعلت الثالثة فكانت تطرق باب مدير المدرسة وسط ملاحقة عيون القرويين وهمسهم . وعرفنا في ما بعد أنَّ ذلك كان جزءً من ثمن بقائهم والجواميس في أرض الله .

تبّون والحصان

بعينين خرزيّتين ، ونظرات ثاقبة متفحصة استطلع المواد التي افترشها أمام دكّان مغلق على الدوام ، يقع وسط السوق الشعبي على يسار مدخل عريض ، يفضي إلى سلم لفندق في الطابق العلوي .. النازل من الفندق أو الصاعد إليه يستطيع رؤية " تبون " أبو العتيق بجسده الضخم ووجهه الأسمر المدوّر الممتلئ ، تطوق رأسه " جراوية " من يشماغ متسخ . منذ أن فتح عينيه على هذه الدنيا والعالم صامت لديه .. يجلس خلف خردوات ومواد قديمة متفرقة ، من المرجح انه حصل عليها من أنقاض بيوت هُدمت في فترات متفاوتة ، أو التقطت من منخفض الفرات حيث يشح ماءه (أيام يصير النهار ثلثي اليوم ، وتصير الشمس بؤرة ساخنة ، لاهبة) فتظهر ما رُميت فيه من أباريق وقدور نحاس أو ألمنيوم ، مثقوبة أو منبعجة ،

ومسامير حديدية صدئة اقتُلعت من أبواب متهرئة سُجِّر خشبها يوماً ما في تنانير فاغرة لبيوت ترقد في أزقة موبوءة بالعفن والرطوبة والهواء المحنط .. أزقة لشدة ضيقها تكاد تمتص الهواء امتصاصاً ، يندفع منها بين الحين والآخر صبية نزقون ، لشد ما يثيرون حنقه ، ويؤججون في داخله غضباً يكاد يكون من العصي عليه كبح جماحه ، يقفون متطلعين بعيون تسيل مكراً وخبثاً ، يخيل إليه أنهم يتحادثون بصمت سافر عمّا يرونه من أقفال فقدت مفاتيحها ، أو مفاتيح ضاعت أقفالها ، كفوف برونزية مبسوطة تتوسط راحتها عيون بشرية خط فوقها وبخط بارز " اللّه " وتحتها " الحسود لا يسود " .. مرشّاة عطور فضية يكسوها صدأ رمادي قاتم .. أصداف لامعة براقة .. قواقع بحرية .. أبدان مختلفة لأجهزة صوتية ماتت فيها حرارة الأصوات وهجرتها آذان كانت تهفو لسماعها بشغف وهوس أقرب إلى الجنون ... وعلى صندوق حديدي جانبي ينتصب هيكل برونزي لحصان عربي جامح ، يقف ورقبته متصلبة ، ينسدل على جانب منها شعر كثيف متطاول .. الفم مفتوح يخيل لمن يحدق في عينيه المستوفزتين إنه يطلق صهيلاً يشيع في امتداد السوق ودكاكينه ، مقتحماً أسماع المتسوقين والمتفرجين ، وأصحاب الدكاكين والباعة المتجولين (من يقوى على ترويضه وامتطائه ؟) يبدو متذمراً ضجراً ربّما من الرطوبة وعفن الهواء المنبعث من رشح أنابيب الماء الصاعدة إلى طوابق الفندق الثلاثة .. معظم نزلاء الفندق هم جنود مستجِّدون وموظفون غرباء . وفكّر " تبون " : اليوم هو الجمعة ، إذن لن يتمكن من رؤيتهم يهبطون من الفندق أو يصعدون إليه ، فهم الآن عند أهليهم ضيوفاً مرحَّباً بهم ، يحلمون على وسائد طرية ، وتحت أغطية ناعمة : حلم الجلسات العائلية والنزهات الروحية ، والزمن المتدفق على مرافئ الطمأنينة الناجزة / حلم الارتحال إلى ذلك العالم الصغير والتقاء الوجوه الصغيرة ، النقية طافحة بالبشر والبراءة والتي أضحت أشباحاً حلّقت عالياً ثم تسربت كالدخان / حلم التسكع ليلاً في الأزقة والطرقات الخالية في مطاردة الكلاب والقطط السائبة بلا هوادة / حلم الإغارة على أعشاش البلابل والعصافير واقتطاع عناقيد العنب وثمار الرمان وهي لمّا تزل فجّة / حلم العوم في الأنهر الزرقاء أو الارتماء في الترع والسواقي الضحلة عُراة تماماً إلا من ضحكات نزقة تخرج من القلب فتسيل مرحاً وانتشاءً بعيداً عن أعين الاستحياء والتحذير غير المقنع من أفواه الكبار المأسورين بالهواجس المقلقة والخوف الدائم من المجهول .. وتذكَّر " تبون " نزيلَ الفندق الشاب الذي تردد أكثر من مرة لشراء الحصان . لقد دفع مبلغاً حسبه يسيراً وغير مقنع جعله يرفض حتى عندما أضاف زيادات أخر . لكن الشاب كان عازماً على الشراء مثل طفلٍ يصرُّ على حيازة لعبة أثارت اهتمامه وأججت عنده رغبة الامتلاك . لقد اشترى منه في أوقاتٍ سابقة أكثر من تحفة دون مساومة ، فما باله الآن ؟

كان الوقت ما يزال مبكراً ولا ريب أن يلوم " تبون " نفسه خصوصاً وان زوجته طلبت منه البقاء في البيت لوقت أطول فرفض . لقد استيقظ كعادته مع أذان الفجر فأدّى الصلاة وتناول رغيف خبز وقدحين من الشاي ، وخرج يدفع العربة ذات المسندين الخشبيين عبر أزقة متشابكة ، حتى أن انتهى إلى الشارع العام وجد حركة السيارات ما تزال محدودة ، والأرصفة خالية تفتقد المارة ،، وهناك عند مدخل السوق حيث يصير قريباً من موقعه ومكان عرض خردواته وجد عربات تبيع الحساء والبيض المقلي واقداح الشاي ، يتحلَّق حولها بضعة أنفار جُلُّهم عمال بناء وجنود يوشكون على الذهاب إلى معسكرهم الكائن خارج المدينة . وكان عليه أن ينتظر ما يزيد على الساعتين حتى تدبُّ الحركة في السوق ، وتستبيح الشمس بأشعتها الصفراء أركانه ليشع بريقها شديداً تاركاً عيون المارة نصف مفتوحة ، وظل هياكلهم قصيرة متقزمّة بينما تعلو أصوات باعة الخضر ضاجة صاخبة ، وتتجمّع نساء وأطفال آتين من مداخل المدينة وأطرافها كي يعرضوا ما يودون بيعه من سجائر

بأسماء عربية وإفرنجية ، وبضائع مهربة ، ملابس وأحذية سبق استعمالها ، ساعات لها أسماء غريبة وأجهزة مذياع مشكوك في استمرارية صلاحيتها . يقابلهم آخرون جلوساً أو وقوفاً عارضين بضاعتهم ، طيور البط والدجاج والبلابل وعصافير الحب والكناري ، وأقفاص بأحجام متباينة بانتظار من يدخلها (ومن يدخلها يغدو أسيراً والى الأبد) . لقد أسره ذلك الشاب نزيل الفندق ، وجعل يفكر : إن بعته بالسعر الذي يريد فستكون خسارتي ربع كلفة الشراء ، وهذا غير معقول .. غير معقول على الإطلاق . أنا على ثقة من أن أحداً سيأتي لشرائه ، فالكثيرون توقفوا وتطلعوا إليه وأمعنوا النظر فيه . وكثيرون هم الذين أفشت عيونهم بالدهشة والإعجاب لوقفته المتحفزة ، المتأهبة للانطلاق .. كانت عينا الحصان مفتوحتين على أشدهما كأنهما تبثّان سحراً آسراً ، وإلا ما الذي يدفع المارَّة على التوقف مشدودين متصلبين ، كتصلب عيون " تبون " على الدكان المواجه له والذي شرع صاحبه العجوز يفتح ظلفتي بابيه الخشبيتين ويدفعهما إلى الجانبين ؟.. الدكان يشذُّ بما يحتويه عن الدكاكين المجاورة . وكما لو تحررت رغبة حبيسة في رأسه ، فكَّر : لو كان له مثل هذا الدكان العجيب لرمى بخردواتهِ وأشياءه العتيقة في عرض النهر ، ولتخلص من رحلته اليومية المتبعة بعربته الهرمة ، ولكان قد تعلم سر مهنة ذات شأن كبير لا يعرفها سواه .. إنَّ دهشةً بحجم الدكان تهيمن عليه كلما تطلع في مرأى الأشياء التي يحتويها ، فهي تشكل في تصوره عالماً غريباً ، مكتنزاً بالطلاسم والألغاز .. مجرات صغيرة تنفتح الواحدة منها عندما تُسحب حلقة برونزية لامعة فتفوح روائح متنوعة لأعشاب طبيّة مخلوطة أو منفردة (ورد لسان الثور ، ورد البنفشة ، بابنّج وغيرها) .. وفوق صف المِجرات تتراصف قناني ماء الورد والزعفران وعصير الليمون وسوائل مستخلصة من بذور الهيل وأخرى تضاف إلى المأكولات فتفوح رائحتها شهيّة زكيّة .

بعد وقت ....

دبّت الحركة في السوق فتزايد أعداد المارة ، وتسابق بائعو الخضر والفواكه بعيون متحفزة لاغراء واستقبال من جاء للتسوق ، واحتشد عدد كبير من الرجال والصبية حول بائعي الطيور ، وعجَّت في المكان أصوات مختلفة متنافرة .. وعلى مقربة من صف سيارات حمولة انشغل بعض سائقيها بتفريغ أو تحميل بضائع مختلفة توقفت سيارة باص طويلة كُتب على جانبيها بحروف لاتينية اسم شركة أجنبية نزل منها أشخاص من ذوي البشرة الصفراء والوجوه المضغوطة بأنوف مفلطحة ، وآخرون طوال القامة ببشرة بيضاء محمرَّة ، يظهر لفح الشمس عليها جلياً ، شعور رؤوسهم بلون الحِنّاء .. المرأة فيهم تطاول الرجل .. تتدلّى من أكتافهم حقائب جلدية فارغة .. فوجئوا بهجوم الشمس وسقوطهم في دائرة ضوئها الساطع فانكمشت عيونهم لبرهةٍ ، ثم تفرّقوا على نحو ثنائي ، أو بشكل مجموعات .

كان " تبون " منشغلاً بإعطاء أسعار الخردوات بإشارةٍ من أصابع يديه لمن جاء يسأله عندما توقف رجل وامرأة يلبسان الجينز . راحا يمسحان المواد المفروشة بعيون زرق ثاقبة .. في السابق كان الاثنان كلّما مرّا من هنا توقفا قليلاً يستطلعان الأشياء ثم لا يلبثا أن يندفعا إلى داخل السوق (والسوق مسقَّف بأعمدة حديدية تغطيها صفائح معدنية ، ويتناسل الفيء فيها طيلة النهار) ليتفرجوا على محلات بائعي الأقمشة / الصاغة / الخياطين / العطارين / المقاهي المحلية وهي تعجُّ بالرواد من مدمني شرب الأرجيلة ،ولاعبي النرد والدومينو . لكنهما توقّفا هذه المرة طويلا ، وراحت المرأة ذات العينين الزرقاوين بعد أن تحدثت بلغة غريبة مع الرجل الذي سحب يداً كانت تطوق خصرها تحدق في الحصان المنتصب وتنظر إليه من زوايا متعددة . توهجَّت عيناها على نحو مفاجئ . خُيل لـ " تبون " الذي لفت انتباهه وقفتها الغريبة إنها ستقفز إليه وتسحبه

من عِنانه . بهت الرجل الواقف إلى جانبها وتفوّه بكلمات مُبتسرة ، باردة لعلّه يبغي إطفاء انفعالات تأججت وطفت على وجهها فزادته إحمراراً . قالت بدهشة المرأة اللائبة : انظر إليه ألا يثير اهتمامك ؟.. تذكّرت كيف كان أبوها يمتلك عدداً من الخيول الأصيلة ، كانت يومها بنتاً صغيرة تأسرها الدهشة لمرأى أبيها وهو يمتطي أفضلها مندفعاً خارج باحة الإسطبل باتجاه حقلٍ يمتد عبر مساحة شاسعة والخيول تنطلق كالبرق .. كان أبوها يسعى بين الحين والحين لتدريبها ، طالباً منها بعينين نافذتين ، طافحتين بالصرامة أن تتقن مهارة ركوب الخيل .. شيءٌ ما كان يساوره ، يتمثل بخوفه من أن يفلت زمام الأمر من يديه أخيراً ... وأخيراً قررت الخيول الانعتاق من أسره حين أدركه الكبر وأثقلته سنوات العمر فراحت تتحرر من أمام عينيه وهو صاغر / عاجز .. ساور المرأة ألم مُمض ، فقررّت شراء الحصان بأي ثمن ، لتعيد سطوةً افتقدتها منذ زمن بعيد .. رفعت يديها راسمة إشارة تشي بسعرٍ مغرٍ ، أيقنت أن " تبون " سيقبله ، وها هو على وشك ذلك ، إذ تطلّع في وجهها وصار كأنه يفكر بأن السعر مقبول جداً فابتسمت في وجهه محاولة بغمزة من عينها إرخاء عِنانه وإضعاف كبريائه ، لكنّه لبرهة استحالت لديها زمناً ثقيلاً حرك رأسه معلناً رفضاً قاطعاً جعل وجهها يشحب وقلبها يعتصر ، ودمها يسخن فتهتف بحنق الذئبة الجريحة : أيها الأبله كيف أقنعك ؟.. فكّر بإمعان لو حصلت عليه ستمتطيه وتتعبه .. ستسومه العذاب ، تحثّه على الجري السريع ، تدخله حلبات السباق ، تمس كبرياءه ، إذ تلكزه بفردة حذاءها المتكلبسة في مؤخرته دبابيس لها رؤوس حادة مؤلمة ستجعله يعدو لاعناً يوماً أضحى مصيره بيد امرأة رعناء .. انداحت من أمام أنظاره صورة المرأة والرجل والمارة ودكاكين السوق وهياكل الأبنية المنتصبة خلفها واستقرت على الجسد السابح بدمٍ ما يزال فائراً ، متدفقاً من ثلاث بؤر فاغرة فوق الصدر .. شاهد بعين الطفل ذي الأعوام المعدودة يد أبيه ما تنفك ممسكةً بصلابةٍ على قبضة " المكوار " .. كانت عيون الذين حملوه تتّقد وتتوهّج .. ورأى تبون أمّه واقفةً عند رأس أبيه تجاهد في سحب " المكوار " من يده لترفعه عالياً ، مؤجّجة غضب رجال العشيرة الذين رفعوا فالاتهم ومكاويرهم وبنادقهم بحركة واحدة ، مرددين عهد الثأر والانتقام .. خيل إليه أن عيني المرأة التي أمامه هي ذات العينين المتقدتين شرراً وعداءً وذات الفم الذي تفوه آمراً حاملي البنادق من الهندوس والسيخ والكَركَة ليطلقوا النار من نوافذ القطار المنطلق بأقصى سرعة هرباً من الثوار المندفعين لتعطيله ودحرجته من على السكّتين .. رفع رأسه كمن لُدِغ فهز رأسه رافضاً من جديد ، يسيل من عينيه الصغيرتين ، الحادتين تحدٍّ عنيف ، ولم تُجدِ محاولاتها المستمرة نفعاً . وعندما حاولت للمرة الأخيرة إغراءه بمبلغ يفوق أضعاف السعر وجدت أنْ لا أمل يُرجى منه .. نهضت بإشارة من الرجل الواقف بجانبها ، وانسحبت كنمرة كسيرة منهزمة شاهدهما " تبون " بعد حين يخطوان متخاذلين . علت وجهه ابتسامة وسرت في أوصاله نشوة ارتياح جارفة . استمر هذا الإحساس يساوره حتى عندما انقضت ساعات عديدة ، وصار النهار يوشك على الاحتضار ، وقلّت حركة الأرجل ، وأُغلق اكثر من دكان ، وجعل بعض الباعة يعدّون مدخولاتهم ، بينما غادر بائعو الطيور والسجائر وآخرون المكان ، وبدأ نزلاء الفندق يتقادمون إليه بوجوه حزينة متعبة ربما لأنهم سُلبوا متعة البقاء الدائم مع أهليهم فتركوا أماكن استقرارهم النفسي والعاطفي ، لذا كان سلامهم على " تبون " أقل حرارة مقارنة بأيامهم الاعتيادية . إنه يدرك ذلك على أية حال .. والابتسامة التي يرسمها على محيّاه ، كانت تنضح بألم دفين كلّما رد على تحية أحدهم رافعاً رأسه إلى السماء كأنه يقول " خليها على اللّه " في عون الشاب نزيل الفندق عندما ألقت به سيارة الأجرة واقترب منه ومن خرداواته حيث كما وجهه شحوب مفاجئ ، ونظرات شرعت تبحث حائرة قلقة عن شيء تركه يوم أمس هناك فوق الصندوق الحديدي ولم يره الآن .. أنزل حقيبته أرضاً وراح يسأله بإشارات مرتبكة

فهمها " تبون " على الفور فأطلق ضحكة احمرَّ لها وجه الشاب ، وكاد أن يندفع مشحوناً بالغضب إلى الفندق لولا الإيماءة الصادرة من رأس " تبون " بإيقافه .. انحنى وبيده السمراء المكتنزة أخرج من الصندوق الحصان الجامح فسقطت حزمة من ضوء المصابيح المشتعلة في واجهة الفندق على رأسه الشامخ ورقبته المتصلبة ، شعَّ على أثرها بريق هاجم عيني الشاب اللتين إئتلقتا بغتةً .. أمسك الحصان . رفع حقيبته واندفع مرتقياً درجات سلم الفندق وصولاً إلى غرفته المطلة على السوق والتي شاهدها " تبون " بعد حين تُضاء ثم تنفتح على مصراعيها منطلقاً من داخلها فارس يعتلي حصاناً ، مندفعاً نحو السماء ، صوب نجومٍ تبرق وقمرٍ يأتلق .

آذار 1992

السماوة

طيـــور ســـعد

منذ استيقاظه وفراشات البهجة تهفهف بأجنحتها الرحيقية في فضاء روحه الحالمة ، ربّما لأنَّ الصباح أطلَّ رائقاً بهيجاً . أو ربّما لأنَّ الرؤيا التي راودته كثيراً ومرّت بشريطِ خيالاته مراراً قد استحالت حقيقةً ناجزة .. عجّت عيناه المتطلعتان لزوج الحمَام الفضي اللذين ابتاعهما يوم أمس بفرحٍ غامر ، واندهش لرؤيتهما يتآلفان بسرعةٍ عجيبة مع بقية حمائمِه وينهمكان في التقاط البذور التي نثرها فوق سطح غرفةِ بيتهم الطينية .. صدّق واقعَ امتلاك ما كان يحلم به وأيقنَ الآن أنَّ إصراره على الحلمِ والتحليقِ في فضائه هو الذي كرّسه وأحاله حقيقة .. أراد القول : لولا الحلم لما ولِدت الحقيقة لكنّه لم يستطع اختصارَ الكلمات المتزاحمة في رأسه واختزالها بهذه العبارة الموجزة ؛ فسنواتُه الثلاث عشرة لا تمنحه القدرةَ على التعبير بذلك .. أربعة لأزواج راح يطالعها بولهٍ غريب : زوج أورفلي ، زوج عنبري ، زوج مسكي ، ثم زوج فضّي .. تشكيلةٌ متكاملة ، هكذا راح يبصرها . سيجعلها تطيرُ محلّقة في رحابِ هذه السماء الشاسعة راسمةً ديباجةً من ألوانٍ طيفية تمر من أمام عينيه كسحابة كريستالية تنفذ إلى قراراتِ روحه عبر مفارق تنبثقُ على أعطافِها درزٌ ضوئيةٌ تفيض إشراقا وتسكب أنواراً مائيةً متفاقمة . وقتها سيفردُ ذراعيه ويهتفُ بلسانِ مَن لم تكتمل دهشته : " يا للسعادة التي ينقصها الجناحان ! " . أنحى نظره جانباً واستدارَ ليترك البيت ويخرج . تحسّسَ العرقَ ينزُّ على بشرته فأدرك سخونةَ الهواء وضراوةَ الشمس . جعل يتأفف لوهجِها المندفع لعينيه وعرف أنه صرفَ ساعات الصباح والضحى في رحلةٍ عفويةٍ انشطرت فيها تأملاتُه ورؤاه ، سابحةً في لازوردٍ مُفعمٍ بسيولٍ دافقةٍ من اشتياقاتٍ وتناغياتٍ تمورُ في دوّاماتٍ أثيريةٍ من طوفانِ خدرٍ لذيذ .. انبثق في داخله صوتُ الإحساسِ بغرابةِ الموقفِ وتذكّر أنَّ مردَّ ذلك هو تلك المخلوقات الباعثة على تفجيرِ الأحلامِ المُعرّشة بسحرها على منافذِ روحهِ المُشرعة . فهمس بخفوت : " أُريد لها أن تحلّق بعيداً ، بعيدا ؛ تطير بلا عائقٍ / بلا مُحبطٍ / بلا رقيب . " . خرجَ سالكاً دربا تحتشد على جانبيه زروعٌ وطيئةٌ تعلوها شجيراتٌ تتدلّى أزهارُها الحمراء بكثافةٍ تُغري حشراتٍ نهمةً مهفهفةً بأجنحةٍ هوائية في محاولة الهبوط على مياسمها المتفتحة بشراهةٍ . على مقربةٍ كانت بضعُ بطّاتٍ بيض تندفعُ بأجسامٍ متموّجة لتدخل ساقية صغيرة انحسرت فيها المياه . شاهد ثلاثاً منها تنزلقُ في الماء ثم تعوم دون جهدٍ مُطلقةً من بين مناقيرها التي تبدو كأنصافِ كعكات أصواتً زاعقةً ؛ تحاكيها بذات الصوت بطّات أُخريات يوشكن على النزول .. تذكّر حمامتيه الجديدتين ! تذكّرهما . وإذ ذاك تمثّلت أمامه صورةُ " كامل " .

كان كامل زميلاً له يشاطره الكرسي في الصفِّ طيلةَ السنةِ الدراسية ، وعدهُ ببيعِه الحمامتين . ولمّا كانت قريةُ كامل تبعد كثيراً فقد اضطره ذلك إلى النهوض مبكّراً مُنطلقاً بحمارته ، متّخذاً دربا نديّاً بين مساحاتٍ واسعة مغمورة بالمياه ، تنبجس منها حشودُ سيقانِ الرزِّ الخضر وتختبئ بينه كلّما اقترب وتناهى صوتُ ارتطام أرجل حمارتِه على الأرض طيورٌ بيض لها سيقان طويلة مستدقّة .. سار قاطعاً طريقاً طويلاً مرّ خلاله أمام مدرسته مُبصراً بابها الموصد العريض ، في وقت كانت الصفوف والممرات ترنو في صمتٍ موحش .. لن يدخلها بعد الآن . لقد صار في المرحلةِ الإعدادية . سينتقل لمدرسةٍ جديدة في مركزِ الناحية ؛ وسيشتري دراجةً منظمّاً لجوقَةِ الطلبة المنطلقين كل صباح إلى هناك . تذكّرَ أنّه خرج منها في اليوم الأخير واستدار متملّياً بناءها الشاخص وسط بقعةِ ارضٍ خضراء مزدهية بأشجار الأثل والكالبتوس التي زرعها أول

مدير مدرسة جاء بها من المدينة . قال وداعاً .. وقال له كامل : لو لم تكن صديقي لما بعتك الحمامتين . لقد جلبهما أبي من " سوق الغزل " في بغداد عند مجيئه بإجازةٍ من عمله في "سامراء" . يقول أبي في هذا السوق تمتلئ العين بأنواع الطيور : طيور الحب / الكناري / الحمام / الببغاء . انتفض وهو يتفوه بكلمة ببغاء . هتف : أتدري يا سعد ؟ يقول أبي أنَّ الببغاءَ تنطقُ بلغتنا ، تلقي عليها التحيةَ فتجيبُك وتسأل عن صاحبِ الدار فتخبرك ، وإذا أزعجتها تشتمُك ثم تطلب النجدة .. مضى خلفَ الروف تنبثق في رأسه إيماضات صاعدة نحو فضاءات بلا حدود .. أيادٍ صغيرة لصبيةٍ رعاة تلوِّح بها عاليا ، عيونٌ متصالبة في تتابعٍ وملاحقةٍ لا تتوقف ، أفواه تسوّرُها شفاهٌ طريةٌ غضّةٌ مفغورة على أشُدِّها علامةَ إفشاءِ الدهشة أو الإفصاحِ عن ذهول ، صبايا ساهياتٍ عن جرارٍ أخذها من بين أيديهن مدُّ الماء الدافق في السواقي بينما عيونُهن تطفحُ برغبةِ الاستغراق في التطلُّع لمهرجانِ التحليقِ وقلوبهن تنبض بمحبةٍ تجلِّلُها البراءةُ لهذا الفتى المهووس بحمائمه .. توقَّف حيثُ الساقية العريضة وماؤها الذي يرسم دوائرَ الاشتياق لضمِّ جسدِه الصغير كي ما يبدّد من خلاياه شحناتِ الحرارةِ المتأججة . توقف عند عُشبةٍ تحاذي الجرف فخلع ثوبه ونعليه المطاطيين وتحرك نازلاً إلى الماء . ذلك جعلَ ضفدعةً كبيرة كانت غاطسة في بقعة طين ضحلة تقفزُ وترتمي وسطَ الساقية مُحدثةً ارتطاماً شتتَّ أسماكاً شذرية صغيرة كانت مُتخفيةً بين حشائشٍ منبثقة من جوف الماء . لم يأبه لما حدث (شعورٌ بالتوحُّد مع مفرداتِ الطبيعةِ يخامرُه . هو جزء منها : الأشجار / الزروع / السواقي / الضفاف / النهر / غدير الماء / بوح الفواخت / ثغاء الأغنام ، وكل ما حوله يُترعه بألفةٍ وحميمية) شرعَ يغطسُ ثم يعومُ متلذّذاً بنشوى طراوةِ الماءِ وبرودته ، سائراً مع المجرى أو جاذِفاً عكسهُ . ثمّةَ سهامٌ ضوئية تنفذُ عبرَ تشابكاتِ أغصانِ شجرةِ توت مُعرشة بمحاذاةِ الساقية تتساقط على وجهه الطافي فوق مستوى الظل الملامس للماء ، استعذب مسارها باتجاهه فاستلقى على ظهرِه كأنه يبغي استقبال نصالاً أكثر ، تاركاً لعينيه حرية تأمل زرقة السماء وصفاءها . وحين رفع رأسَه عن الماء إثرَ رفرفةِ جناحي فاختة سمع أصواتً بعيدةً لفلاحينَ يتنادون ، تبعتها زقزقةٌ متواصلة لعصفورٍ متخفٍّ بين أغصانِ شجرةٍ قريبةٍ أيقظت فيه حسّ تذكُّر حمامتيه ، فتساءل هامسا إنْ كانتا تستعجلان الانسجام مع البقيةِ فتطيران غداً ! .. تُرى هل سيأتي غدٌ ؟

****

تنصرف بضعةُ أيامٍ فتذوب لياليها في عينيه أحلاماً ورؤى وتخيّلات . يأخذ به زورقُ الكرى إلى عوالمَ بعيدةٍ ، لها قدرةُ تحقيقِ ما يبدو مستحيلاً . هناك تحملُه أمواجُ الدهشةِ فيهتفُ بغرابةِ الموقف : " أحقاً يمكن ما لا يمكن ؟! " فيأتيه الردُّ منساباً بنبراتٍ منغّمةٍ : نعم .. نعم . ويجد نفسَه مُحلِّقاً في فضاءٍ تنأى به الحدودُ على ظهرِ واحدةٍ من حمائمه ، فيطلقُ شهقةَ العجب مدوّيةً هذه المرة في تخومِ الأثير ، تتلقّفها النجومُ ، والأجرامُ ، وسفنُ الفضاء التائهة من قواعدِها الأرضية وتعيدها مع ردٍّ يقول : لا تعجب أيها الفتى رفيقُ الحلم .. هو ذا عالمُك فتمنّى .. هي ذي دنياك الخضراء فارتشف من كأسِ هنائِها ما تهوى .. دُرْ في بوحِ الألق ، دُر وارفعْ عن جيدِك عقدَ شظايا الخوف . إهنأ .. إهنأ ، فالكلُّ مطواعٌ بيديك .. يبوح بإعجابه لحماماته وهي تنتظم أنساقاً على جانبيه . يتكاثفُ شيئاً فشيئاً إحساسٌ غريبٌ في داخله ، يجوسُ في مسالكِ تلك الروح

الطافية كغيمةٍ في سديم ، فيُدرك بفعلِ اللحظةِ أنَّ للحلمِ تأثيراً مضاعفاً هو أقربُ إلى السحر أو التجلّي ، ليس بإمكان من يفتقده تخيّل مقدرة حملِه باليسر الذي تحمل فيه نسمةٌ أريجَ زهرةٍ فتية .. يتطلَّع إلى أسفل : هو ذا بيتهم بغرفتيه الطينيتين وسوره الواطئ ، وتلك بيوتات القرية تتناثر كأنها أقنان طيور ، وأولئك رجال ونساء يمنحون عرقَهم للأرض والزرع شوقاً ومودَّة واستئثاراً . وهناك أغنام تقضمُ من شريطٍ عشبيٍّ يمتدُّ حتى غدير الماء الذي ستهبط عنده طيورُه سعياً للارتواء ... أبقارٌ تمدُّ أعناقها لتكرع من ساقيةٍ دافقة بالماء .

تستمرُ احتفالية التحليق وقتاً، وتتوالى سُوَرُ السعادةِ الموشّاة بألوانٍ طيفيةٍ مشرقة / مهيمنة .. بيدَ أنَّ ملامحَ المشهدِ الجميل سرعان ما تُنتهك وتنفرط ياقوتاتُ عقدِها النوراني عندما يباغته من بعيد شيءٌ يبتدئ بنقطةٍ سوداء تتمخَّض بومضةٍ خاطفة عن عقابٍ هائل ، مريع ، منطلقاً كالرمحِ ومنقضّاً على جمعِ الطيور المحتفية .. يجد أنْ لا مناص من الدفاع .

تتحفّز اليدان وتتأهَّبا لصدِّ نقراتِ المنقار المعقوف ، متحملةً ألمَ المخالب المغروزة في اللحم الطري . ومن دون إدراك ما يُصار إليه الحال تتفتَّت سحاباتُ الحلم ليجد جسده غارقاً في عرقٍ غزير بينما أنفاسه تتلاحق ، ويديه تتحرران من قيود تشنج قاهر .

****

لعدِّةِ أيام ظلَّ مع ومضةِ الفجر واقتراب بزوغِ الشمس يزيل مغاليقَ الأقنان ، مانحاً حمائمَه الضياء والانعتاق ، ناثراً إزاءها البذور ، مُستبدلاً ماءَ الإناء . حتى إذا أشبعها وراحت أجنحتها تصطفق مرحاً وارتياحاً رفع عصا طويلة تتدلّى في نهايتها خرقة سوداء سائبة يهفهف بها عالياً فتتبنّدل الرؤوس الكروية الصغيرة يميناً ويساراً . وبزمنٍ قصير يشاهدها تطوف وترتفع ، وبذات الوقت تُضحي العصا تدور وتدور . تكبر دائرةُ الاتساع ، وتكبر .. تكبر ، ومعها تنهمرُ على مرايا روحِه قطراتُ ندى باردة ، وترغو على امتدادِ طوفانِ لواعجِه بهجةٌ آسرةٌ تجعله شاخصاً ، متوثِّباً كما لو كان سيطير مُنظمَّاً لمهرجانِ الندى ، تبدو طيورُه وهي تلجُ دائرةَ الشمس كأنَّها حبّات عقدٍ مُجسَّمة ، لها أوجهٌ متفاوتةٌ تعطي بروقاً متناثرة بمدياتٍ ونِصالٍ ضوئية توحي بلحظات فجائيةٍ من سهامٍ فائقة في خطفها وانطلاقتها ، مُكرسة حالةً من الإيهام في الرؤية والتخيل (الإيهام هو فيض من تجلّيات مزعومةٍ تنبتُ في أديمٍ لا قرار له ، ذلك أنَّ الرغباتِ المتوسِّدةَ صدرَ التراكم التخيلي تُفضي إلى الأمنيات ، بينما الأمنياتُ نجومٌ نائيةٌ في سماءٍ لا تعترف بحدود عالمها) .. وهو قانعُ بأمنياته يتابعُ حركاتِ حمائمِه النزقة وهي تستعرض هياكلَها المغزلية مُظهرةً مهارةً في الدوران الوئيد ، أو الهبوط الخاطف ، أو الصعود الشاقولي (بينه وبينها خيوطٌ من ألفةٍ واحتضان ، ود وانجذاب .. هي توشمُ صحائفَ رغباتِه بكؤوسٍ موشاةٍ بالبريقِ والألق ، ملأى برحيقِ اللذَّةِ والخدر ، وهو ينثر تحت أقدامِها تويجاتِ التحررِ والازدهاء) وكما لو كانت تستعذب افتانه وإشباع كبريائه المتأجج في أعطافِ روحه السائحة تشرعُ واحدةٌ منها بالتقلّب الخلفي لمراتٍ عديدة ، حتى تبدو كأنها أُصيبت بطَلَقٍ ناري ، أو طُعنت بسهمٍ تائهٍ فتهوى .. وحين تكتمل اللعبةُ بانشدادِ العيون ورعشةِ القلب تروح باسطةً جناحيها ، ملتحقةً بالجوقة التي سبقتها ، تاركةً الأخرى تتلوها بذاتِ الفعل ، وهكذا تراه مستأنساً وَلِهاً بحفاوةِ هذه اللعبة ، المهرجان .

تلك هي حمائمُه ، تلك هي أمانيه : ثمارُ جنائنِه ، وفيوضُ أحلامه ، مع أنسامِ السحر تأتيه بهيئةِ همسات ، أنغام مضمنة بعبق سماوي يتغلغل بين ثنايا الروح فيترعها بكؤوس الرغبات الناجزة ، المتحققة ، فيتيه على مرابض الغيم ، ويفك حصار العين .. ينثني مع طيّات البهجة قبل تشظّيها .. يدعْ القلبَ يطير فتأخذه الأنسامُ الباردة الى مداراتٍ ورياضٍ فارهةٍ تطفو بحشودِ الورد اليانع تحت شمسٍ مُبتغاة ..عالم ابتهالات منغمة بحداءٍ رخيم يبعث على السمو وسط هدوةٍ تشيعُ في قرارةِ الروح دعاءً ملائكياً يعيدها إلى مهدِها الفردوسي .. موسيقى .. موسيقى تسيلُ انتشاءً ، وتنهلُ فوقَ مساربِ النفس وانحناءاتها رذاذ حبورٍ غريبٍ تحيله مخلوقاً يمتلك أجنحةً تخفقُ في فضاءٍ يضوع بعطرِ أنسامٍ ما شمَّ لها شبيهاً من قبل (هو ابنُ الطبيعةِ ، قرينُ الوردِ ، سليلُ ملحِ الأرض) .. ومدار أخير تتكشَّف فيه تخومُ المياه : سوائلُ بلونِ الزروع ، بلونِ اللازورد ، بلونِ الثلج . تلك الأمواهُ تدعوه إلى العومِ في خلجاتها الفريدة لتعمِّده بالنقاءِ والشوق وتمنح عينيه هبةَ تحقيقِ المستحيل ، فيتساءل إنْ كانت السعادةُ شيئاً ملموساً كي يغرف منها ما يشاء ليودِعها خزائنَه الدفينة ، الغائرة في زمنٍ يطلق عليه "المستقبل" ! .. يستمرُّ ذلك وقتاً طويلاً تهبط خلالَه العصا من يدهِ وتقترب حماماتُه من الهبوطِ عند غدير الماء خلف الروف . لحظتها ينزل تاركاً البيت . يعدو صوبَ شجرة التوت الناهضة هناك . تواجهه مزارعُ الرز الممتدة بعيداً . يبصرها تنطلقُ باتجاهه ، والشجرةُ تتضخَّم أمام عينيه ، وبركةُ الماء تكبر وتتسع ، حتى إذا اقترب وتوقَّف توقفت حوله الموجودات .. يعتلي جذعَ الشجرةِ لاهثاً ، معروقاً .

وحينما اقتربَ من الشجرة هذا اليوم لم ينتبه لصبي كان يرعى أغنامه قريباً من منه .. صاح به الصبي :

- سعد ، تُتعب الطيور ، تجعلها تحلق طويلاً .
- ليس أنا ، إنما هو شأنها .. الطيور تموت إن لم تطر . ألا ترى كم هي سعيدة الآن ؟

صمت الصبي قليلاً قبل أن يتفوه :

- أتدري ، يا سعد !
- ماذا ؟!
- لا تبتعد عن الطيور ، راقبها باستمرار .
- لماذا ؟
- قبل يومين .. هناك في ذلك البستان كنت أرعى الخراف لمحتُ صياداً يمسك بندقية ، وعلى ظهره تتدلى شبكة تنحشر داخلها طيور مدماة ، فخذ حذرك .
- تقطب حاجبا سعد ، وانكمشت عيناه فتكشفت سيماء قلقة وشت بها ملامح وجهه الفتي .. تذكر انهُ سمع عصر أمس أطلاقة بندقية صيد قريبة تركت قلبَه ينتفض ، لكنّه نسيها بعد حين . لم يدُر في خلده اقتراب صياد من هنا .

الآن في هذه اللحظة لا يدري كيف رفعَ رأسه عن الصبي المتحدث ليرى إلى اهتزازاتٍ حذرةٍ عند أجمَّةٍ قريبة .

فجأةً وبحدسٍ لا يُخطىء ، وهاجسٍ انبثقَ للتوِّ تصلَّب في مكانه مُبيحاً للشحوبِ فرصةَ تسيّد وجهِه وللخوف انتصابَ شعرِه الأكراد . طافت في رأسه سحابةٌ من أسئلةٍ مريرة ، مربكة : تُرى هل سيفقد بسهولةٍ منقطعة النظيرِ مخلوقاتٍ كرّس لها جهدَه وصبرَه وكبرياءه ؟ وهل سينتهي كلُّ شيءٍ تحتَ سطوةِ الاغتيال والتجني ؟! .. لمح ثمة ماسورتين مزدوجتين تبرزان من بين أجمة كأنهما محجران في جمجمة ، خلفها تمثَّل رأسٌ لوجهٍ ملتحٍ وعينين وحشيتين واسعتين

تتابعان هدفاً لم يستقر . همَّ بالصراخ ، لكنه أحس بكلابات جبروتية تطبقُ على لسانه فتعدم لديه النطق ، وترمي به في عبثِ اللاتوازن ، شاهد دعائمَ كبريائِه تتهشَّم ثم تتهاوى بانهيارٍ مفجعٍ يصل حدَّ البكاء .. وثب من على الشجرةِ ناسياً أو متناسياً وخزةَ ألمٍ حدثت له عند مِفصل قدمه . انطلق يعدو وبواعثُ اختلاجٍ تتفاقم في صدرِه وتدفع بذلك الذي بحجمِ العصفور كيما يستحيل شحنةً متفجِّرةً تمزِّق أضلاعَه وتخرج مُحيلةً الشُغاف سداً منيعاً يقطع على الرصاصةِ النافذةِ دربَ الوصول إلى هدفِها الدموي . صاحَ به الصبي الراعي مذعوراً : " سعد انتبه.. توقف ! " .

لم يتوقَّف سعدُ .. لم يتوقف أبداً .

أنّى له التوقف وقد عادَ إليه حلمٌ طافَ في رأسه ليلةً مرت به من قبل لمِح العقابَ مرةً أخرى : ذلك المنقار المعقوف ، وتلك النظرات الحادّة والمخالب المقوَّسة الشرسة .. لن يترك لقواه المبثوثة في ساقيه وسواعده البقاء كامنة .. إنها لحظاتُ إيقاظِها وشحذِها وتفجيرِها .

ركض صوبَ الغدير . كانت حماماته الآمنةُ قد تركت الماء للتو نافضةً عن ريشِها اللامع النظيف ما عُلق بها من ماء . طفق يعدو كالسهم .. بيد أن المسافة بينه وبينها أضحت تتمطّى .. تحوَّلَ عدوُه إلى قفزاتٍ وأيادٍ مشرعة . صراخ رجاء ونجدة بأعلى ما تُطلقه حنجرته المختلجة التي خذلته بكلِّ قسوةٍ .. شعر بأنَّه يطير ، والشمسُ تغرز سهاماً من الأشعةِ اللاهبة في حدقتيه ، والعرقُ ينزُّ ويتصبَّبُ على جبينه ، منسرحاً إلى الرموش ، مستحيلاً قطراتٍ مضببةً شوَّهت لديه منظرَ البركةِ ومزارعَ الرز ، وحشودَ البساتين البعيدة ..

طارت الحماماتُ لحظةَ دوّى في أذنيه صدىً مرعبٌ وصوتُ ارتطامٍ تراخى بفعله رأسُه ، وتهاوى جسدُه .. تهاوى بخواءٍ وذبول ، فاحتوته أرضٌ نديةٌ يكسوها عشبٌ أخضرَ شمَّ فيه رائحةً غريبةً ، غامضة . لم تُسعفه ذاكرتُه المتقهقرة في تفسيرٍ لها : هل هي رائحةُ دمٍ ؟ رائحةُ غدر ، رائحةُ وأدِ أحلام ؟! ترقرقت دمعتان صافيتان عند طرفي حدقتيه وتبرعمت ابتسامةٌ وليدةٌ أخذت لها مساحةً على شفتيه اللتين زمّهما بقوةٍ عندما أبصر حماماته تحلِّق عالياً ، وتطوفُ حول غديرِ الماء في دوائرَ واسعةٍ ظنَّها ستستمر في تحليقِها معلنةً أبجدياتِ الفجيعة .. أتراها ؟!

لا يدري !.. سوى انّه حين أوشكَ على إغماضِ عينيه أحسَّ بالموجوداتِ تتَّشح بالسواد ، ويغرقُ الوجودُ في صمتٍ ثقيلٍ .. ثقيـ....ل .

آب / أوغست 1994

السماوة

رحيق الهمس

(1) أحلام مُشرعة

حين وطأتْ درجاتِ السلّم الثلاث وهبطتْ غمرتها ظُلمةُ الممرِّ الذي ولَجت فيه فعتَّمَ لديها الرؤيةَ وعزّت سببَ ذلك لوهجِ الشمس واحتفاءِ الظهيرة بشدّة الضوء اللذين خلّفتهما وراءها .

عمّاتُها تقدَّمنها وهُنَّ يطلبنَ الحذرَ في سيرها . قليلاً وأخرجنها من هيمنةِ الظُّلمةِ عندما دفعنَ البابَ الخشبي ليفاجئها الضوءُ الباهت المشبّع ببخارِ الماء الخارج من الباحةِ ذات الأخاديد المتلاصقة والسقفِ البيضوي المُقعَّر (مَن يظُن أنَّ هذا المكان قد شهِدَ حضورَ أمّها يوما ما منذ عشرين عاماً ، تحيطُها عمّاتها ، يسألنها الهبوطَ الوئيد على الدرجات ، ويبسملنَ لحظةَ الدخول في دائرةِ الظُلمة ؟!) .

دخلت ..

وعلى دكَّةٍ فُرشت بالبسطِ المقلَّمة النديّة شرعت بخلعِ ثيابها ... عيناها تتابعان حركة المُستَحمّات الخارجات توّاً من الدهليز الساخن : حمراوات / محتقنات / مسلوخات ؛ أو اللاتي جلسنَ يثرثرنَ بينما أياديهنَّ تُقشِّر برتقالاتٍ تناولنها من بين ثنايا ملابس مكوّرة تلفُّها قطعةٌ مربعةٌ من قماشِ قطيفةٍ سميك ... إحدى عمّاتها أخذت بيدِها ثم سارت بها . كذلكَ لحِقنّ بها الأُخريات . وعبرَ انعطافةٍ معتمة ، ودفعةِ باب ثانية وجدت نفسها بمواجهةِ بخارٍ ثقيلٍ يهيمن على مصابيحَ صفر تجاهد في ضخِّ الضوءِ كي ما يشغل فضاءً أوسع . نظراتُها سقطت على هياكلَ لحميةٍ تقتعد مربعاتٍ مرمرية تحاذي أحواضاً صغيرة وتتّكىء على جدرانٍ مطليّةٍ بلونٍ يحاول لملمةَ الضوء الشحيح الناضح عليه .... عمّاتُها أومأن إلى حوضٍ قريب . أجلسنها هنالك ؛ وبحركةٍ تبعث على الاهتمام رحنَ يتحلّقنَ حولها : البخارُ ، والماءُ ، والأيدي ، والضوءُ الشحيح كلها ساهمت في قُدّاس التطهيرِ الذي ابتدأ بغسلِ شعرِها الغزير المطلي بالحناء المتيبسة التي خضّبته منذ الصباح . ثم جاء دور " الليفة" المغموسة برغوة الصابون ، مارّةً على روضِ الجسد الفتي .. أغمضت عينيها ؛ أغمضتهما [رأيت أمّي تجرُّني ، ووجلُ الطفولة / الخوفُ من العتمة ، من البخار الكثيف ، من الأماكن الشاحبة يرمي بشباكِه الكابوسية الثقيلة . أسحب نفسي فتحسُّ أمّي بخوفي ، لكنّها تجرّني بقبضتها الحازمة . تعالي ، تقول : سأُريكِ الفتيات اللاتي سيصبحنَ عروسات بعد أيام . وأدخل ...] . وعلى أنغامِ همسٍ خفيض وأصواتٍ حميميةٍ متحاورة أطلَقَتْ أسرَ أجفانِها المُطبقة . تلقّت عيناها حفاوةُ الوجوه المبتهجة ، والعيونُ المشرعة الطافحةُ بالدهشة والتبجيل ، سابحةً في خضم سديمٍ ينضحُ من شقوقِ الجدران المُضببّة ، والأرضية المُحززَّة

ـ وهي تحت جبروتِ خدرٍ ما يزال يفرض سطوتَه في كيانها ـ ويرتفع . فوجئت به يتكثّف ؛ يستحيل أجنحةً رحيقية تحيط بها ؛ ترفعها شيئاً فشيئاً ، وعمّاتها بعينِ الدهَشِ يتطلّعنَ إليها ، [آ ، يا عمّاتي : هي ذي أثماري تنضج والعبقُ يضوع .. أنتنّ تنظُرنَ ، وأنا أطير!!] .. فوق ، هي تحلِّق ونداءٌ خفي يأتيها من بين حشودِ الضباب أنْ تعالي .. تعالي ووجهٌ دافقٌ بالرغبة / طافحٌ بالشوق .(نعم .. نعم ، هو ذلك الوجه أعطتها قسماته تلك المرأة ذات الوجه الأسمر الداكن والعينين النافذتين وهي تمسك بطرف كفِّها المنبسطة ؛ مُحدِّقةً في ابتداءات الخطوط المنحنية أو المتقاطعة ومنتهياتها ، قائلةً هو ذا سعدك .) . أخذها بعيداً . ومثل فراشتين أثقلهما وطءُ الرحيق المحتشد في قلبيهما حلّقا مبتعِدَين .. تتوالى الصور الجنائنية عبر خياليهما المتحررين .. أفردت ذراعيها بينما هو مقترباً يبغي احتضانها . على ظهر السحاب ارتقيا . ضمّها إلى صدره ، وعلى ضربات قلبِه المنغمة راحت تنعُم بـ : إغفاءةٍ / هدوءٍ / طمأنينةٍ ، وانتشاء ... وآ ؛ كم من الزمن الهارب من عمرِ الوَجد صرفتْ ؟! كم من الأمنيات الطافحة بالود للآتيات من الأيام رسمت ؟! كم من الأحلام المُعشبة تركتها تُعرِّش تحت أجفانها ؟! كم .. وكم ؟! . لا تدري سوى أنها أفاقت إثر لمسةٍ على كتفها ، ورجاءٍ ودودٍ من عمّاتها أن تنهض .

حين تطلّعت لم تشاهد أثراً للكتلِ اللحميّة على المقاعدِ المرمرية ، ولم يكن الضبابُ بالكثافةِ التي تاهت بها ، بل اكتشفت جسدَها وقد صار بُرعماً نضِراً ، ممتلِئاً ، ومتطهِّراً .

(2) أمنيات خُضر

في ذلكَ البيت الذي يتوسّطهُ فناءٌ وسيع فُرِشت أرضُه بالسجادِ المخملي والبُسط المقلَّمة ، ونُثرت عليها مقاعدُ الاتكاء المربَّعة تعالت الزغاريدُ وارتفعت ترانيمُ الأشعارِ المُعدّةِ مُسبقاً من أفواهٍ تجانست في نبراتِها واستحالت صوتاً غنائياً متناغماً استحسنتها مسامعُ الجالساتِ أو الواقفاتِ اللواتي لم يحصلنَ على مكانٍ بينما كانت أقداحُ الليمونِ توزّع عليهن وتتناول بعضُها أيدي الصغار المتتبعين لحركة " الصواني " المليئة .. وبين هذا وذاك كانت أغلبُ المحتفياتِ بانتظارِ شيء ما ، ولأسبابٍ لا يعرفنّها رحن يتحدَّثنَّ ويتمتمنَ لاهياتٍ عن جوقةِ الفتياتِ المنهمكاتِ في تناولِ الأشعارِ والانتقالِ من بستةٍ لأخرى . وبلمحةٍ انطلقت زغردةٌ حادّة جعلت الرؤوسَ تستدير ، وتسقُط الأنظارُ على قوامٍ رقيقٍ لفتاةٍ خرجت من غرفةٍ جانبيةٍ موشّحة بفستانٍ بهيجٍ من الحريرِ الأبيض اللامع ثم تتركّز على الوجه المستدير وقد تجلّت فيه العينان الواسعتان وهما تسكبان خجلاً لم تقدِر الفرحةُ على سعتِها أنْ تخفيه ، والشفتان البضّتان اللتان عمَّقت صبغة " الروج " الحمراء ارتواءَهما .. كانت الطرحةُ المتوّجة لقمّةِ رأسها صغيرةً استحسنت العيونُ المتطلّعة شكلَها المعمول بهيئةِ زهرةٍ بيضاء رائقة ؛ فلولا هذا الحجم لأخفت ذلك الشعرَ المنسدل ، المخضّبَ بالحنّاء ، ولاغتالت شلالاتِ الضوء المنهمر بانسيابيةٍ حتى أسفل الكتفين .. ولا تعرف الفتاةُ من أين انطلقت الزغاريدُ بهذه الكثافة والتواصل ، وعجَّ بها فناءُ الدار وتركتها تكتشف نفسها طافيةً على تموّجات نغميةٍ لأصواتٍ نسائية متوافقة ، وصفقات أيدٍ رقيقة ناعمة ، تتآلف مع تراتيلَ كانت تسمعها وهي صغيرة تتشبث بأذيالِ أمّها في أفراحِ الحي ومباهجِه .. وها هي الآن تنسكبُ بذات النغمِ وفيضِ المفردات في مسامِعها فأدركت حلاوتَها وطيبَ نكهتِها الغريبتين وهما تسريان عبر مفارقَ روحِها التي تحسّها الآن كفراشةٍ جذلة تحلِّق في عالمٍ حلميٍ عذب ، توجِّه إليها كؤوسُ الأزهار

دعوةَ ارتشافِ الرحيق ، وتباركها الأنسامُ بطراوةِ أنفاسٍ عبقةٍ معطَّرة بأريجٍ يبعث على الخدرِ والتحليق الوئيد ... تحركت فوقَ مداد من عيونٍ مُحدِّقة تحفّها غلالاتُ الدهشة ؛ وسمعت من يهمس في أذنِها : " مباركٌ لكِ هذا اليوم " و " يا لسعادة العروسات وهناء العرسان " ، فأرادت التفوّهَ بكلامٍ يفعمه الشكرُ وتضمّخه الأمنياتُ لهنَّ بالسعدِ ، لكنَّها لم تقدر . فقد سحبتها يدٌ من بين المحتشدات وأجلستها على كرسي متعالٍ بمحاذاةِ الجدار ، وتطلّعت في الوجوه لتميّز صاحبةَ الصوت الذي همسَ لها ، لكنَّها لم تجدها . صار كلُّ ما أمامها يرنو إليها وأحسّت كأنَّ جميعَ الشفاه التي تنشر على وجهِها الزغاريد والأشعار هي التي همست في إذنها ذات الهمس .. وترجمت في قرارةِ نفسها ذلك الشعور الذي كان يراودها ؛ وفسَّرت إنَّ مَن يحطنَ بها فتيات ينتظرنَ الهلالَ الذي لا يدرين متى يمتشق سيفَ النور ليخرج إليهن وينتشلهن من واقعِ الآمال إلى أديم الواقع ، فتمتمت بصوتٍ خفيض :

_ صبراً ، صبراً . فالأيامُ الخضراء آتية ، وفرسانُ الأحلام هم الآن في رحلةِ المجيء .

(3) قنـاعة

تلتقيهنَّ في الزقاق ، أو تواجههن وهنَّ يتكوَّرن فوق دكّاتِ البيوت .. صرن عوانسَ مُقيتات بينما هي تحتضن صغيرَها وهمسُ مناغاتِه ينبعثُ من بين شفتيه الغضتين لينغِّم مسامِعها ، ويمنحها سعادةً بلا حدود ، تطوِّقُها العيون المكبَّلة بأصفادِ غضونٍ زرق أو سود (كُنَّ يقاربنها العمر ، وكانت أثيرةً لهنَّ مثلما هنَّ أثيرات لديها ، لكنَّ للكبرياءِ جرثومةٌ تفتك بجسدِ القناعةِ اليافع ، وللنرجسيةِ معوَلٌ يهشِّم جدارَ الرضا والقبول بما مقسوم) تتباهى اليوم أمامهن ، والبدلةُ الزرقاء غسلتها وعلَّقتها على حبلِ الغسيل نظيفةً تعبقُ بعرقِ جسدٍ رجولي ، وذراعين مفتولين .. وهي إذْ تذهب الآن لزيارةِ أهلِها فانَّ الشوقَ يحدوها للعودةِ سريعاً إلى بيتِها كي تكون بانتظارِ طلعتهُ التي تنشر حناناً وألفةً على المكان .. تراهنَّ ، تلاحقُه عيونُهن النكدة بخروجِه وعودتِه وهنَّ يسكبنَ حسراتٍ وحسداً ورغائبَ في أنْ تنهل حدقاتُهن من هيبته بعد ما كُنَّ يرمقنه بنظراتٍ دنيا ، فلا يَحسبن له حسابَ التطلُّعِ شوقاً . وقطعاً لم يكن يوماً من الأيامِ فارساً لأحلامِ إحداهن (ضحكن حين أباحت لهنَّ بمقدمهِ وأهلِه للاقتران بها ، وتأسَّين عليها وهي تُعلن القبول ، ثم انسحبن عنها عندما صارت قرينةً له .. بتنَ يتثاقلن لمقدمِها وربما احتسابها عيباً ، فابتعدنَ) وكلّما فعلنَ ذلك كانت هيَ تزدادُ كبرياءً ، وتعجُّ في فناء بيتِها عصافيرُ تبني أعشاشاً ، تتزاوج ، تتكاثر ، ثم تحلِّق في سماءِ تفرد ذراعيها شغفاً وترحاباً .

هي كلّ صباح تلاحقه بنظراتٍ حنون خارجاً ببدلتهِ الزرقاء النظيفة . ترشُّ الماءَ على عتبةِ الباب عندما يبتعد ويغيّبه الزقاق .. وعند الغروب تستعدُّ لمقدمِه : عيونٌ تنتظر ، وقلبٌ يلوب ، ولسانٌ يهتف : متى تعود ؟! . وحينما يُظهره فمُ الزقاق من بعيد تبتهجُ لصورته وتطفحُ ابتسامةُ شكرٍ ودعاءٍ للذي أعاده مثلما خرج . ترمي رأسَها على صدرِه هامسةً : يا خيمتي ، ويا طمأنينتي .. تمسحُ وجهَها ببدلتِه المضمخة بالدهان ، بينما تتابعُها بغيظٍ عيونٌ تنكمش شيئاً فشيئاً ، لا تُطيق التطلُّع فتندحر منهزمةً ، كسيرةً خائبة خلف الأبواب التي يُسمع اصطفاقُها _ كعواءٍ _ على امتدادِ الزقاق .

آذار / مارس 1989

السماوة

ذاكـرة الأرض

بعد أنْ يكون ظلُّ الغرفةِ في الخارج قد تراجعَ منحسراً ، والهواءُ قد سخنت ذرّاتـه والسكون صارَ ربُّ البيت ، أكونُ أنا قد استيقظت ؛ فلا أجد أمّي . وأعرفُ أنها خلفَ التنّور المنتصب خارجَ الدار تُلقمه حطباً لتصنع رغيفاً ، وأُختـاي وقد خرجتا تجمعان " العاقول " و" العلّيق " ، وتأتيان بـه أكواماً علـى رأسيهما من شريط الأرض ، وراء سكّة القطار المار عبر أراضي قريتنا .. وقتها أنهضُ فأغسلُ وجهي من " ناقوط الحِب " (قرأتُ في كتاب العلوم المدرسي أنَّ الماءَ الراشح في الناقوط أنقى وأصفى من ماءِ الحِبِّ نفسه) .. أهفو لملء معدتي منه فيتردد صدى صوت أمي تحذرني لا تقترب منه ، فالدجاجات دسّت مناقيرَها ودفعت القططُ ألسنتها فلعقت . وكذلك فعلت الكلبةُ وجراؤها) وأجد أمي قد تركت إبريقَ الشاي وفي قعره شايٌ فقدَ حرارتَه في موقدٍ تحوَّل حطبُه إلى رماد .. أرفعه وأخرج .. تشاهدني أمّي فتأخذه من يدي .. تدفعه إلى جوفِ التنور .. لحظات وتخرجه يغلي ، وفي يدها الأخرى تسلّمني نصفَ رغيف ساخن .. أعود إلى مكاني . أسكبُ الشاي في القدح ، وأتبعه بملعقتي سكّر كبيرتين .. أروحُ أقضمُ الرغيفَ وارتشفُ الشايَ ، أقضمُ وأرتشف . أقضمُ وأرتشف . الدجاجُ يدنو بحذر ، ويفرُّ لأيّ حركةٍ تبدرُ مني . وقطٌّ تحت حرِّ الشمس يقعي . يتطلَّع بعينين شبه مغمضتين .

اليوم استيقظتُ على أصوات تتحاور في حوش الدار .. رفعتُ رأسي فأبصرتُ خطَ اقتراب الشمس ما زال بعيداً ، وأنسام الهواء تتكاثف باردةً طرية . سمعتُ أمي تكلّمها إحدى أخواتي بارتباك فتقول :

_ وجدوه منكفئاً في بركةِ الماء الضحلة خارج القرية .. بدلته وقميصه وربطة عنقه تلوّثت بالدماء والوحل .

صرخت أمي فزعةً منشدِهةً :

_ ومن قامَ بهذه الفعلة المريعة ؟!

_ كيف لنا أن نعرف ؟! .. باقتضابٍ ردَّت أختي الثانية .. قالت ذلك وخطت تتبعُ أختي الأخرى التي سبقتها في الخروج .

تمتمت أمي وصوتُها يختلج :

_ مسكين جبار ، قتلتَ نفسَك بيدك .

هتفتُ ناطّاً من فراشي :

_ ماذا قلتِ ، يا أمي ؟!

لم تجبني . كانت قد خرجت في أعقاب أختيَّ ، تتطلَّع إلى حركةِ الناس الوجلةِ باتجاه مكانِ بركة الماء .

(كان نهاراً ضاحكاً ، رائقاً ، يضوع هواؤه بشذى الحنطة المحصودة توّاً .. أنسامُه دافئةٌ ، انعتقت من بردِ الشتاء .. رأيت أبي في حركةٍ أيقظت انتباهي .. لم يذهب ذلك الصباح إلى الأرضِ لإكمال حصادِ الحنطة ، بل ارتدى ثوباً قطنياً أبيض ، وسترةً كحليةً أخرجتها أمي من صندوق حديدي تحتفظ بهما . ومن صندوق آخر أخرجت عباءةً شفّافة بلون الحنّاء ، تساقطت منها حين نشرها كراتٌ بيضاء لها رائحة غريبة .. خرج أبي مسرعاً .. استفسرتُ من أمي . قالت :

_ هرع أغلب رجال القرية يستقبلون جباراً .

_ ومن هو جبار ؟

_ واحدٌ من رجال قريتنا .. رحلَ إلى المدينةِ منذ عشر سنوات كان صاحب حظوة .. الأخبارُ تقول أنَّ اللَّه فتحها بوجههِ هناك صارَ غنيّاً ميسورا . بنى علاقاتٍ واسعةً مع تجّارِ المدينة ووجهائها . أخيراً قررَّ العودةَ إلى قريتِه ؛ إلى أرضِه . الذين قابلوهُ في المدينة قالوا أنّه سيخدمُ القريةَ وأهلَها .

_ وهل له أهلٌ هنا ؟ .. سألتُ أمّي .

_ ولِمَ لا ؟ .. ألا تعرف أم جبار ؟

_ العجوز صاحبةُ الغرفة المجاورة لبيت كريم ..

_ صحيح ، وكريم هو زوج ابنتها .

صمتت قليلاً ، ثم كأنها تذكّرت شيئاً :

_ كنتَ بعمرِ عشرةَ أشهر عندما تركَ القرية . كان صديقاً لأبيك . وكان أبوك يُجزي له المساعدةَ حينما لا يجدها عند أحد . كان يبتهج لرؤيتِك ؛ وكنتَ تضحك في وجهِه فيحملُك ويُشبعك بالقبلات .)

أسحبُ الغطاءَ من جديد ؛ أدسُّ وجهي تحتَ الوسادة . أدعو سلطانَ النوم ليتسللَّ إلى رأسي فيأبى . أقول في نفسي ما أزال راغباً في إغفاءةٍ تطوّح بيقظتي .. تصرخ بي نفسي مُعنِّفةً / ضجِرة : يا لخمولِك وتكاسلك . انّهض ؛ الدنيا تكاد تنقلب ، فأنهَضُ .. أرمي الغطاءَ جانباً . أقفزُ إلى وسط الحوش . يتناثر الدجاجُ فزعاً ، وأخرج فلا أجد أمّي ولا أثر لأختيَّ .. أُشاهد صبيين يحثّان الخطى . يكادان يتعثران . يرفع أحدُهما طرف ثوبه بيده . يلتفت الثاني فيراني .. أصيح :

_ فاضل .. ستار ، إلى أين ذاهبان ؟

يجيبني الأول :

_ لا تتغافل ! لم يبق أحدٌ إلاّ وعرف ما حدث هناك .

أنظرُ.. أبصرُ حشداً في المدى البعيد يدبُّ نحو بركةِ الماء الضحلة . هناك حيث نذهبُ عادةً لاصطياد الضفادع التي تؤرقنا طوالَ الليل فنقطّع أوصالَها تشفياً واستهجاناً .. أقتربُ منهما .

_ أتقبلان بمصاحبتكما ؟

_ بشرط أنْ لا تخاف عندما ترى الدماء .

(لم يعد جبار بالكوفيّة والعقال اللذين غادرَ بهما القرية . بل عاد ببدلةٍ كستنائية حديثة ، وربطةِ عنقٍ يلتمع وسطَها بريقٌ من دبّوسٍ ذهبي .. بهت الجميعُ للمرأى .. كم تغير وجه جبار الأسمر الكالح ؟ كيف

اختفى الخطّان الشاقوليان النازلان عبر وجنتيه ؟ وكيف غدا ذلك الوجه ممتلئاً ؟ كيف تبددت الصفرةُ الراكدةُ تحت البشرة واستحالت لوناً حيوياً طافحاً بالبِشر ؟ لقد بدا وسيماً ، أنيقاً ، واثقاً .

يوم أو يومان ووصل إلى كلِّ بيت كيسٌ مغلَّفٌ بورقٍ أصفرَ صقيل ، كأنه مطليٌّ بترابِ الذهب ، ملفوفٌ بخيوطٍ رصاصية .. بامتنانٍ صادقٍ ودودٍ قال الجميع إنها هدايا جبار ، وهبَها عرفاناً وجميلاً لأهلِّ قريته .. لم يبقَ صبيٌّ أو صبيّةٌ ، طفلٌ أو طفلةٌ إلا ونالَ مما جاء به جبار .. يومها صارت الشمسُ أكثر إشراقاً في عيونِنا ، والمزارعُ أينعَ وأبهى ، والسواقي أوفرَ مياهاً وأعذب .

قالت النساءُ : هي ذي حلاوة المدينة .

وقالت الفتياتُ اليانعات : يا لتعاسة حظنا .

وقال الصغار : ليتنا عشنا هناك .

عجبُ الكثيرُ من الرجال وشكّكَ البعضُ الآخر (قرأتُ في عمود مَجلةٍ غلَّفتُ بها كتابَ التاريخ : لا يحتاج الإعجاب إلا لعمل غير مألوف ، وحدثٍ غريب الوقوع .. وعن الشكِّ قرأتُ انّه بحاجة إلى يقين . وإدراك اليقين ليس من اليسير الرسو عند مرافئه . إنه بحاجة إلى دراية ، وتتبُّع واستقصاء)

مرت الأيام سِراعاً ، وتراكمت فوقَها الأسابيعُ .. تسللَّ إلى المسامعِ خبرٌ حُسبَ وقتها عادياً رُغم أنه غير مألوف . راغب الكاظم يبيع دونماته الخمس عشرة ويرحل .. قال الذين شاهدوه أنَّ سيارتين فارهتين توقفتا في مدخلِ مزرعته ، فخرج من ظلِّ شجرة توت راغب الكاظم وجبار . هرع الاثنان . بانحناء متكلِّف استقبلا مَن هبط من السيارتين .. كانوا أربعةَ رجالٍ ، تربَّعوا على أفرشةٍ صوفية . تبودلت ابتسامات لا تجانس بينها . تحركت الشفاه ، تبعتها الأيادي .. حِزم أوراق زرقاء وحمراء وخضراء انتقلت من يدٍ إلى يد .. بعد وقتٍ قصير جداً انتقل القمرُ من صوبٍ لآخر . ويوم أو يومان تلاشيا ، خلّفا إثرهما طوقاً ضُرب على الدونمات الخمس عشرة .. استحال راغبُ الكاظم جراءها مضغةً تلوكُها الألسن :

_ حيثما تنهض دِلالُ القهوةِ وتُدار في الفناجين .

_ وحيثما تلتقي الوجوهُ في الدروب ، أو في سيارةٍ نازلة إلى المدينة أو عائدة منها .

_ وحيثما يتدفَّقُ الماءُ من السواقي في فوَّهات القِرب والجِرار المتدلية من أيادي المالئات وهنَّ يلتقين لقاءً شبه يومي .

ثم تعاقبت الحكايات .

حكاياتٌ أشدُّ طراوة :

_ حكاية تقول أنَّ بابَ راغب الكاظم كانت تُطرق بين الحين والحين ليلاً ، لأفواهٍ تسأل وتستفهم ، وراغب الكاظم يُسمعهم قرقعةَ الأوراق الصقيلة ، قائلاً : هذا أبلغُ جوابٍ لاستفساراتكم .

_ وحكاية تقول أنَّ بعضَهم والخجل يحاصرُه ، وللحياء بقيّةٌ فيه ، فضّل البيعَ في المدينة دونَ العودةِ إلى القرية . ففي القرية ستواجهُه عيونُ العتاب واللومِ والتقريع .

- وآخرُ حكاية شاعت تقول : إنَّ الأوراقَ الملوَّنة التي دسَّها راغب الكاظم تحت إبطه ورحل في ليلة يغشاها الظلامُ العسير طفقت تتسرَّب من بين أصابعه كأوراقِ شجرةِ توت عصفت بها ريحٌ خريفية .

ويوماً بعد آخر استحالت الحكاياتُ مجرّدَ مرارةٍ تلوذُ كامنةً في زوايا الأفواه ، وضوءَ كابياً يبهت في الذاكرة .. لكنَّ الأخبارَ ظلت تشيرُ إلى أنَّ جباراً كان ينزل إلى المدينة ويعود مع وجوهٍ شرهةٍ لها عيونٌ ذئبيةٌ ماكرةٌ ، تتفحَّصُ حقولَنا الخضراء ، ثم لا تلبث أن تقفل عائدةً وفي أقحافِ رؤوسها مشاريعُ سوداء ، ومسالكٌ خبيئة ، مدلهمّة تشيُّعها انحناءاتُ جبار وكلماتُه المتهالكةُ المتوسلة .. كنَّا ونحن نبصره من بعيد نحسبُ فعلتَه من بابِ الاحترام والكرمِ الريفي ، غير أنَّ الكبارَ من أهلِنا ما ظنوا ذلك على الإطلاق . " .

انحرف الدربُ الذي تلقَّف أقدامَنا يميناً بعد مسافةِ نصف ميل .. اجتزنا امرأتين عجوزين تسحب إحداهما حبلاً مُعلقاً برقبة مَطيّة . تمتمتا بكلامٍ لم نسمعه وهما تنظران :

_ إلى فاختةٍ على سعفةِ نخلةٍ تنوحُ بشجن .

_ والى ساقيةٍ قُطعَ عنها الماء فتعسَّرت عطشاً .

_ والى بضعةِ رؤوسٍ من الأغنام والماعز حُصرت في شريطٍ عشبي .

_ والى بساتين بعيدة طوّقتّها أسيجةٌ من أسلاكٍ غريبة .

وبين هذا وذاك كان الصمتُ المشوبُ بالتفكير والتهجُس يطوِّح بأحلامِنا الطليقة .. تأفّف فاضل وعيناه توشيان بتذمرٍ صارخ :

_ لقد زرعوا الأسلاكَ في كلِّ مكان .. أين سنلعب بعد عام ؟!

صرخ ستار :

_ لماذا تركتم عمَّك يبيع أرضه ؟ .. ها ؟

انتفض فاضل يدافع :

_ زعلَ أبي عليه وغضب ، حوَّله غضبُه إلى إنسانٍ آخر . قال له فعلتُكَ لا يفعلها إلا المجانين . كان عمي وقتها لا يسمع ولا يرى . قال كلاما جعل أبي يتفاقم سُخطاً ومرارة ، صرخ في وجهه ، والزَبدُ يتطاير من فمِه لا بدَّ للمتسببِّ من جَزاء .. من أينَ جاءنا هذا الجب.....

دفقٌ من الزهو أفعمَ قلبي . طافت فوقَ رأسي سحابةٌ من النشوةِ .. على الدوام كنتُ أسمع أبي يُكلّم أمّي ويقول في أرضنا دفءٌ لولاه لانسحقنا تحت صقيعِ الغربة .. يصمت قليلاً، فيتساءل : ما بال هؤلاءِ الناس فقدوا الأيمانَ فماتت بصيرتُهم .

وتذكّرت مرّةً كيف عادَ أبي غاضباً ، منزعجاً يُسمع أمّي كلاماً تغلّفه السخريةُ ونفاذُ الصبر ، فيقول :

_ تصوَّري ، يأتي جبار دونَ خجلٍ يعرض عليَّ بيع الأرض لأناس لا أصول لهم .

يهز أبي رأسَه ، وأسفٌ تبوح به عيناه . يتمتم : لقد تنكَّر هذا الإنسان لأفضالنا عليه .

لاح لنا جمعٌ غفيرٌ من الناس تحيطُ بالبركة .. الصبيةُ فيهم الأشدُّ فضولاً .. عيونٌ قلقةٌ مستريبةٌ تطفح خوفاً وتوتراً .. ينطعن فضولُهم فينفضُّ جمعهم ، ويتقافزون كقطيعِ غزلان سمع على حين غُرّة صدى أطلاقةَ صياد .. تقدَّمنا بحذرٍ .. صرنا على بعدِ خطوات . لمحنا شرطياً يمسك عصا ، وعرفنا انه أطلاقة الصياد .. لم نرَ كما يُفترض _ السيارات الفارهة وذوي الوجوه الشرهة ، بل رأينا ثمَّة سيارةً خضراء داكنة ، مكشوفة ، وقف إلى جانبها شرطيٌّ .. بحذرٍ واحتراسٍ تنقّلت خطانا حتى امتزجت مع الخطى المستريبة .. نططّنا برؤوسنا ، واقفين على أطراف أصابعنا ، ومتكئين على مَن هم أمامنا .. كانت البركةُ بعيدة نوعاً ما ، وعند طرفِها ثمّة رجلٌ طويل تستقر على كتفيه نجيمات بيضاء يتحرك ببطء متفحصا جثةَ القتيل عن بُعد .. كانت الجثةُ

غاطسةً في الماء ، لم ينكشف من الوجه سوى الجبهةُ وبروزُ الأنف والفمُ الفاغر وقد احتواه الماء فغمره . ومن الجذع الصدرُ المطعون ، وأطرافُ خِرقٍ ممزّقة من بدلته .

بين خوفِنا المتأجج وارتباكِنا الطافح ، تطلعنا وهمسُنا الحائر شاهدنا شرطيين أحدهما الذي كان يمسك بالعصا ويبعد الناس ينزلان إلى البركة بإشارةٍ من الرجلِ الضابط .. خاضا في مائها الملوث بالطين والدم .. أمسكا الجثّةَ ورفعاها . بدت الجثةُ ثقيلةً إلى درجةِ أنَّ الشرطيين أنزلاها إلى الماء مرتين قبل أن يدركا الأرضَ ويضعانها ... تقلّصت المسافة بين الحشد وحافة البُركة .. اقتربنا أكثر . صارت صورةُ جبار بجسده المتفكك أشد وضوحاً .

حدَّقتُ في وجهه . لم تكن سحنتُه تُشبه ملامحَ رجالِ قريتنا . لقد انطفأت عيناه ، واختفت الابتسامةُ المتميّزة منه ، وحلَّت مكانَها تكشيرةٌ غريبة . كانت طعناتُ الخنجر في رقبته _ كما خيل لي _ كتلك التي غرزها أبي في عنقِ لصٍّ دخيلٍ تسلَّق ذات ليلةٍ شتويةٍ عاصفة حظيرةَ الشياه الملاصقة لدارنا .. هاجسٌ مثل غيمةٍ تحبو من أفق مُدلهمٍّ دبَّ في رأسي .. تسللتُ من بين ثنايا الحشد .. سلكتُ درباً لا أدري كيف جعلني على أعتابِ البيت . دلفتُ إلى الدار ، ومنها إلى غرفةِ أبي دون أن التفت إلى أين تكون أمّي أو أختاي .. أولُ شيء عملتهُ هو أني هرعت إلى فراشِ أبي .. رفعتُ الوسادةَ .. لم تكن الدهشةُ وحدها التي ألقت بشباكِها على مكامِنِ روحي ، بل الحيرةُ والشكُّ والاستغراب .

لم يكن خنجره الفضّي هناك !

أتراه ... ؟!

انتظرنا لما بعدَ الظهر ، وعندَ الغروب ، واليوم التالي .. لم يعُد أبي ..

حزِنت أمي . وبكَت أختاي . وتأسّيتُ أنا .

حشودٌ من ألسنةِ اللهب غزت دواخلَنا .. تراكمٌ هائلٌ من الأفكار السوداء اكتسحَ نفوسَنا التعبى .. لكنَّ ما كان يخفّف من ذلك ويبدِّدها من صدورِنا ما جاءنا من أخبارِ المدينة من أنَّ أبي لوى قضبانَ حديدِ سجنه مرتين ، وقطعَ الحبلَ المشدود إلى عنقه ، ثم انسلَّ كالدخان .. من يومِها والأسلاكُ المضروبة على معاصمَ الأرضِ تتقطَّع ، والأسيجةُ الملتفَّة حول أعناقِها تتهدَّم .. تتنفسُ المزارعُ شهيقَ الرواء ، وتمتلك أجنحةَ الاتحاد متواصلةً مع خيوط الشمس .

كانون ثاني 1987

السماوة

آهٍ ، نجـاة ..

نستقبلُها بشغفِ الملهوفين ، وتلتهمُ عيونُنا الرابضةُ فوقَ الحُجرات الطينيـة أو على الدكّات الأسمنتية وجهَها المبتسم حدَّ الولـه .. تضحكُ لنا من وراء الأفق فتتولّى رموشُنا مهمّةَ الرد باهتزازاتٍ خاطفة . هي الشمسُ ونحنُ الصبيةُ الرُعاة . مواشينا في عهدتِنا ، ونجاة كالشمسِ تُبهرني بطلعتها . كلَّ صباحٍ أنتظرُها عند الشريط العشبي ، خلفَ الروف .. أعاتبُها إنْ تأخرتْ فتضحك ، وفي كلِّ مرَّةٍ تُجيب : أنتَ في الثانية عشرة وأنا أسبقك بثلاث سنوات ، أنتَ ولد وأنا بنت ، أنتَ تنهض من نومِك وتأتي بأغنامِك ، وأنا أنهضُ من نومي فآتي بالماء من الساقية ، وأجمعُ الحطبَ وأغسلُ صحونَ الشاي وأقداحَها ، وأشعلُ نارَ الموقد قبل أن آتي بالشياه من خلفِ الدار وأجيء إلى هنا .. نذهبُ إلى حيثُ النخلة المنتصبة قريباً من الشريط الرملي المحاذي للنهر فنجلسُ في ظلها .. أنظارنا تطالُع الفرات ، وتمسحُ الضفافَ ثم تستقر على طيورٍ تقف عند الجرف ، تثير فضولنا بأشكالِها البيض ومناقيرِها الطويلة ، وسيقانِها المستدقَّة . تقول نجاة : عجيب أمر هذه البجعات لا تأتي إلا في الربيع ، ولا تأكلُ إلا السمك ، هي مولعةٌ في الرحيلِ وتطيرُ لأي مكان تستأنسُ فيه .. نعدو إليها لكنَّها تطير عند اقترابنا . تصفقُ بأجنحتِها وتروحُ محلِّقةً صعوداً إلى السماء ، مستحيلةً كتلاً ضوئية تندفعُ ببريقٍ آخّاذ .. ينكمشُ وجُه نجاة وتضيقُ عيناها ، وكالحالمةِ أسمعُها تهمس : انظر إليها ، طيورٌ حرّةٌ ترفض أن يمتلكها أحد ، بل هي تملكُ الدنيا كلَّها .. ألا تُحِب أن تكون طيراً ؟.. أخلع ثوبي ونعليَّ واندفعُ إلى الماء وأرتمي .. أقول : أحبُّ أن أكونَ كالسمكة ، هكذا أعوم .. تعالي معي نزيل لدغات البعوض ولسعات الحرمس ، وترابَ وسائدِنا الغبراء .. تعالي يا نجاة ، تعالي لا تسخري مني _ أنتِ تحلمين بالطيورِ والطيران ، وأنا أحلمُ بالنهر وأسماكه ، أغوصُ معها وأصاحبُ أسرابها ، أبحثُ عن قواقعِ الأعماق ، وألاحقُ السلاحفَ السابحةَ بمجاذيف أقدامِها القصيرة . تعالي يا نجاة ، تعالي .. تركضُ نجاة تعدو ولكن ليس باتجاهي ، بل صوبَ صخرةٍ ملساء تعلو عن الجرف . تتوقف عندها ثم تجلس فوقها .. تدفع ذراعيها إلى الماء وتغرفُ منه بيدين مصفوفتين تدلقُه على وجهِها فينساب على بشرتِها مبلّلاً حاجبيها السوداوين ورموشِ عينيها النافرة ماراً على شفتيها المزمومتين ، منسرحاً على رقبتِها السمراء . وكما لو أني أراها لأول مرة أكتشف كم هي جميلة ، رهيفة ، نضرة .. واعترف أني اكتشفتُها تزيد من الاهتمام بنفسِها هذه الأيام _ وحين تنهض كانت تسيرُ بخطوات متكلِّفةٍ وبحركاتٍ تتأمل فيها تمايلَ جسدِها .

أقول : نجاة أنتِ تمشين كالبطّة .

وأقول : لو شاهدكِ غيري لحسبكِ من بناتِ المدينة .

وأقول : لو كنتِ أختي لقتلتكِ .

وأقول : آه لو رأتكِ جدَّتُكِ .

فتضحك نجاة .. تضحك وهي تخطو لمسافةٍ كأنها تبغي تركي ، ثم تستدير بحركةٍ غريبة .. ومن بعيد نلمحُ (كريم) يقف عند جادَّة الروف يبغي النزول إلى المدينة .. كريم يكبرني بسنوات ، وكذلك يكبر نجاة .. هو أخو (عطوي) الأصغر . منذ كان بعمري الآن أخذه أبوه إلى المدينة ، شغَّلهُ هناك صانعاً عند حلاّق ، ذلك جعله يتهندم ، يلبسُ السترةَ والبنطلون ، ويصفّف شعرَه جيداً ويتصرَّف كالكبار .. ونجاة تتصرفُ بغرابةٍ عندما تلمحه .. تتطلع إليه وتخطو كالقطّةِ أمامه ، لكنّه لا يعيرها اهتمامه .. يصعد باصَ القرية دون أنْ ينظر إليها ، فأبصرُ وجهَها يتّشح بالحزن . حزنٌ كالذي أشاهدُه عندما تتأمل طيوراً راحلة . تكتئِبُ نجاة وتتحسّر ، تغرقُ في شرودٍ ثقيل . لا تُجدي محاولاتي في تخليصِها من خيوطه .. أقتربُ محدِّقاً فيها باستغرابٍ فتشيحُ بوجهها عني وتصير على وشك أنْ تبكي .. لا تتحسري يا نجاة ، كثيراً ما تحذرني أمّي منه ، ودائماً تقول : يا ولدي لا تجعل خيالَك يسرح بعيداً ، ولا تفكّر في أشياءٍ ليس لك قدرة على امتلاكها ، فمن يشغلُ نفسَه في ذلك يجن . وعطوي ما جنَّ إلاّ لأنه كذلك (شاهدناه مرةً ومرات يحدّق طويلاً في الفراغ . وشاهدناه يكلّم العصافيرَ ويتابع الطيورَ الراحلة في السماء ، يأكلُ مع القطط وينامُ مع الكلاب .. وكنا إذا أردنا إخراجه من شرودِه همسنا بصوتٍ خافتٍ : زهره .. زهـ..رة فينتفض ، يحدِّق فينا ويطيلُ النظر إلينا ثم ينفجر بضحكاتٍ طفولية متتالية ، يغرقُ في ضحكةٍ حتى تمتلئ عيناه بالدموع وينقلب فجأةً وينتحب ، ثم يجهشُ في بكاءٍ مرير يسحق الروح ويكوي القلب ، فيهشّم فينا رغبتَنا بالتندّر عليه . نقترب منه بيدَ انّه يهرب .. يهرب) أخافُ عليكِ يا نجاة ، لا تشردي بعيداً في أفكاركِ .. تتطلّع نجاة في وجهي وأسمعُها تتمتم : أنتَ ما زلتَ صغيراً .. تظلُّ ذلك النهار تعيسةً ، ضجرةً ترفضُ الذهاب إلى النهر ، ولا ترغب في الجلوس عند النخلةِ المنتصبة حيث اعتدنا تناول رغيفاً نجلبهُ معنا و "خبّازاً " أجمعهُ من حافاتِ السواقي .. أتعقّب أغنامَها المبتعدة وأجمعُها مع أغنامي . أسألها : لِمَ كل هذا الحزن يا نجاة ؟ لِمَ أنتِ هكذا ؟ انهضي لنذهب إلى الروف ننصب شباكنا لاصطيادِ الزرازير ، فجدّتُكِ ستبتهج كثيراً لها . ستكافئنا بالتمرِ المُداف بالسمن .. هي تحبُّ أكلَ الزرازير ، تقضمُ عظامَها بعد تحميصِها وتطالبُنا بالمزيد .. وفي كلِّ مرةٍ تقول لي : يا جدَّة ، عافاك اللّه لقد خففَّتَ آلامَ مفاصلي . اجلب لي المزيد ؛ وإنْ جلبت لي عظام الهداهد ستكون مكافأتُكَ أكبر .. لماذا عظام الهداهد يا نجاة ؟! سنجلبُ لها الأرانب .. هيّا دعينا نلاحقُها ونُخرِجُها من جحورِها . سيكون سرورُ جدتِكِ أكبر .. ستتَمتَّع كثيراً في سلخِ جلودها ودبغِها . هي ما زالت بحاجةٍ لعملِ أفرشةٍ إضافيةٍ لها .. هي قالت : أريدُ عملَ وسائدَ من جلودِ هذه الأرانب السمر . سأحشوها بريشِ زرازيركم الشهية .. وبالأمس طلبت منّي أنْ أجمع لها أغلفةَ القواقعِ من بين الرمال الساخنة .. لماذا تبدو هذه الجدّة غريبة الأطوار (إليها يأتي الكثيرُ من النساءِ تقرأ سعدَهن وتصنعُ لهنَّ دواءً لأمراضٍ كاذبةٍ ، تتلفّظ إزاءهنَّ بألفاظٍ مبهمة تثيرُ في نفوسهن الرعبَ ، وحينما تشاهدنا نتلصصُ عليها من ثغراتِ جدار البيت المعمول من سعفِ النخيل تتوقف ترمقُنا بنظراتٍ مخيفةٍ فنهرب .. لا تودُّ اقترابَنا . تظنُّنا نُفسد أفعالَها . أبسبب هذا تبُعدكِ عنها وتُلهيكِ برعي الشياه ؟ .. كلا .. كلا . تردُ نجاة : جدَّتي دائماً تقول : رحمَ اللّهُ أمَّكِ ، لو كانت حيَّةً لساعدتني في عملي ، ولكن لا بأس ، عندما تكبرين ستجلسين إلى جانبي وتتركين شؤونَ البيت لأختكِ الصغرى .. ينتابني الفزَع ، وتتمثّلُ صورةُ نجاة أمامي بملامحَ مقيتةٍ . يأخذُ وجهُها شكلَ الساحرات المسنّات : غضونٌ نافرةٌ وندبٌ متناثرة ، وضحكاتٌ متقطّعة تقطرُ دهاءً ومكراً ، ويدان متشنِّجتان بأصابعَ طويلةٍ صبغَتها مساحيقُ السحرِ بألوانِها المتنافرة ، فأنتفضُ صائحاً :

نجاة : ستفقدين جمالَ الفتياتِ ورقَّتهن .
نجاة : إيّاك أنْ تتعلَّمي هذا الفعل البغيض .
نجاة : ستصاحبين الجنَّ ويمسخُكِ اللّه .
نجاة : سيكرُهك الآخرون وينسلخوا عنكِ .

لا . لا ، نجاة هذه جدّة مخيفة ، لا تفعل الخيرَ للآخرين . ألم تقُل هي التي زرعت في رأسِ عطوي مَلكاً من ملوكِ الجن .. ألم تقل ذلك ؟.. (جاءتها أمُّ زهرة ، وبحذرٍ أفشت لها : عطوي يتابع ابنتي ويخطرُ كثيراً من أمامِ البيت ، يتابعُها إنْ خرجت للزرع ، ولو عرف أبوها بحبِّها له وحبّه لها سيقتلهما .. كلُّ شيءٍ إلا العار ، أنتِ العارفة ، العالمة ، افعلي شيئاً .. ذلك اليوم استحضرت جدّةُ نجاة سائلاً استخلصته من خلطِ سوائلَ لها روائحُ مقززّة ملأت منها قنينة وضعوا محتوياتِها في شرابٍ تناوله عطوي .. أيام فقط بعدها طفقَ المسكينُ يشكو حرقةً في جوفِه ، ووشيشاً في رأسهِ فيما راح عقلُه يتبخر فيقلُّ نُطقهُ ، ويزدادُ شروده) .. لا .. لا ، نجاة أخافُ عليكِ . لو فعلتِ مثل ذلك لأحدٍ ستتصبحين شريرةً .. تضحكُ نجاة . وكما لو ومضت فكرةٌ في رأسِها واستقرت راحت تُتمتم : جدتي تستطيع فعلّ أيِّ شيء ، ويوم أريدُها في حاجةٍ سأجعلُها تحضرها لي .. قالت ذلك واستدارت تنظرُ إلى الدربِ النازل صوب المدينة ، وإلى مكانٍ توقُّف كريم .. ها نجاة ما بكِ ؟!

منذ ذلك اليوم تغيَّر حالُها .. لم تعُد سمحةً ، طيِّعةً ، رائقة . صارت تزداد شروداً ، وتتابع طيوراً تمرُّ في سماءِ قريتنا ترافقها بعينين متصالبتين حتى يغيّبها الأفقُ البعيد .. لقد عادت نجاة تحلُم بالطيورِ الراحلة ، والمدنِ النائية .. وعندما تعود بأغنامِها وقتَ تعامدِ الشمس وسخونتِها فوق رؤوسنا ونقطعُ أرضاً صعدت فيها سيقان الحنطة وتدلَّت سنابلُها الخضرُ أقطعُ سنبلتين . أمسكُ واحدةً فيما أعطيها الثانية . أروح أقضم حبيباتِها وأمتص حليبَها بينما تظلُّ نجاة تمسك سنبلتَها ، تضرب بها باطن كفِّها بعصبيةٍ واضطراب . اهدئي يا نجاة ، لا تقلقي كثيراً . سأتزوجُكِ عندما أكبر وسأبني لكِ غرفةً ، واشتري لكِ جهازاً من سوق المدينة . لن أدعكِ تجنّين ... تنحرفُ بأغنامها باتجاهِ بيتها .. تودِّعُني بابتسامةٍ باهتة من وجهٍ شاحب .. أبتسمُ لها وأرجوها أنْ لا تتأخر في الغد .

نذهب في اليوم التالي إلى حيثُ الشريطِ العشبي ، وتذهب عيونُها تتابع جادَّة الروف ، والنسوةَ النازلات إلى المدينة ، والسياراتِ القادمةَ المخترقة قريتِنا نحو قرىً بعيدة ، تتابع كريماً وهو ينتظر الباص النازل . ومثل كلِّ مرَّةٍ يصعدُ إلى الباص ويذهب دونَ النظر إليها فتغرقُ في صمتٍ ثقيل . أقول : آه من تصرفاتِك يا نجاة .. ماذا سيقول لو شاهدك غيري .. ترمقُني بغضبٍ فأصمت ، ومع صمتي يتفاقمُ الحزنُ في عينيها ، ويروح وجهُها يصفرُّ ... قضت في ذلك أياماً حتى قدِم ذلك الصباح الربيعي الذي فوجِئتُ بها تُصبِّحني بابتسامةٍ نضرة ، وتطالعني بوجهٍ ألقٍ وقد ارتدت ثوباً جديداً فصحتُ بها : أنتِ جميلةٌ بهذا الثوب الأزرق ، وجميلةٌ بورودهِ الصفراء اللامعة .. وجهك يا نجاة يتورَّد .. ياه ، أنتِ تغيرتِ حقّاً .

صارت نجاة تُكثِر من حركتِها واهتزازِ جسدِها .. وصارت تُسمِعُني كلماتٍ لا يقولُها إلا الكبار .. وأنا في خضم ذهول وحيرة واندهاش أتساءل عن سرِّ هذا التحوّل المفاجئ.. وفي حيرةٍ أشد هويتُ حينما ألفيتُها تبتعد عنّي وتقلل من مجيئها معي .. شرعت تقود أغنامَها إلى أرض خضراء تجاور بستاناً يحاذي الروف البعيد ، وعندما أقتربُ تحاول تجنبي والهربَ مني ، لماذا ؟ . لماذا ؟. آه ، ربما تكون جدَّتُها فعلت أمراً جعلها تبتعد .. ذلك سيقودُها إلى الجنون بالتأكيد .. لو حدث ذلك سأخنقُ هذه الجدّة القبيحة .. سأحرقُ فراشَها ، ووسائدَها التي تشبه جثث أرانب متوحشة .. أنا لا أرغب اللعب إلا مع نجاة .. مع مَن سأذهبُ إلى النهر ، ومعَ من سألاحقُ

البجعات ، وأطاردُ الأرانب وأصطادُ الزرازير ؟ .. آه ، لقد باتت نجاة تبتعد أكثر .. تصاحبُ الفتيات اللاتي يكبرنها .. تشاركهن في جمعِ الحطب ، وتساعدُهن في الحصاد ... ويوم شاهدتُها مع بعضهن تحمل قشّاً من حنطةٍ محصودة على رأسِها باتجاه القرية عزمتُ على اللّحاقِ بها وإيقافِها ثم السؤال عن سرِّ ابتعادها ،، شاهدُتها تتخلَّف عن صاحباتِها قريباً من البستان وترمي كومةَ القشِّ من على رأسِها .. وعبرَ ثغرةٍ في سياجِ البستان وبالتفاتةٍ حذرةٍ يميناً وشمالاً شاهدتها تدخل .. أسرعتُ إثرها . دفعتُ رأسي من ذات الثغرةِ وتطلَّعت . وإذ لم أرَها دخلتُ متخفّياً خلف سيقان النخيل .. يصلُ مسمعي صوتٌ هامس صَعُبَ عليَّ تفسيره . بوغِتُّ بعدها بنجاة تقف بارتباكٍ صارخ وقد أحمرَّ وجهُها وارتعشت يداها وهي تتطلع بعينين قلقتين كأنها بانتظار أحد .. كنتُ على وشكِ أنْ أنده باسمِها عندما قَدِمَ من عمقِ البستان شخصٌ لم أميّزه في البدء ، حتى إذا اقتربَ ووقفَ إزاءها تبيَّنتهُ بوضوح . آ .. إنّه كريم بلباسهِ المدني وشعرهِ المصفف . سمعتُه يسألُها بقلقٍ ، ونفاذِ صبر : ماذا تريدين منّي يا نجاة ، ماذا تريدين ؟!.. كانت نجاة تحاول أنْ تتفوَّه بكلام لكنّها لم تقدِر على ما يبدو .. فقد خذلتها عيناها اللتان تصببّتا دمعاً .. كدتُ أصرخ بها ، ثم أرتمي عليه أُشبعه ضرباً ، بيد أنّي تمالكتُ نفسي كبرياءً بينما فمٌ في داخلي انفجرَ يصيح : لماذا تذلّين نفسَكِ هكذا يا نجاة ؟.. لماذا ؟.. لماذا ؟

مايس / مايو 1988

السماوة

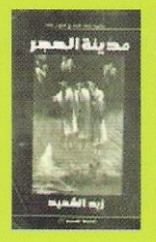

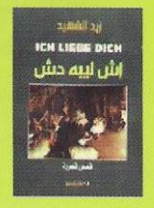

اغلفة
الطبعة
الاولى
للمجموعات

Al-Yanabia
sweeden-stokholm

دار الينابيع
طباعة . نشر . توزيع